



جمهورية مصر العربية
المجلس الأعلى للشئون الإسلامية
لجنة الخبراء

آثار فلسطين

تأليف : وليد ف. أولبريت

الدكتور محمد عبد القادر محمد
أستاذ كرسي الآثار المصرية
بجامعة القاهرة

ترجمة
الدكتور زكي إلكندر
مدير عام الشؤون الفنية
بمصلحة الآثار

و

مراجعة
الدكتورة سعاد ماهر
أستاذة كرسي الآثار الإسلامية
بجامعة القاهرة

الكتاب
الحادي عشر
١٩٧١ - ١٩٧١

يشرف على إصدارها
محمود فائق عوضة

نبذة عن المؤلف

ولد الدكتور وليم فوكسويل أولبرايت William Foxwell Albright في أمريكا الجنوبية عام ١٨٩١ وتعلم في الولايات المتحدة الأمريكية ، وحصل على درجة الدكتوراه من جامعة جونز هوبكينز Johns Hopkins بمدينة بلتيمور Baltimore عام ١٩١٦ * ومن ١٩١٩ الى ١٩٣٦ عين عضواً في هيئة المدرسة الأمريكية للبحوث الشرقية في القدس ثم مديراً لها ، وقد كان في هذه الأثناء يعمل رئيساً أو مستشاراً لبعثات أثرية عديدة في فلسطين والاقطار المجاورة * * وهو الآن استاذ اللغات السامية في جامعة جوفس هوبكينز * ومنح الدكتور أولبرايت أيضاً الدكتوراه الفخرية من جامعات كثيرة منها جامعات ييل Yale وسانت أندروز St Andrews وكلية الثالوث الاقدس بدبلن Trinity College, Dublin وأترخت ، واوسلو ، وأوبسالا * وهو عضو في الجمعية الفلسفية الأمريكية ، والاكاديمية الاهلية للعلوم ، وعضو خارجي في الاكاديمية الملكية الدانيمركية والاكاديمية الملكية الهولندية ، وعضو فخري في الاكاديمية الملكية الايرلندية ، وعضو مراسل في معهد فرنسا وأكاديمية العلوم النمساوية * وهو أيضاً زميل في المعهد الألماني للآثار ، وعضو فخري في الجمعية الآسيوية والجمعية البريطانية لدراسة التوراه ، وجمعية الدراسات الشرقية بجلاسجو وهيئات علمية أخرى *

THE ARCHAEOLOGY OF PALESTINE

W. F. ALBRIGHT

by

Dr. W. F. ALBRIGHT was born in South America in 1891, and was educated in the United States, receiving his doctorate from Johns Hopkins University (Baltimore, Md.) in 1916. From 1919 to 1936 he was staff-member and director of the American School of Oriental Research in Jerusalem, directing or advising numerous archaeological expeditions in Palestine and surrounding countries. He is now W.W. Spence Professor of Semitic Languages in the Johns Hopkins University. Dr. Albright holds many honorary doctorates, including degrees from Yale, St. Andrews, Trinity College (Dublin), Utrecht, Oslo, and Upsala. He is a member of the American Philosophical Society and the National Academy of Sciences, foreign member of the Royal Danish and Flemish Academies, honorary member of the Royal Irish Academy, corresponding member of the Institut de France and the Austrian Academy of Sciences; he is also de France and the Austrian Academy of Sciences; he is also fellow of the German Archaeological Institute and honorary member of Société Asiatique, the British Society for Old Testament Study, the Glasgow Oriental Society, and other learned bodies.

مقدمة الناشر

كتبها م ١٠٠ مالوان (١)

كتاب الاستاذ أولبرايت عن آثار فلسطين القديمة هو أحد الكتب من سلسلة بليكان التي ترمى الى وصف التطور الحضارى منذ فجر التاريخ الى القرون الاولى من تقويمنا الحالى . وفى كثير من أجزاء آسيا ، بقيت لحسن الحظ آثار ومخلفات قديمة لتروى لنا أسلوب الحياة فى الأزمان الغابرة التي أصبحت فى عالم النسيان منذ أمد بعيد . والهدف من هذه الكتب عن الآثار القديمة هو اعطاء صورة واضحة للإنسان القديم ، مستمدة بصفة خاصة من الدلائل الاثرية التي تتميز بأنها تصويرية . وفى الحقيقة أن ميلنا للآثار يرجع الى كونها توجه أنظارنا الى مجموعة غنية متنوعة من الأشياء التي يمكننا أن نراها ونلمسها ونحس بها . وقد يكون الدليل الاثرى قطعة من العملة المسكوكة بصورة لاحد القياصرة أو تمثالا لحاكم آشورى ، أو اثناء بديع التلوين قام بزخرفته وتلوينه فنان من عصر ما قبل التاريخ اسمه غير معروف ، فكل قطعة من الأدلة لها مكانها فى تاريخ الحضارة . وأكمل بيانات هي تلك التي استمدت من التنقيبات الاثرية التي ظهرت فيها قصور ومعابد وجبانات ومسكن وشوارع كثيرا ما تكون كاملة الى حد كبير .

ولا يمكن لكتب الآثار أن تغفل الاستشهاد بالكتابات القديمة ، أو بعادات الاحياء وتقاليدهم ، اذ هي تتضافر فى توضيح حلقات الماضى ، فدراسة الآثار ودراسة التاريخ تكمل كل منهما الاخرى وتعتمد كل منهما على الاخرى .

(١) م ١٠٠ مالوان استاذ اثار غرب اسيا بمعهد الآثار — جامعة لندن ،
والمشرف العام على نشر سلسلة بليكان Pelican عن اثار الشرق
الادنى وغرب اسيا .

وبدل المدى الواسع للمواضيع التى تناولها الاستاذ أولبرايت بالبحث فى هذا الكتاب على الترابط الوثيق فيما بين الآثار والتاريخ والفنون والعلوم ، وكان علاجه لهذه المواضيع موفقا لدرجة بالغة فى اجتذاب القارئ العادى بل والقارئ المتخصص أيضا حتى أنه أعيد طبع هذا الكتاب خمس مرات حتى الآن منذ صدور طبعته الاولى . وفى هذه الطبعة المنقحة الاخيرة أخذ المؤلف فى الاعتبار كثيرا من البحوث الحديثة فى ميدان ما قبل التاريخ وعلى الأخص اكتشافات الدكتور كاتلين كينيون ذات الاهمية القصوى فى أريحا والشواهد الاضافية على بدايات الزراعة فى أماكن أخرى . وان الزيادات الجوهرية فى المعرفة مثل تلك الاعمال التى قام بها دى فو R. de Vaux وعلاقتها باكتشاف ملفات البحر الميت لتشهد بالتقدم الضخم الذى حدث فى حقل الآثار خلال السنوات العشرة الاخيرة .

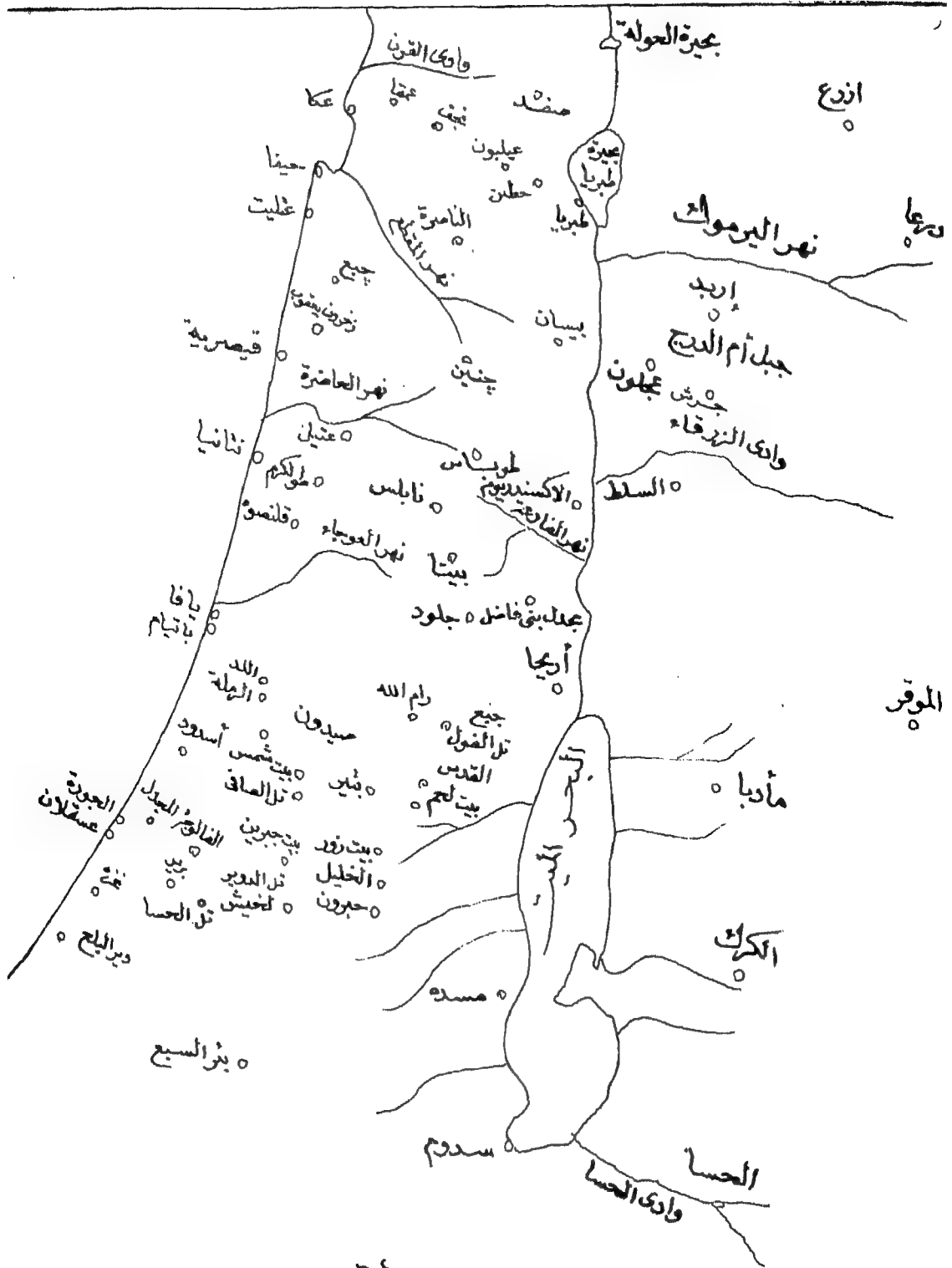
راى فى القضية الفلسطينية

جاء فى كتاب : « أبحاث فى العلوم الخفية » مؤلفه الانجليزى سيريل سكوت :
SYRIL SCOTT : An Outline of Modern Occultism. second edition,
1949 p. 210 London.

يذكر المؤلف « واذ نستعرض مشاكل العالم ماضيه وجاضره ومستقبله ، يجب الا يغرب عن اذهاننا مشكلة اليهود ، فاليهود ليسوا أمة بأى حال من الأحوال ، ولكنهم جنس مختلط تكونت لهم صفات مميزة ، وهم ولو انهم فى الحقيقة اقلية فى العالم ، الا انهم اقوياء بثرانهم الفاحش وبقدريهم على السيطرة على المناصب الكبرى . وأساليبهم تشبه أساليب هتلر النازية ، فانهم يبعثون الرعب ويبثون الخوف والارهاب ، كما ينشرون الرشوة ويثيرون القلاقل والاضطرابات فى العالم ويعيثون فى الارض فسادا ، ومن ثم فان اليهود قد ارتكبوا أوزارا تجلب عليهم اللعنة . وهم اليوم يرتكبون أوزارا أكثر من ذى قبل لاغتصابهم أرضا ليست ملكا لهم ، أرضا تركوها منذ أكثر من ألفى سنة متناسين أن قلة من البلدان هى التى يعيش فيها سكانها الاصليون ، واننا اذا حاولنا استرجاع أراضى بلاد العالم وردنا الى سكانها الاصليين لكان علينا أن نطرد الأمريكان من الولايات المتحدة للهنود الحمر سكانها الاصليين وأن نطرد الانجليز من استراليا ، وأن نطرد ملايين من الناس من ديارهم فى جميع انحاء العالم . وقد ظل اليهود قرونا كثيرة رمزا للانسان الحائر الدائر ، القلق الجواب الذى يجوب الارض شرقا وغربا ، المنطوى على نفسه ، الجشع المحب لذاته . والحل لهذه المشكلة فى رأى هؤلاء الحكماء المستنيرين هو اذابة اليهود فى جميع الشعوب » .
نستدل بهذا النص ان ادعاء اليهود فى حقهم التاريخى فى فلسطين لا يقوم على أساس ، اذ يتعارض مع تطورات الحياة .

دكتور محمد عبد القادر محمد

خريطة لاثار فلسطين



النقبة

الفصل الأول

فن التنقيب فى تل فلسطينى

انه لمن السهل عادة على المرء أن يتفهم بوضوح موضوعا فى عصر ما اذا ما انتظر بضع سنوات حتى يدرسه فى ضوء تاريخه . واذا كان لنا أن نرى التاريخ فى صورة واضحة فانه من الضروري أيضا أن ندرسه فى ضوء الاحوال المعاصرة . ففى الفصل الثانى من هذا الكتاب سنذكر باختصار تاريخ الكشف والبحث الاثرى ، فى حين أننا فى هذا الفصل الاول سنعاون القارئ باعطائه فكرة عامة عن هذا التاريخ بتوجيه نظره الى الحقائق الصحيحة للتنقيب كما يجرى الان . فالتنقيب فن وعلم ، وفن التنقيب الجيد يجب أن يرقى كلما زادت المعلومات الاثرية لدى المنقب وتحسنت طريقته ، غير أنه لا مناص من أن يفترق الفن عن العلم أحيانا وهو أمر مؤسف .

وكثيرا ما يسمع المنقبون هذا السؤال ، كيف يتم اختيار مواقع التنقيب ؟ والاجابات الممكنة عليه تبلغ فى عددها عدد المنقبين تقريبا ، فهى تختار أحيانا بسبب تصادف العثور بها على أشياء ذات أهمية بالغة ، ونتيجة لذلك تدعو الحكومة أو الهيئات المرموقة الى توجيه نداء لتنظيم بعثة للتنقيب بها ، وقد حدث هذا فعلا فى حالة أعمال التنقيب السورية المثيرة فى رأس شمرا ومارى حيث عثر شيفر Schaeffer وباروت Parrot على مكتشفات ذات أهمية بالغة . وفى فلسطين حدث نفس الشئ مرارا فى التنقيبات الصغيرة ، مثل عمليات تنظيف المقابر والمعابد أو المباني القديمة الأخرى . وكثيرا ماتجذب شهرة موقع قديم المنقب للعمل به ، ولدينا أمثلة عديدة على ذلك ، منها أعمال التنقيب التى أجريت فى القدس ، وكذلك الأعمال التى قامت بها بعثات التنقيب الألمانية والأمريكية فى مجدو واريحا وشكيم والسامرة وبيت ايل . وفى بعض الاحيان يجذب تحقيق جديد أو كشف جديد انتباه شخص ما ، ومن الأمثلة على ذلك المجسات التى أجراها جارستانج Garstang فى

حاصور وحفائر المؤلف (أولبرايت) فى تل بيت مرسيم • وقد يكون السبب الرئيسى لاختيار موقع ما هو سهولة الوصول اليه (وهو أمر هام جدا) مثل حفائر بادى Bade فى تل النصبة ، وحفائر المؤلف فى تل الفول (جبعة) • ومن الاسباب العامة للتنقيب ، تأثير الطابع الاثرى أولا فى تل الحسا ، ودفع جارستانج لإجراء مجساته فى تل قيسان للموقع ، بصرف النظر عن تاريخه ، فقد دفع هذا بترى Petrie للعمل وهارباج ، ودفع المؤلف للعمل فى آدر Ander

ومن البديهي أن توجد أيضا أسباب غريبة جدا لقيام بعثات التنقيب ، ولا ننسى بعض أسباب أكثر غرابة لمشروع بعثات ، وقد يكفى أن نذكر هنا مثلا واحدا أو مثالين ، فعندما كنت فى اجازة بأمریکا فى أوائل صيف سنة ١٩٢٧ ، اطلعت فى بعض الصحف الاقليمية بالولايات المتحدة على بعض فقرات أخبار غريبة ومقالات عن اكتشاف منقب أمريكى « للفلك الذهبى » على جبل نبو ، فلما عدت الى المدرسة الامريكية فى القدس فى الخريف كان هذا المنقب الامريكى من أول من قاموا بزيارتي ، وذكر لى أن مصلحة الآثار بفلسطين قد أحالته الى المدرسة الامريكية ، واتضح لى فى الحال أنه زار نبو مرة واحدة ولكنه كان يخشى العرب جدا حتى أنه لم يجرؤ على العودة اليها ، وكان هذا هو كل العمل الذى قام به فى نبو ، ومع ذلك أرسلت أخبار اكتشافه للفلك برقيا فى كل الاقطار • وثمة قصة أقل بريقا ولو أنها مؤثرة جدا وهى قصة مزارع من ولاية الينوى الامريكية قابلته أنا وماك كاون منذ عدة سنوات فى فندق الناصرة ، وكان هذا المزارع ناظرا لمدرسة الاحد الربفية التى تتبع طائفة المعمدانيين ، وكان أحد جيرانه ناظرا لمدرسة أحد تتبع طائفة النظاميين Methodist • وفى أحد الايام دخلا فى مناقشة بشأن أفضلية التعميد بالتغطيس على التعميد بالرش ، وعندما اشتد النقاش قدم النظامى برهانا أعتقد أنه برهان قاطع ضد التعميد بالتغطيس وهو : أنه لم يكن يوجد فى أورشليم أى مكان كان يمكن تعميد كل الجموع الغفيرة به بالتغطيس فى عيد الخمسين ، فما كان من المعمدانى المفحوم الا أن اقترح على جاره النظامى أن يشرف على مزرعته بينما ذهب هو الى القدس ليجت هذا الامر • وسافر على ظهر باخرة وجاب فلسطين سيرا على الاقدام توفيرا للمصاريف ، وقد اعتدى عليه بعض اللصوص ونهبوا ما معه بالقرب من نابلس ، كما أنه أشرف

على الموت بسبب أصابته بالدوسنتاريا نتيجة إقامته في نزل يهودي رخيص في طبريا ، لكن ذلك لم يهمله ، فقد أبرقت عيناه فرحا بينما كان يصف نجاح بعثته ويحكى أنه قاس أبعاد بركة ماميللا Mamilla في القدس وقدر أنها كانت تتسع لكل الجموع في عيد الخمسين ، وطبعاً لم يكن هناك فائدة من افادته بأن البركة المشار إليها من القرون الوسطى ، إذ يوجد في القدس عدد من الخزانات الكبيرة يرجع تاريخها دون شك إلى ذلك الوقت . وكانت كلماته الأخيرة لنا قبل أن نفترق « وبناء على ذلك فإنني عائد لكى أهدى أخى النظامى » .

وثمة مشكلة أمام المنقب أهم بكثير من اختيار مكان التنقيب ، ألا وهي كيفية تدبير المال اللازم . فعلم الآثار نوع من البحث الذي يتطلب تكاليف كبيرة نسبياً ، ولو أنه أقل في تكاليفه بكثير من علم الفلك ومن علم الطبيعة النووية ، كما أنه ليس مكلفاً بالدرجة التي تتسم بها بعض الأمثلة الصارخة « للصرف للتظاهر » فالمنظم الحكيم لأعمال التنقيب هو الذي يبحث عن الموقع الذي يمكن دراسته دراسة وافية أو عمل مجسات بطبقاته المختلفة في حدود الاعتمادات المتاحة له . ولقد انقضى الزمن الذي كان يمكن لعالم أثرى واحد أن يقوم فيه بأجراء أعمال تنقيب كبيرة وحده ، كما حدث في جازر ومجدو قبل الحرب العالمية الأولى .

فأعمال التنقيب في الوقت الحاضر عملية بالغة التعقيد جداً كما سنرى ، ومع ذلك فمن البديهي أنه قد يؤدي شخص واحد عملاً يدعو إلى الإعجاب في تنظيف المقابر أو في التنقيب في مواقع صغيرة جداً . وقد أصبح وضع ميزانية سليمة والتدقيق في صرف الاعتمادات عاملين هامين لا يقلان في أهميتهما لنجاح بعثة أثرية عن التنقيب العلمي والتسجيل .

ومعظم أعمال التنقيب تتولاها المعاهد والجمعيات الأثرية وصندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين الذي كان له نصيب الأسد في كل العمل الأثرى بفلسطين ، وقد جمع كل أمواله من اشتراكات الأعضاء وأحياناً من هبات سخية . أما البعثات الألمانية والفرنسية فهي تعتمد عادة على الاعتمادات الحكومية لتغطي جزءاً من مصاريفها على الأقل . كما أن كثيراً من الأثرياء قد أظهروا كرماً كبيراً ، ومن أهم هؤلاء جون روكفلر الاب ، وجون روكفلر الابن وجاكوب شيف ، وسير شارلز مارستون ،

والسير هنرى ويلكوم ، والبارون آدموند دى روتشيلد * وكثيرا ما كان يتولى المنقب جمع المال اللازم بنفسه ، وكان فى بعض الاحيان ينفق من ماله الخاص أو يحصل على المال نظير انقاء محاضرات أو نظير الكتابة فى الصحف * وقد تأتى منح من المعاهد والمؤسسات التى تعتمد على الهبات ، مثال ذلك مؤسسة روكفلر أو جمعية كارنيجى Corporation ، وتوجد الان كثير من هذه الجمعيات فى أنحاء مختلفة من العالم الناطق باللغة الانجليزية ، غير أنه ليس من السهل الحصول على اعتمادات من معظمهم لأغراض البحث الاثرى * وأنه لمن الصعب اقناع الرجل العادى أن علم الآثار يستحق التعزيد على قدم المساواة مع المشروعات العلمية الاخرى * وعندما يصبح لدى بعض الافراد أو الجمعيات اهتمام بالموضوع ، فان اهتمامهم يكون عادة لفترة قصيرة ، ويكون مركزا على الموضوع الاثرى الذى أثاره فى نفوسهم التحمس الشخصى لاحد الاصدقاء أو الاعضاء حسبما يتفق *

وتدبير الاموال لاجراء التنقيب عملية غير محببة للنفس بالمرة ، اذ يتطلب هذا ان يصبح الانسان شحاذا ، يمر على ممثلى الجمعيات الخيرية والمنظمات ، محاولا اقناع ذوى اليسار بان المشروع الذى سيقوم به يستحق التعزيد أو انه مثير * وكثيرا ما يظن البسطاء ان جمع الاموال لاجراء تنقيب فى فلسطين أسهل من جمعها لاعمال مماثلة فى أى مكان آخر * لكن العكس هو الصحيح ، فمديرو المتاحف وأعضاء مجالسها يوضحون ، وهم على حق ، ان فلسطين قلما توجد بقطع اثار متحفية * والجماعات الدينية المحافظة لا تظهر فى الغالب رغبة فى اجراء أى عمل اثرى هناك ، اذ يقولون انه لما كان الكتاب المقدس لا يحتاج الى تايد ببراہين ، فليس ثمة داع للبحث عن أى شىء اكثر مما لدينا بالفعل * والاكثر معرفة من ذوى العقول المتدينة كثيرا ما يسخرون من فكرة الحصول على « قيم انسانية من علم الشقف » * اما المتحررون دينيا فكثيرا ما يقولون : « ولكن لماذا ينقبون فى فلسطين — انكم ستعرفون اكثر عن تاريخ الديانة بالتنقيب فى الهند أو الصين * وكثير من كبار المولين لهم هوايات خاصة مما يجعلهم يصفمون على التدخل فى التنقيب ، فواحد يبحث عن ادلة تربط الشرق الادنى بوسط امريكا عن طريق يوكاتان Yucatan ، وآخر يطلب استخدام الطرق الجيوفيزيائية أو عصا القنقن (الخبير بالماء تحت الارض) لتحديد

مواقع الجدران او الرواسب التى فى باطن الارض ، فى حين ان كلام من جهاز المغناطيس الكهربائى واغصان الصفصاف ليست له فائدة تذكر فى معظم المشروعات الاثرية ، ولذلك فان مثل هذه الطلبات قد تكون عقبات خطيرة تحول دون اتباع الطرق السليمة .

وهناك ايضا من يفضلون ان ترشدهم كرة بللورية (مثل ما حدث فى بعثة باركر قبل الحرب العالمية الاولى) أو أن يكون مرشدهم وسيط روحانى . وقد يصر احد هؤلاء السادة على ان ينشر الاكتشافات المثيرة بنفسه ، مصحوبة بتفسيراته غير السليمة .

وقد يتجول مهول آخر مكتشفا نقوشا ومذابح جديدة لمولوك Molock مما يؤدى الى ارتباك العالم الاثرى المتحير الذى أصبح عمله اشق بفضل الحماس الذى كان هو نفسه قد شجعه .

وبعد تغليل العقبة الاساسية وهى التأكد من حصوله على الاعتمادات اللازمة فان الخطوة التالية امام المنقب هى أن يحصل على تصريح بالتنقيب . وقد كانت الفترة بين الحربين العالميتين هى الوقت الذهبى للعمل الاثرى فى الشرق الادنى . اذ تأسست فى معظم اقطار الشرق الادنى والشرق الاوسط مصالح اثار سنت لها قوانين ووضعت لوائح لتنظيمها طبقا لاشتراطات مندوبى عصبة الامم ، اما فى مصر فقد كان بها من قبل نظام حديث للعمل الاثرى منذ الوقت الذى قام فيه جاستون ماسبيرو Gaston Maspero باعادة تنظيم مصلحة الاثار بعد وفاة مارييت باشا .

ففى كل هذه البلاد اصبح من السهل على اى عالم اثار ذى سمعة طيبة تعضده هيئة مسئولة ، ان يحصل على تصريح بالتنقيب ، وان يضمن قسمة عادلة للقطع الاثرية عند انتهاء عمل البعثة . غير أنه منذ الحرب العالمية الثانية اصبح من الصعوبة بمكان الحصول على تصريح بالتنقيب من حكومات الدول التى نالت استقلالها ، وعلى احسن الفروض ، فانه لا بد ان نتوقع فى المستقبل ان الاثار يجب ان تبقى فى متاحف او مخازن آثار الدول أو الاقاليم التى أجريت فيها أعمال التنقيب ، كما هو متبع طبقا للقانون منذ عشرات السنين فى ايطاليا واليونان وتركيا . وعلى اسوأ الفروض فانه يجب ان نتوقع ان دولة أو أكثر من دول الشرق

ستحرم على الاجانب التنقيب تحريما تاما ، الا اذا كان ذلك على الارجح
بالاشتراك مع المعاهد الاهلية او مع علماء اثار هذه الدول . فاذا كان
علماء الاثار الوطنيون متقدمين ، كما هو الحال فى تركيا والعراق
ومصر ، فان هذا الرأى يجب الا يعتبر رايا خاطئا بالمرّة — بل على العكس
يجب اعتباره عين الصواب . ولو أن المستقبل السياسى فى
فلسطين غامض ، الا أنه ليس هناك من سبب يحول دون استمرار علماء
الآثار الوطنيين والاجانب فى اجراء اكتشافات هامة بها لمدة طويلة
فى المستقبل .

وبينما تكون المفاوضات جارية مع الممولين والحكومات ، فانه يجب
على المنقب أن يجمع مساعديه ، وليس من الضروري أن يكون لدى هؤلاء
المساعدين خبرة اثرية كبيرة فى بدء العمل ، اذ أن الخبرة الضرورية
الخاصة يمكن الى حد كبير اكتسابها اثناء اجراء التنقيب . وقد اعتاد
احد مديرى المتاحف ان يصر على ان يكون اعضاء بعثاته الاثرية من
الرجال المدربين تاركا لغيره مهمة تدريبهم ، ومثل هذه
الانانية ترتد عادة على راس فاعلها بعد وقت قصير . فمُنظم الحفائر
الحكيم يجب عليه أولا أن يبحث عن مدير كفء وقادر فى نفس الوقت
على التعامل مع الناس . والذي يقوم بالتنقيب فى تل عليه ان يحاول
ان يضم معاونوه كفاءات مختلفة ، وان امكن يكون من بينهم مهندس
معمارى أو مهندس مساحة قدير ، أو مهندسون محاريون ومهندسون
مساحيون حسبما تقتضى به طبيعة الموقع . كما يجب أن يكون من بينهم
مصور فوتوغرافى متفرغ ، ولا بأس أن يكون من الهواة ، اذ أن الهواة
الموهوبين كثيرا ما يحصلون على نتائج افضل بكثير من تلك التى
يحصل عليها المصورون المحترفون غير المعتادين على هذا الطراز الخاص
من العمل ، كما يجب أن يكون هناك رسام أو أكثر ، ومسجل أو أكثر .
واخصائى فى الفخار الفلسطينى الزم كثيرا للعمل من خبير فى
النقوش . ويمكن اسناد عدد من هذه الاعمال الى طلبة من الجامعات أو
من معاهد الاثار . ويمكن استخدام مساحين ورسامين وطنيين بنجاح ،
اذ انه يمكن فى الوقت الحاضر وجود متخصص فى مجال من الخبرة
التي قد تدعو الحاجة اليها فى فلسطين . وعلى سبيل المثال لم يعد هناك
ادنى عذر لاجراء اى تنقيب دون الاستعانة بخبير فى الفخار ضمن
اعضاء البعثة ، ففى اى اعمال تنقيب ثبت ان كل انواع المواهب

والتخصصات ، حتى البسيطة منها ، لها قيمتها ، فالمصارع مثلا قد يبهج « المختار » المحلى ويساعد ذلك على الاحتفاظ بصداقته ، وبعض المعرفة بوسائل الاسعاف والتمريض له نفع عظيم ، كما ان وجود طبيب مثمر فى معسكر البعثة قد يكون له قيمة لا تقدر فى المحافظة على صحة العاملين فيها ، وتوثيق اواصر الود مع المجتمع الوطنى * ومجموعة متواضعة جدا من الالحن الموسيقية والاعانى تساعد على بقاء الصغار والكبار من اعضاء البعثة مسرورين * وهلم جرا *

وكثيرا ما يمكن للمرأة ان تصل الى اكبر مستوى فى علم الاثار ، كما يشهد بذلك العدد المتزايد من علماء الاثار من النساء ، ومع ذلك فمن الحكمة غالبا فصل الجنسين فى بعثات التنقيب ، اذ ان وجود مجموعة مشتركة من الجنسين فى معسكر بعيد عن المدينة يتسبب فى زيادة كبيرة فى نفقات الاقامة * اما فى البعثات الصغيرة فمن المتعذر اختلاط الجنسين الا اذا كانت مدة عمل البعثة وجيزة جدا وكانت البعثة مزودة باعتمادات وافرة ، ولقد حدث ان كان كل اعضاء بعض من أنجح البعثات الاثرية فى الشرق الادنى والشرق الاوسط من النساء ، ومن الامثلة الممتازة على ذلك الاعمال الكبيرة التى قامت بها دوروثى جارود وجرترود كاتون تومسون Gertrude Caton Thompson وهيتى جولد مان

وعندما تكون البعثات مشتركة ، فانه من المستحسن جدا ان تكون زوجة مدير البعثة موجودة ، حتى يكون هناك ضابط اجتماعى نسائى ولتحول دون وقوع فضائح — اذ وقعت بالفعل فضائح تسببت فى كآبة وخيبة بعثات غير قليلة ، ولقد كانت ليدى بترى ومسر جارستانج عضوتين هامتين فى بعثات زوجيهما *

وفى اثناء تجميع افراد البعثة ، فانه يجب الا ينسى المنقب تدبير المعدات اللازمة لها ، وكثير من هذه المعدات يمكن استئجارها أو اقتراضها من بعثات اخرى ، خصوصا اذا كانت الحفائر المقترحة ذات علاقة متبادلة مع بعثات اخرى يمولها او يشرف عليها معهد كبير واحد او نفس المنظمة * ومن البديهي ان الاجهزة والعدد المساحية تقع فى المكان الاول من الاهمية ، ويجب أن تشمل تيودوليت من نوع جيد ، وميزان تقدير المناسيب ، وقصبة ، ولوحة رسم ، ومنظار فلكى ، علاوة على كمية من ادوات الرسم * ويجب ان تكون جميع الادوات المساحية وادوات

الرسم من النوع الممتاز ، اذ ان الادوات القليلة الجودة ستكون ابهظ ثمنا بما تسببه من مضايقة وتقليل فى دقة النتائج • ومن الضرورى ايضا وجود الات تصوير جيدة وكمية من مواد التصوير ، ومعظم معدات التصوير والرسم يمكن شراؤها الان فى فلسطين ولو انها تكون اعلى ثمنا ، ومن جهة اخرى فانه من المتعذر تحديد احتياجات بعثة من هذه المواد مقدما • وتحتاج البعثة الى عربة وربما تحتاج الى جرار خفيف ايضا ، وقد عرفتنا الخبرة بالحرب بالقيمة التى لا تقدر اعربة الجيب فى العمل الاثرى ، والخيام ومعدات المعسكرات ، مثل السراير • والكراسى النقالى ضرورية هى الاخرى ، الا اذا كانت البعثة تعتزم بناء مساكن دائمة • ونذكر فى هذا المقام ان المساكن النصف دائمة الخاصة ببعثات لخيش وغزة وايسبيتا قد دمرت أثناء الاضطرابات التى حدثت فيما بين سنة ١٩٣٦ الى ١٩٣٩ ، ويبدو ان بناء مساكن دائمة فى المستقبل اقل صوابا مما كان عليه الامر فيما مضى •

غير ان متاعب المنقب لا تنتهى ابدا ، اذ عليه ايضا ان يتفق مع مالكي الموقع الوطنيين على نوع من الايجار ، واذا كانت الارض ملكا مشتركا ، فقد يدخل فى مفاوضات ومشاكل لا نهاية لها ، ولا يمكن الا لبعثة رتبت نفسها لى تعمل لعدة سنوات وممولة تمويلا كبيرا ، ان تامل ان تتغلب على هذه المتاعب بقيام الحكومة بنزع ملكية هذه الاراضى على نفقة المنقب • وقد اجرى نزع الملكية هكذا فى حالة بعثة مجدو التى قامت بها بعثة جامعة شيكاغو ، غير ان هذه العملية قد استغرقت وقتا طويلا • واستغلال ما لى الارض للبعثات ، خصوصا اذا كان يؤيدهم الموظفون المحليون ، قد يكون مهلكا كما حدث مرة فى حالة حفائر الاكمة (اوفيل) التى قامت بها بعثة حفائر فلسطين وكما حدث أكثر من مرة للبعثة الالمانية فى شكيم • وقد جر بعض ملاك تل الفول المؤلف فى المحاكم ، ولسيت فى حاجة للقول اننى برئت ، ولكن هذه المشكلة تسببت فى ضياع بعض الوقت • أما المكائد المحيرة التى دبرها ملاك تل بيت ميرسيم لابتزاز مال أكثر من المنقبين فهى مضحكة علاوة على أنها بعيدة عن الروح الاشتراكية ، اذ ان كل شريك من الملاك اراد أن يحصل لنفسه على أكبر قدر ممكن من المال على حساب الآخرين •

واخيرا ياتى اليوم الذى يمكن فيه أن يبدأ العمل فى التل • ومن الوجهة النظرية كان يجب أن يكون التل قد مسح تماما ، وتم اعداد ميزانية شبكية له ، وعليها شبكة ابعاد احداثية موقعة على شبكة مثلثات مساحية ، فشبكة المثلثات الاولى لازمة لمراعاة الدقة ، والشبكة الاحداثية لازمة لتحديد مواقع الجدران و « الحجرات » التى تظهر اثناء التنقيب • غير أن الذى يحدث فعلا ، ان التنقيب يبدأ عادة بينما تجرى العمليات المساحية فى نفس الوقت • وفى المواقع الصغيرة أو فى العمليات المؤقتة يمكن الاكتفاء بمسح المكان باستخدام البلنشيطة بدقة ، دون حاجة الى عمل ميزانية شبكية أو شبكة مثلثات مساحية دقيقة •

والتل الفلسطينى — وكلمة تل التى يستخدمها العرب كلمة سامية بالغة القدم — يبدو عادة كمخروط ناقص قليل الارتفاع ، ذى قمة مسطحة وجوانب منحدره • وهذا الشكل الخاص ، الذى يتميز به التل أو الهويوك أو التيب فى الشرق الادنى والشرق الاوسط ، يتكون نتيجة لراحل العمران المتوالية به فى الازمان الغابرة • ففى احد الاوقات فى الماضى ، سكن بعض الناس فوق قمة تل بالقرب من نبع ماء أو أى مصدر آخر للمياه العذبة • وربما كان التل مهيا بطبيعته لسهولة الدفاع عنه ، كما يرجح انه كانت له قمة منبسطة السطح مما تجعله ملائما للسكنى • واقيم حوله نوع من الاسوار الدفاعية من الحجارة او اللبن • وبمرور الوقت ، بعد فترة ربما تتراوح بين سنوات قليلة وعدة قرون تتهدم المدينة أو الحصن ، ويظل التل غير مسكون لمدة لا يمكن التكهن بها • وفى المدة التى بقى خلالها مهجورا ، جرفت مياه الامطار — الحملة بها الرياح الغربية السائدة — انقاض جدران المنازل وسقوفها عن الموقع ، حتى حجزتها اساسات الاسوار الخارجية التى بقيت قائمة تحت انقاض اجزائها العلوية التى تهدمت • ثم حدث بعد ذلك ان جذبت المزايا الطبيعية للموقع سكانا جددًا بعد فترة طويلة من النسيان • وبينما انطوت القرون ، سكن التل مرات متعاقبة ، وتتميز كل مرة يسكن فيها التل بطبقة خاصة ، مثل طبقات الفطيرة

وفى كل مرة يسكن فيها التل من جديد ، كانت تنقص على الأرجح المساحة المتاحة للبناء (ولو ان العكس حدث احيانا) مما ادى الى ان يأخذ الموقع تدريجيا الشكل المميز للتل . وقد تصل أنقاض التل الى ارتفاع (أو عمق) كبير ، فقد بلغ ٢١٥ مترا فى بيسان^(١) وحوالى هذا القدر فى مجدو ، ويبدو ان عمق الانقاض فى اريحا كان حوالى عشرين مترا ، وفى تل الحسا ذكر أن عمق الانقاض بلغ ستين قدما (١٨٣ مترا) غير انه من المؤكد ان عمقه كان اقل من ذلك فى وسط الموقع . ومثل هذه الاعماق لا تقارن بأعماق بعض مواقع ما بين الرافدين ، مثل سوسة، اذ ان استمرار السكنى بهامددا اطول بكثير ، ودوام استخدام الطوب اللبن الجفف فى الشمس ، جعل سمك كل طبقة بها اكبر فى المتوسط . وقد يتراوح عدد الطبقات فى التل بين طبقة أو طبقتين وأثنى عشرة طبقة فى الحالات القصوى . وعلاوة على ذلك ، فان طبقات كثيرة قد تحتوى على عدة اطوار ظاهرة . وقد يحتوى كل طور منها على اعداد متفاوتة من مستويات لارضيات المباني المختلفة . ولعلنا نذكر القارىء بان التلال الفلسطينية تختلف فى بعض الوجوه عن تلال ما بين الرافدين بالرغم من ان اسمها نفسه مستمد من الكلمة البابلية « تيللو » ومعناها « كوم انقاض » ، فتلال بلاد ما بين الرافدين هى فى العادة تكومات غير طبيعية ، اذ اقيمت المساكن الاصلية بها على الارض السهلة، لا على تل كما هو الحال بالنسبة للتلال الفلسطينية .

ومعظم التلال صغيرة، وهى تشبه فى شكلها مواقع حصون أكثر مما تشبه مواقع مدن ، فمساحة « مدينة » تل الحسى (عجلون) ذات الاسوار كانت أقل من هكتار (٢٠ فدان) ، ومساحة تل بيت مرسيم — ولعله من فئة تلال المدن القديمة التى تزيد مساحتها عن المتوسط — كانت حوالى ثلاثة هكتارات (٧٠ فدان) داخل الاسوار .

ومجدو التى تؤخذ عادة كنموذج أساسى للمقارنة ، كانت مساحتها داخل الاسوار أكثر قليلا من خمسة هكتارات (حوالى ١٣ فدانا) ولو أنها كانت أكبر من ذلك فى العصر البرونزى . ومن جهة أخرى بلغت مساحة جازر حوالى تسعة هكتارات ، بينما بلغت مساحة المدينة العظيمة

(١) بيسان هى الاسم العربى لبيت شان ، وسيستعمل اللفظان للدلالة على هذا الموقع (المعريان) .

حاصور فى العصر البرونزى الاوسط حوالى أربعين هكتارا داخل أسوار من الارض المدكوكة • ومدينة تل العجول التى ترجع الى العصر البرونزى الاوسط ، بلغت مساحتها حوالى ١٢ هكتارا •

ويجب أن تحفر التلال بمعرفة العمال اليدويين ، اذ أن استخدام أى آلات ميكانيكية مثل البلدوزر أو الجاروف البخارى سيتلف الشواهد الاثرية • ويمكن التنقيب فى المواقع الصغيرة باقتصاد أكبر فى النفقات اذا لم تستخدم الوسائل الميكانيكية اطلاقا ، أما المواقع الكبيرة المساحة، فتحتاج الى قضبان سلك حديدية وطرق منحدره لنقل الاتربة • ويوجد عدد كاف من العمال الوطنيين فى فلسطين وأجورهم تكون عادة زهيدة بالنسبة لاجور العمال فى أوروبا وخاصة فى أمريكا ، فالفلاحون الوطنيون فقراء ويسرون جدا بأن تسنح لهم فرصة للحصول على أجور طيبة فى الفصول غير الزراعية • ومن الاهمية بمكان أن يكون رئيس العمال من الوطنيين الممتازين ، فلسطينى أو مصرى ، اذ أن رؤساء العمال المصريين من قفط الذين تدربوا مع الدكتور ريزنر Reisner عن طريق مباشر أو غير مباشر ، هم أحسن مجموعة من العمال • وليس هناك أهم من الامانة المطلقة والعدل (الذى يصحبه الكرم) فى معاملة العمال العرب ، الذين يستجيبون بسرعة للسياسة الحازمة المشفوعة بالعطف أكثر مما يستجيب لها عمال كثير من أجزاء العالم الاخرى • وقد وجد أنه من الحكمة مكافأة العمال بانتظام عند عثورهم على قطع أثرية ، أو لحافظتهم على الفخار ، ومعاقبتهم كلما كسروا القوانين أو أهملوا فى استخراج القنار أثناء التنقيب • وعندما يحاول العامل أن يبالغ فى طلب مكافأة نظير عثوره على شئ أثناء الحفر ، أو أن يحصل على بقشيش عن أشياء وجدت فى مكان آخر ، فإنه يبدو أن الفصل فورا من العمل هو أحسن طريقة بالنسبة الى البالغين ، بينما يكتفى بالنسبة للأطفال بالانذار أو بفرض غرامة صغيرة •

وعندما تتم ازالة الطبقة العلوية من التل ، تظهر بعض الجدران والحجرات ، ويجب أن ترفع هندسيا الجدران والمنشآت الدائمة وتصور بدقة وعناية • وترقم الحجرات بأرقام سلسلة بالاشارة الى شبكة الابعاد الاحداثية التى تتكون من مربعات أو مستطيلات مساحتها ١٠ أو

٢٠ أو ٢٥ مترا مربعا • وكل شيء يعثر عليه فى حجرة معينة يسجل بنفس الطريقة • ويحدث عادة أن ترد قطع الشقف يوميا فى مقاطف كاملة، قد يصل عددها أحيانا الى خمسين أو مائة مقطف فى يوم واحد، فيجب أن يبين على كل منها مكان العثور على محتوياته وكذلك منسوبها بالطبقة اذا أريد ذلك • ثم يفرز هذا الشقف ، وحيثما كان ممكنا ، ترمم بعض القطع الى أوانى كاملة أو غير كاملة • ولما كان الفخار هو الاساس الذى يبنى عليه التسلسل التاريخى للتل ، فانه من الاهمية بمكان تسجيله وتسجيله دقيقا وترميمه ، ووصفه مع الاستعانة برسومات وصور جانبية له • وعندما تظهر قطع صغيرة ذات قيمة ، يؤتى بالمناخل ، وتتخل بها كل الاتربة التى فى الحجرة • وفى بعض الاحيان تتطلب حالة قطع العاج المكسورة أو أشياء رقيقة أخرى ، استعمال شمع البارافين أو جبس باريسى لصيانتها • واذا كانت الحفائر فى فلسطين لا توجد بقطع متحفية كثيرة ، فانهما تمتاز بأنها ليست على نسق واحد ، اذ أنها بعيدة عن أن تكون لها صفة التماثل التى تتميز بها الحفائر العادية فى كل من مصر وبلاد بابل • وكان المرحوم كلارنس ستانلى فيشر ، الذى قام بالتنقيب فى الثلاثة أقطار ، يبدى دائما تقضيله للتنقيب فى فلسطين بعبارات لايشوبها الشك ، مثل قوله: قد يجد المنقب يوما أنواعا جديدة من الفخار الفلسطينى ذات قيمة خاصة فى التاريخ ، وفى يوم آخر قد يجد تماثم أو جعلان مصرية أو لوح منقوش بنقوش هيروغليفية ، وفى اليوم التالى قد يجد التل بختم اسطوانى أو لويحة بالخط المسمارى • وبدلا من أن يعثر المنقب على جدران من اللبن أو الحجر ، فانه من المحتمل جدا أن يعثر عليهما معا فى فلسطين ، وما أن يناله الملل من ترسم الاساسات الحجرية ، وهى عملية بسيطة نسبيا ، حتى يجد نفسه قد وصل الى طبقة من اللبن ، حيث يكاد لا يفى كل صبره ومهارته فى تخليص البنات الثمينة المجففة فى الشمس من أن تطرح خارجا مع الانقاض التى كانت مطمورة بها • ويوجد أكثر من مثال لقيام المنقب بازالة ماظن أنه غرفة صغيرة ، ثم تبين له أنه انما قد أزال الجدار ، تاركا كتلا مستطيلة من قوالب اللبن التى سقطت فى الفراغ الذى كانت تشغله الغرف من قبل ، بل هناك أيضا مثال آخر حيث قام عالم آثار مرموق من المدرسة القديمة ، بأجراء حفائر وجد فيها ألواحا منقوشة

وقطعا متحفية ، ومع ذلك فقد كان فى احدى المناسبات يزور ساحة عمل منقب آخر من المدرسة الحديثة، كان قد أزال ما حول الجدران اللبن وتركها قائمة ، وما أن تفرس فيها هذا العالم الاثرى المرموق حتى هتف باند هاشن « يا الهى ! عندك جدران ! » •

وأخيرا ينتهى الاثرى من عملية ازالة كل طبقة معينة ، أو جزء منها ، ثم يصدر وهو آسف ، أمرا بازالة الجدران • وأثناء ازالة الجدران ، تظهر عادة بعض ترميمات ، ويعثر على أشياء داخل الجدران وتحت الارضيات • ولذلك فان أهمية عملية الهدم هذه فى معرفة التسلسل التاريخى للتل ، ليست بأقل من المرحلة السابقة التى أزيلت فيها الاتربة من بين الجدران • وعندما تتم هذه العملية ، توقع على المنسوب الجديد شبكة أبعاد احداثية مع الاستعانة بالنقط والخطوط الثابتة التى سبق تعيينها ، وتتكرر عملية ازالة طبقة أخرى • وقد تتكرر دورة حفر الطبقات وتسجيلها كثيرا حتى أن الحفار نفسه ليتساءل متعجبا أين سيتوقف ومتى • وفى بعض الاحيان يستمر التنقيب الى أسفل حتى يصل الى رواسب أقدم من أى بقايا استراتيغرافية سبق تسجيلها ، وهذا ما حدث بالفعل للمؤلف أثناء الموسم الثالث للحفائر فى تل بيت مرسيم عام ١٩٣٠ ، وحدث نفس الشئ فيما بعد لفيتز جرالد Fitz Gerakl فى بيسان سنة ١٩٣٣ ، ولجارستانج فى أريحا سنة ١٩٣٥ • ومثل هذا الحدث لا يقدره ولا تهتر مشاعره له الا من كانت له خبرة به •

وفى السنوات ١٩٥٢ - ١٩٥٨ طبقت مس كاثلين كينيون Miss Kathleen Kenyon طريقة الحفر بعمل أخاديد (وهى الطريقة التى ابتكرها السير مورتيمر هويلر Sir Mortimer Wheeler) وذلك فى حفائرها بأريحا ، وحصلت على نتائج باهرة جدا ، حتى أن هذه الطريقة أخذت تحل بسرعة محل طريقة ريزنر - فيشر Reisner-Fisher التى وصفناها فى هذا الباب • وفى الواقع ، أضيفت بعض التحسينات على طريقة ريزنر - فيشر ، ولم تستبدل بغيرها ، غير أن تحسينات هويلر - كينيون سيستمر اتباعها وهى تتضمن فى جوهرها استخدام أخاديد الجس لتعيين ترتيب الطبقات بدقة قبل حفر أى منطقة ، ثم

يعقب ذلك حفر أخاديد جس اضافة متعامدة مع الجدران عند ظهورها وتنسوى جوانب هذه الاخاديد (التى يبلغ عمقها أقل من متر عادة) • بمسطرين ، وتسجل كل علامات الارضيات ، ومناسيب الرمد ، والرواسب الترابية ، والحشرات ، الخ • وقد أصبح من الضرورى استخدام هذه الطريقة فى المواقع الاثرية التى تتكون من مباني اللبن •

وبعد ما تنتهى الحفائر وتتم القسمة ، تبدأ عملية شاقة أخرى هى اعداد المادة العلمية للنشر ، ويجب أن يهتم المنقب بأن تكون كل الاشياء قد رسمت أو صورت تصويرا جيدا ، وأن تكون هذه الاشياء قد درست دراسة دقيقة لاستنباط أكبر قدر ممكن من المعلومات منها ، بالاستعانة ، اذا لزم الامر ، بالكيميائيين والجيولوجيين والخبراء فى الاخشاب الخ ••

ويجب أن تنسخ رسومات المساقط ، وأن تجمع الصور والرسومات ويختار أصلحها ، كما يجب أن تعد النصوص النهائية للنشر • ومن المؤسف حقا أن كثيرا من علماء الآثار ومنهم المؤلف قد أذنبوا بتسويقهم الخطير للنشر • والواقع أنه تحت ضغط المشغوليات اليومية ، والواجبات الوظيفية ، يصعب على المنقب غالبا ، أن يجد متسعا من الوقت لعمل الجداول المفصلة والفهارس ، التى تكون جزءا كبيرا من أى تقرير لبعثات الحفر • ومع ذلك ، فان هذا الامر فى غاية الاهمية ، اذ بدونه تكون نتائج التنقيب عديمة الفائدة للباحثين ، وتقل كثيرا مساهمة المنقب فى تقدم علم الآثار • وبالرغم من العجلة التى نشر بها السير فليندرز بترى نتائجه ، واقتار تقاريره مرارا الى الدقة ، فان نشاطه فى النشر كان دائما ذا نفع عظيم ، وكما يقول المثل اللاتينى *Bis dat qui cito dat* أى « من يعطى سريعا فقد ضاعف العطاء » •

تذييل

نشر أول تقرير عن نجاح استخدام طريقة التأريخ بالكربون المشع فى الأغراض الأثرية ، بعد المراجعة النهائية لبروفات الطبعة الأولى لهذا الكتاب بالانجليزية سنة ١٩٤٩ • وقد أضاف المؤلف تذييلا عنها عند إعادة طبعه سنة ١٩٥١ ثم نقحه فيما بعد وهو كالآتى :

اعتمدت الطريقة الأصلية التى ابتكرها الاستاذ لىبي W.F. Libby على تقدير القوة الإشعاعية للكربون الصلب المستخلص من العينات غير أن هذه الطريقة قد استبدلت الى حد كبير بتقدير القوة الإشعاعية للعينات بعد تحويلها الى غازات وخصوصا غاز لاسنتين التى أبتكرها سوس • ومنذ سنة ١٩٥٨ استخدمت طريقة « تركيز » العينات التى ابتكرها دى فريز H. de Vries وزملاؤه • وفترة نصف عمر الكربون المشع (وهو نظير الكربون ذو الوزن الذرى ١٤) قدرت بحوالى ٥٦٠٠ سنة * ، ويبدو أن سرعة انحلاله ثابتة الى حد كبير جدا • ولو أنه توجد بلا شك عوامل لعدم التأكد من النتائج — وترجع معظم هذه العوامل الى الأخطاء العملية ، كما قد ترجع أيضا الى أسباب كيميائية — فانه من جهة أخرى يمكن تقليل التشكك فى النتائج الى حد كبير باطالة مدة عد الأشعاعات الصادرة من العينة • وقد أمكن تدريجيا اطالة مدة صلاحية تطبيق هذه الطريقة من ١٥٠٠٠ — ٢٠٠٠٠ سنة الى ما يزيد عن ٧٠٠٠٠ سنة • وقد ابتكرت طرق جديدة أخرى لتقدير العمر ، مثل طريقة تحول البوتاسيوم الى أرجون ، والعلاقة بين نسب نظائر الأكسجين لتأريخ عينات النويات من قيعان البحار القديمة ، وهذه الطرق توسع بانتظام معلومتنا عن صورة التسلسل التاريخي وتوضحها .

* دلت البحوث الأخيرة على أن فترة نصف العمر لنظير الكربون ١٤ هو ٥٧٣٠ سنة (العربان) .

الفصل الثاني

تاريخ الكشف عن فلسطين القديمة

لفلسطين مركز فريد بين الاراضى ذات القيمة الاثرية ، فهي بلد الديانة (١) اليهودية والارض المقدسة المسيحية وثانى الاقطار المقدسة عند المسلمين .

ولم تكن فلسطين مهد الديانتين اليهودية والمسيحية فحسب ، بل أصبحت أيضا ، بتأثير ما ورد عنها فى الكتب السماوية المركز الجغرافى الاساسى للاسلام

فالمتدينون من المسيحيين واليهود ، يسرهم القاء ضوء على شخصيات الكتاب المقدس والاماكن التى ذكرت به ، والمؤرخون يرحبون بمعلومات جديدة عن الاصل الذى بزغ منه الكتاب المقدس .

ويلجأ مؤرخو الحضارة الغربية الى فلسطين لاحتراز معلومات عن جذورها الاصلية ، وعلماء الاجناس البشرية (الانثروبولوجيا) وعلماء الآثار يتجهون اليها لاهميتها كمركز اتصال جغرافى بين القارات والمناطق الحضارية .

والحديث الدينى والسياسى ، والثقافى ، الذى نسميه « بالحروب الصليبية » ترك فى أوربا اهتماما متزايدا بالارض المقدسة . وما أن انتهت هذه الحروب حتى بدأ سيل الحجاج اليها من جديد ، اذ أن الحج كان مصدرا طيبا جدا للدخل الإسلامى يجب الابقاء عليه ، وزاد الاقبال عليه حتى عصرنا الحالى . ومعظم روايات الحجاج عنها فى تلك العصور ظلت تحمل طابع العصور الوسطى ، غير أن روح البحث والاستقصاء

(١) انظر هامش ص ٢١٩ تعليق العربيين .

ظهرت في وصف الراهب السويسري فيليكس شميد (فابري)
لرحلته الى فلسطين في عام ١٤٨٠ و عام ١٤٨٣ ، ولو أن هذا الوصف
لم ينشر الا بعد ذلك بحوالى ٧٥ سنة •

ثم بدت نسمات جو جديد على صفحات ما كتبه الطبيب الالماني
ليونارد راخولف (راولف) الذى زودتنا بزيارته لفلسطين
سنة ١٥٧٥ بأول استقصاء منسق فى التاريخ الطبيعى ، وخصوصا
النبات •

وبدأ بالفعل ظهور الاهتمام بعلوم العمارة والاثار فى رسومات العالم
البلاجيكي جوهان زواللارت عام ١٥٨٦ ، وفى الوصف الدقيق الذى كتبه
العالم الالماني جوهان فان كوتفيك (كوتوفيكوس) فى السنوات الاخيرة
من القرن السادس عشر •

وفى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، نما بافتظام الاهتمام
بدراسة فلسطين ، تغذيه بين آونة وأخرى مؤلفات هامة • فظهر فى
سنة ١٦٣٩ الوصف المدروس للخوارزمى للاماكن المقدسة • وهو يعتمد
على دراسة مستفيضة دقيقة ، ولو أنها غير تحليلية ، لهذه الاماكن •
وفى سنة ١٦٥٠ ظهر الوصف الطيب لاسفار الرحالة الايطالى بيترو
ديلا فال الذى حوى بيانات أثرية روائية أكثر من أى بحث
سابق • وفى سنة ١٦٧٩ نشر الاب اليسوعى الفرنسى ، ميشيل نو
تقريراً قيماً ، ولو أنه لا يعتمد على دراسة تحليلية ، عن اختبارات فى
فلسطين • وفى سنة ١٧٠٣ كتب القس البروتستانتى الانجليزى
هنرى موندل تقريراً بديعاً عن أسفاره يحتوى على معلومات
أثرية جديدة • أما وصف المطران بوكوك فى سنة ١٧٣٨ عن
رحلته ، فقد كان بدوره أكثر أهمية مما سبق نشره ، إذ أنه فى معظم
أجزائه، قد ترك الاسلوب الدارج فى الكتابة وقتئذ، وزود وصفه بمساقط
أفقية ورأسية ، ورسومات ونسخ من النقوش • وليس ثمة شك أن
كتاب ادريان ريلاند Adrian Reland الهولندى وعنوانه
« فلسطين موضحة بآثارها القديمة » قد أحدث ثورة فى
دراسة فلسطين القديمة ، إذ أن ريلاند كان أول من جمع كل المعلومات
الصحيحة من المصادر القديمة التى كانت لم تزل باقية ، وكذلك من

المصادر الحديثة بعد تفهمها ودراستها دراسة تحليلية ، غير أن عمله هذا لم ينل التقدير الكامل الذى كان يستحقه — ولم يلتفت اليه كثيرا — الا فى القرن التاسع عشر .

ولما كثر توافد السياح وكثرت التقارير عن رحلاتهم • فانه كان من الطبيعى أن تقل نسبة المعلومات الجديدة ذات الاهمية بالقياس الى التقارير السابقة ، لكن ما أن حل الربع الاول من القرن التاسع عشر حتى رحل الى فلسطين عدد من المستكشفين نذكر منهم على الاخص المستكشف الألماني أولريتش جاسبر سينترن (١٨٠٥-١٨٠٧) والمستكشف السويسرى جوان لودفيج بوركهاردت Burkhardt (١٨٠١-١٨١٢) والمستكشفين الانجليزين ايربى C.L. Irby ومانجلس J. Mangles (١٨١٧-١٨١٨) • وكان سينترن أول من جاب منطقة شرق الاردن بطريقة علمية وكشف فيها عن قيصريّة فيليب وخصوصا عمان وجرش • وكشف بوركهاردت عن بترا ، وكان أول من دون الاسماء العربية للاماكن تدويثا صحيحا فى كل فلسطين، وقد بلغ حماسه للكشف عن العربية مبلغا عظيما ، حتى أنه صار مسلما ، وتسمى فى أسفاره بالشيخ ابراهيم ، وبذلك أمكنه أن يزور بعض مواقع مثل مقبرة هارون ، وأن ينقل نصوصا ويرسم مقاطع هندسية فى أمان نسبي ، ودفن هذا العالم الكبير فى جبانة المسلمين بالقاهرة • أما ايربى ومانجلس فقد اكتشفا عرق الامير ، وقدما معلومات أثرية قيمة • وكثير مما كشف عنه علماء آخرون نشره عام ١٨٢١ رحالة محب الى حد كبير للمشهر، هو جون سيلك بكنينجهام John Sillk Buckingham لكنه يستحق التقدير لنشره أول مساقط هندسية للخرائب الهامة فى جرش وفى أماكن أخرى •

وشاهد عام ١٨٣٨ تغييرا ثوريا كاملا فى ارتياد سطح فلسطين ، ففى ذلك العام ، قضى العالم اللاهوتى الأمريكى ، ادورد روبنسون Robinson حوالى ثلاثة شهور فى الارض المقدسة ، قاطعا اياها عدة مرات فى اتجاهات مختلفة مع تلميذه وصديقه سميث Smith • وكان روبنسون قد درس اللغات السامية فى ألمانيا على يد جسينيوس Gesinius وروديگر Rödigier ، ودرس الجغرافيا على يد العالم الألماني ريتير Ritter ، كما كان سميث يتقن العربية كأهلها، اذ

قضى سنوات بين العرب كأرسالي في بيروت • وقد ترك الرفيقان طرق العمل الاثرى المدارجة وقاما بتسجيل الاسماء ، والتواريخ ، ومواقعها الجغرافية كما تحدها البوصلة ، وغير ذلك ، فتعرفا أثناء جوبهما للبلاد على عشرات من الاماكن المذكورة في الكتاب المقدس لأول مرة • ففي ٤ مايو مثلا ، اكتشف روبنصون عدة مدن قديمة لها تقريبا نفس الاسم العربى على مسيرة ساعات قليلة ركوبا شمال شرق وشمال مدينة القدس نفسها • وفى ١٠ مايو تعرف تعرفا صحيحا على ثمان مدن على الاقل في جنوب اليهودية ، واستمر الحال على هذا المنوال في كل فلسطين • والمنافس الرئيسى لـ روبنصون تيطس روبر Titus Toblet السويسرى، الذى بدأ أبحاثه الطبوغرافية النقية في فلسطين قبل روبنصون وسميث بثلاث سنوات ، كتب عنها فى ١٨٦٧ فيقول « لقد بذت بيانات روبنصون وسميث بمفردها ، مجموع كل البيانات التى سبقتها عن جغرافية فلسطين ، ابتداء من يوسيبوس Eusebius وجيومحتى أوائل القرن التاسع عشر » • وبعد قرن ، فى الاحتفال بالذكرى المئوية لرحلة روبنصون الاولى ، صرح العالمان الكبيران الاب آبل Abel وألبرخت آلت Albrecht Alt بنفس الرأى • ولما لم يكن روبنصون مهندسا أثريا أو مختصا فى النقوش القديمة ، فان اضافاته لعلم الاثار ، بمفهومه الضيق ، كانت أقل أهمية بكثير من اضافاته لعلم الجغرافية ، ومع ذلك فانه فى هذا الحقل أيضا ، قام باكتشافات هامة ، مثل تحديد موقع السور الثالث لاورشليم أو سور أغريباس ، وقد أيدت الحفائر الحديثة هذا التحديد •

وبالرغم من ازدياد الاهتمام بالاستكشاف والنشر فى الجيل الذى أعقب رحلة روبنصون الاولى لفلسطين ، فانه لم يكن من بين ما تم كشفه ما له قيمة حقيقية الا القليل ، حتى تلك الكشوف التى قام بها بعض الرواد الذين لم يعرفوا الكل مثل فيكتور جييرين Victor Guérin • ويظهر أن العمل الذى قام به الرائد الاول العظيم قد بلغ درجة كبيرة من الكمال حتى أنه لم يترك شيئا لخلفائه لى يؤدوه الا ما ندر •

وفى ١٨٥٠-١٨٥١ و ١٨٦٣ جاب دى سولسى F. de Saulcy أماكن متعددة وقام بالتنقيب فيها ، ولكن حيث أن المشروع كان أكبر من معرفته ، وغروره كان أكبر من كليهما ، فان عمله لم يتمخض إلا عن

المعثور على قليل من القطع الاثرية الهامة (التي توجد حاليا فى متحف اللوفر) وتنظيف المقابر المعروفة بمقابر الملوك بالقرب من القدس • وفى ذلك الوقت ، لم يكن يعرف عن تاريخ الزخارف والنقوش المنحوتة فى العمارة الا القليل حتى أنه أرخ الضريح ومحتوياته بنهاية عهد مملكة يهوذا ، فى حين أنه يرجع الى العشرين سنة الاخيرة السابقة لانتهاى بناء المعبد الثانى — أى قبل تاريخه الصحيح بحوالى ٦٥٠ سنة • ومع ذلك فان دى سولسى سيظل دائما معتبرا أول من قام بالحفر فى العصر الحديث فى موقع فلسطينى •

وفى ١٨٦٥ تأسست هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين The Palestine Exploration Fund • وبعد ذلك بسنتين بعثت الهيئة شارلز وارن Charles Warren ، وهو ضابط مدفعية بريطانى صغير ، مزودا باعتمادات واسعة للحفر فى القدس ، وقد ثبت أن العمل كان أكبر بكثير مما تصوره أى شخص ، كما أن عدم وجود معايير يوثق بها لتأريخ المباني والفخار جعل النتائج غير مرضية • من وجهة النظر التاريخية • فقد أرخ وارن المباني الهيرودية للجدار الساند لسور المعبد خطأ بعصر سليمان بدلا من عصر هيرودس الأكبر • ومن جهة أخرى اعتبر حصن المكابيين فى تل الفول (جبعة) من عمل الصليبيين • وكان وارن — مثل روبينسون وجيرين — ميالا لاعتبار التلال الاثرية الحقيقية ، تكوينات طبيعية بحتة • ومع ذلك فقد أجرى وارن كمية كبيرة من التنقيبات القيمة ، كما أنه وضع أسس كل الاعمال اللاحقة عن طوبوغرافية اورشليم وتاريخها بمعاونة ادارة المساحة التفصيلية التى أتم تنظيمها بعده بوقت قصير الكابتن شارلز ويلسون •

وبينما كانت هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين تقوم بتنظيم هذه العمليات الدقيقة ، قام رجل فرنسى فى مقتبل العمر ، هو شارل كلير مونت — جانو Charles Clermont - Ganneau باستكشافات عديدة لامية ، بالاضافة الى عدد كبير جدا من الكشوفات الصغيرة ، على حسابه الخاص • ويدل عمله العظيم هذا ، مثله فى ذلك مثل روبينسون ، على أنه قد يقدم شخص نابه واحد قدرا كبيرا من العلم والمعرفة فى حقل معين يفوق جيلا كاملا من الباحثين القليلي الشأن ، أو أكثر من خزانة مملوءة بالمال للصرف منها على عدة مشروعات باهظة التكاليف • فقد جاء كلير مونت — جانو الى القنصلية الفرنسية

فى فلسطين وهو فى الحادية والعشرين من عمره ، ولم تكد تضى ثلاث سنوات حتى اكتشف حجر ميشع المشهور ، وأرسله الى متحف اللوفر سنة ١٨٧٠ . وفى السنة التالية ، اكتشف النقش المشهور الذى يمنح الامميين من الدخول الى فناء المعبد . ويطول بنا المقام جدا اذا ما أردنا هنا بيانا كاملا بمكتشفاته ومشاهداته . وليس لدينا فى هذا الكتاب متسع لوصف عرضه البديع ، عن الآثار المؤابية المزيفة بدرجة بالغة الاتقان حتى أنها خدعت بعضا من كبار الاخصائيين من العلماء الأوربيين .

وفى تلك الاثناء لم تكن هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين دون عمل ، اذ عينت بعثة انجليزية من ١٨٧٢ الى ١٨٧٨ للعمل فى الحقل الاثرى ، لعمل خرائط مساحية دقيقة لغرب فلسطين ، تحت القيادة البارعة لكوندر C.R. Conder وكيثشـنر H. H. Kitchener (لورد كيثشـنر فيما بعد) . وبالرغم من أن الخرائط التى أعدتها الحكومة الفلسطينية قد حلت محل الخرائط التى أعدتها هذه البعثة ، الا أنها لا تزال ضرورية بالنسبة للآثرى والطوبوغرافى . ومن الغريب أن مهندسى البعثة المساحيين لم يتنبهوا الى بعض الخرائب القليلة الالهية . وبدون شك فإنه ثبت خطأ كثير من التعريفات التى ظن كوندر على الاخص ، أنه بها قد حسم نهائيا طوبوغرافية فلسطين الكتابية (كما جاءت فى التوراة) ، غير أن الاخطاء والحذوفات قليلة جدا ، اذا ما قيسـت بسعة دائرة العمل وسرعته .

وفى سنة ١٨٧٠ تأسست الجمعية الامريكية للتنقيب بفلسطين ، على نمط المنظمة البريطانية . وبعد بعض المفاوضات ، تقرر أن تتولى الجمعية الامريكية مسح منطقة شرق الاردن ، حتى تستكمل التخطيط المساحى الذى أجرته البعثة البريطانية . وفعلا أرسلت بعثتان لمسح الاراضى الفلسطينية ، غير أنهما قابلتا مصاعب كثيرة جدا وكابدتا تلك المشكلة الزمنة ، مشكلة قلة الاعتمادات ، حتى أنه عدل نهائيا عن الاستمرار فى المشروع ، ولم يترك وراءه الا القليل جدا ليبدل عليه . وقام سلاه ميريل Selah Merrill بالاضطلاع بعدة بعثات تحت نفس الرعاية ، لدراسة آثار شرق الاردن ، لكنه لم يكن روبينسون ، ولا

كليرمونت — جانو ، كما أن نتائج عمله كانت قليلة الأهمية • وفي سنة ١٨٨٤ بدأ شوماخر G. Schumacher مسح حوران وشمال شرق الاردن جغرافيا وأثريا، وقد استمر عمله هذا سنوات عديدة وحصل على نتائج عظيمة • وكان شوماخر عضوا في جمعية المعبود Tempelgesellschaft وكان يعرف البلاد منذ طفولته • وعرف كيف يتعامل مع مواطني فلسطين العرب والموظفين الاتراك ، ولذلك كان أسهل عليه كثيرا أن يحصل على نتائج تستحق التقدير ، عن أى فريق من الخارج •

وكل هذه البعثات ، بما فيها حفائر جوثي Guthe (سنة ١٨٨١) ومودسلي Maudsley (١٨٨٤) في القدس ، كانت تفتقر الى شواهد لتأريخ كشوفاتها ، فيما عدا بعض الكتابات القليلة جدا ، فلم يكن هناك معيار حقيقي لتأريخ المباني ، كما كانت الكتابات عرضة لاختلافات في الرأي ، حتى أنه ل يبدو أنه لا يمكن تصديق أى تأريخ تم تحديده في ذلك الحين • والى أن وجد علم الاستراتيجرافية — أى حفر الارض طبقة طبقة — لم يكن هناك أمل في علم آثار ذي أسس علمية • بل أن كشوفات شليمان Schliemann نفسها في طروادة ابتداء من سنة ١٨٧٠ فشلت في أن تنبه علماء الآثار الفلسطينية لفحص تلالهم ، ولم تتجح حفائر طروادة الا في شيء واحد هو أن شليمان ودورفلد Dörpfeld قد أدركا فعلا أن التل يمثل تراكم طبقات متتابعة من العمران ، غير أنهما لم يفتننا الى امكان استخدام الفخار كوسيلة للتأريخ • بل وثمة شك في أن أى رجل كان يعمل في فلسطين في ذلك الوقت قد علم عن الاكتشافات التي تمت في طروادة في ذلك الوقت أكثر من بعض ما كانت تتناقله الالسن من الاقوال الغير واضحة • ولذلك كان على فلسطين أن تنتظر رجلا عبقريا ثالثا من نفس مستوى روبينسون وكليرمونت — جانو •

وفي سنة ١٨٩٠ ظهر العبقرى الذى كان العمل الاثرى يفتقر اليه ، على مسرح فلسطين في شخص فليندوز بترى Flinders Petrie وهو رجل انجليزى لامع ، كان يبلغ من العمر حينئذ ٣٧ عاما • وبالرغم من صغر سنه نسبيا، فقد كان قد أمضى عشر سنوات في العمل الاثرى في مصر، حيث بدأ في استحداث نظام منسق في تسجيل كل مكتشفاته مهما كانت صغيرة، كما استحدث أيضا استخدام الفخار في أغراض التاريخ •

وبعد ذلك بعشر سنوات ، اكتشف بترى المبادئ الأساسية لنظام التأريخ التتابعى Sequence Dating الذى بفضلها يمكن مد التسلسل التاريخى النسبى الى عصور لا توجد منها بقايا فى صورة طبقات تسمح بتأريخها مباشرة عن طريق المقارنة . وقد عمل بترى لمدة ستة أسابيع فى تل الحسا فى جنوب غرب فلسطين فحفر مقاطع رأسية ، وسجل المنسوب الصحيح الذى وجدت به كل شقفة ذات خصائص معينة . وبناء على ذلك تمكن من أن يقرر بصفة ايجابية ، أن كل عصر كان يتميز بنوع خاص من الفخار يمكن للعين المتدربة أن تفرق بينه وبين فخار مقابل له فى عصر متقدم أو عصر متأخر عنه . وقد نجح بترى على الاخص فى اعطاء تواريخ مطلقة تقريبية لعدة عصور من عصوره الفخارية ، بالتعرف على أنواع معينة من الاوانى الفخارية تماثل ما وجد فعلا فى دفنات مصرية تاريخها معروف . ومع أن كوندر Conder وآخرين هزأوا بهذا المقياس الجديد للتأريخ بالفخار الا أن بليس F. J. Bliss ، الباحث الأمريكى الذى عمل مع بترى لمدة ثلاث سنوات فى تل الحسا ، أثبت أن بترى كان على حق تماما . وقد تمكن بترى بواسطة الجعلان والنقوش ، من تأريخ الطبقات تأريخا قريبا جدا من الصحة . وفى الواقع فإن التتابع التاريخى الذى أصدره بترى وبليس Petrie - Bliss فى سنة ١٨٨٩٤ يتفق مع التواريخ الصحيحة — فى حدود القرن — الى ١٥٠٠ ق . م . ، أما التواريخ التى أعطاها لما قبل ذلك فكانت أقل من التواريخ الصحيحة بكثير . ولو أن بليس كان قد تنبه الى أهمية أخذ أشكال أكثر أنواع الفخار تمثيلا للطبقة ، فى الاعتبار ، لكان قد وصل الى التتابع التاريخى الصحيح للفخار الفلسطينى بصفة نهائية . غير أن الذى حدث هو أنه لم ينجح فى ايجاد علاقة تربط دراسة بترى التفصيلية للفخار ، بنتائج دراسته الاستراتيجية ، وكان البحث الذى نشره مقتضبا جدا ، حتى أن الموضوع لم يتقدم تقدما محسوسا . وقد حملت السنوات العشرون التالية معها بعثات كثيرة وكشوفات هامة عديدة ، غير أن صافى الكسب منها فى تجويد الكشف كان أكبر من الكسب فى التأريخ التتابعى والايضاح التاريخى . وفى الواقع كان التأريخ التتابعى الاثرى لفلسطين أقل وضوحا فى سنة ١٩١٤ مما كان عليه قبل ذلك بعشرين سنة .

وفى تلك السنوات العشرين ، استمرت هيئة صندوق تمويل التنقيب فمن ١٨٩٤ الى ١٨٩٧ عمل بليس ومهندسه المعماري ديكى A.C. Dickie فى القدس ، وكانا يشتغلان كمساحين ، وعالجا فى عملهما هذين الجانبين الاثرى والمعماري بكل عناية . وتلا ذلك بعثتان استمرتتا فى العمل وقتا طويلا فيما لا يقل عن أربعة تلال فى السهل الفلسطينى (شفا الله) أى فى التلال المنخفضة بأرض يهوذا . وقد ساعد بليس فى هاتين البعثتين شاب أيرلندى ، هو الاثرى اللامع ماكاليستر R.A.S. Macalister ويمثل الكتاب الذى نشره عن نتائج حفائرهما عام ١٩٠٢ ، أعلى مستوى فى الدقة والكفاية وصلت اليه البحوث الاثرية قبل الكتاب الذى نشر عن حفائر أريحا عام ١٩١٣ ، وحفائر السامرة عام ١٩٢٤ . ومع أن هذه الحفائر لم تبج الا بالقليل من المعلومات التاريخية المثيرة الا أنها بينت بوجه التقريب ، استراتيجرافية التلال الاربعة ، وأعطت التواريخ الصحيحة لعدد كبير من قطع الفخار . وقد قسم كل الفخار القديم الذى فُتج من هذه الحفائر ، الى أربعة أقسام تغطى الفترة الزمنية التى تؤرخ حاليا بما بين ٣٠٠٠ ق . م . الى القرن الاول قبل الميلاد على وجه التقريب . ولايضاح مدى صحة التأريخ المتتابعى فى بحث عام ١٩٠٢ ، نورد الجدول الاتى :

العصر	تاريخ بليس — ماكاليستر	التاريخ الحالى
العصر المبكر السامى	؟ — ١٥٠٠ ق.م.	٣٠٠٠ — ١٨٠٠ ق.م.
العصر الوسيط السامى	١٥٠٠ — ٨٠٠ ق.م.	١٨٠٠ — ١٠٠٠ ق.م.
العصر اليهودى	٨٠٠ — ٣٠٠ ق.م.	١٠٠٠ — ٥٨٧ ق.م.
العصر السلوقى	٣٠٠ — ؟	القرن الرابع — القرن الاول ق.م.

ومعظم الفخار الذى يرجع الى العصور الثلاثة الاخيرة فى بحث ١٩٠٢ مؤرخ تأريخا صحيحا ، والاطء الرئيسية فى هذا التأريخ ترجع الى أن الفخار من القرن الثامن عشر الى القرن الخامس عشر ومن القرن السادس الى القرن الرابع يكاد يكون غير ممثل اطلاقا ضمن الانواع الموضحة فى اللوحات التى نشرها .

ومن جراء الاحتكاك المتزايد بين رئيسي البعثة ولقطة دخل هيئة صندوق تمويل التنقيب في فلسطين ، أجريت حفائر جازر (١٩٠٢ - ١٩٠٩) تحت قيادة ماكليستر بمفرده . وقد عمل وحده دون معاونة أحد فيما عدا رئيس عماله الكفو يوسف كنعان . وكانت حفائر جازر نموذجا للاقتصاد ، غير أنها أثبتت أنه من غير الممكن أن يقوم شخص واحد — حتى ولو كان ماكليستر المجد — بكل شيء .

فقد أهملت الاستراتيجرافية وكذلك أهمل التصوير الشمسي ، وكان التخطيط المساحي وإيجاد المناسب غاية في عدم الدقة ، ولم توضح المعالم المعمارية الا برسومات كروكية . وبعد عدة مواسم للحفر ، شعر ماكليستر بنفسه مضطرا لان يغير التاريخ التتابعى بليس — ماكليستر تغييرا شديدا، بارجاعنهاية (العصرالوسييط). (الذى يعادل العصرين الثالث والرابع الساميين في تقسيمه) الى ٥٠٠ ق.م ، أى أنه يصبح متأخرا بأكثر من أربعة قرون عن تاريخه الصحيح . وتبعاً لذلك أرخ الفخار وبقايا أخرى من عصر ملوك يهوذا المتأخر بما يقابل العصر الفارسي اليوناني ، وكان الداعي لهذا التغيير المنكود بسيطا ، فقد حدث أن مرت فترة في تاريخ جازر دون عمران، وتقع هذه الفترة بين القرن العاشر والقرن الخامس ق.م.، ولكن ماكليستر لم يفترض الا عمرانا مستمرا، فأراد أن يملأ هذه الفجوة الزمنية بفخار من الطور السابق لها مباشرة . وعندما ظهرت نتائج أبحاثه سنة ١٩١٢ فى ثلاثة مجلدات ضخمة هال الجميع لها بحق على أنها عمل أثري عظيم . فكتب المنقب الالماني فى أريحا أنها « بناء أثري متكامل كعش النمل » . غير أنه كان لابد من تصحيح تاريخ كل شيء فيها تقريبا ، وإعادة شرح مفهومها التاريخي . فعلى سبيل المثال أرخت قطعة من لوح عليه كتابات بالخط المسماري بحوالى القرن السادس فى حين أن تاريخها الصحيح يرجع الى حوالى ١٤٠٠ ق.م. ، بينما أرخ تقويم جازر المشهور ، بتاريخ بعد تاريخه الحقيقي بسبعة قرون ، بسبب التاريخ التتابعى الخاطيء للفخار . ومن جهة أخرى تضمنت بحوثه كثيرا من نواحي الارتقاء بالأراء الاقدم . فالفخار المميز لواخر العصر البرونزى المتوسط، فصل عن فخار العصر البرونزى المتأخر ، ووضع تحت اسم « العصر السامى الثانى » وأرخه بحوالى ١٨٠٠ - ١٤٠٠ ق.م. ، وهو تأريخ صحيح تقريبا . كما تضمن البحث تصنيف كمية من الاشياء ووصفها ، وبذلك أمدت الطلاب بمادة قيمة المقارنة .

وفى عام ١٩٠٩ عين ماكليستر أستاذا للآثار الكنتية فى دبلن ، ودعت هيئة صندوق تمويل التنقيب عن آثار فلسطين دونكان ماكنتزى Duncan Mackenzie ليرأس مشروع حفائرها فى بيت شمس (تل رام الله) • ولما كان لدى ماكنتزى معلومات ممتازة عن الفخار الايجى ، فإنه كان أهلا لان يقدر القيمة التاريخية الكاملة للفخار الفلسطينى (وقد سماه كذلك هيرمان تيرش Hermann Thiersch عام ١٩٠٨) الذى وجد بكميات وافرة فى هذا الموقع • ولذلك فليس بمستغرب أن تكون التواريخ التى أعطاها لفخار عصر الحديد صحيحة بوجه عام — ولو أن بعضها كان مغالى فيه — وأنه قلب اتجاه ماكليستر فى اعطائه للفخار « اليهودى » تواريخ متأخرة جدا عن تواريخها الصحيحة • وبعد ثلاثة مواسم للحفر ، توقف العمل فى هذا الموقع لقلّة الاعتمادات ، ثم قامت الحرب العالمية الاولى مما أدى الى الاضطرار الى إلغاء المشروعات الجديدة •

ولقد كان العلماء الالمانيون والنفسيون يتوقون للعمل فى فلسطين منذ سنوات كثيرة • وفى نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، تحسنت العلاقات بين ألمانيا والنمسا من جانب وبين تركيا من الجانب الآخر ، الى درجة رؤى معها أنها ملائمة سياسيا لارسال بعثات للحفر فى فلسطين • وفى سنة ١٨٩٨ تأسس المعهد الالمانى للدراسات الشرقية تحت رعاية الامبراطور الالمانى • وفى سنة ١٩٠١ قام العالم الالمانى ارنست سلين Ernst Sellin المتخصص فى دراسة التوراة والذى كان يقوم فى ذلك الوقت بالتدريس فى فينا ، بتنظيم بعثة للحفر فى التل البديع فى تعنك التى تبعد عن مجدو بخمسة أميال (ثمانية كيلو مترات) جنوبا ، وأجرى بها حفائر على نطاق واسع من ١٩٠١ الى ١٩٠٤ واكتشف أشياء هامة عديدة ، منها اثنا عشر لوحا بالخط المسمارى وأجزاء ألواح من القرن السابق لعصر العمارة • غير أن المشروع لسوء الحظ لم يكن مزودا بعدد كاف من المساعدين كما أهملت استراتيجرافية الموقع • وفى هذه البعثة كان شوماخر ، الذى عمل من قبل فترات طويلة فى تسجيل الآثار الظاهرة ، قد حصل على خبرته الاولى فى اجراء تنقيبات فعلية ، ثم أسندت اليه رئاسة بعثة ألمانية للحفر فى الموقع الكبير فى مجدو من ١٩٠٣ الى ١٩٠٥ ، غير أنه عمل وحيدا مثل ماحدث مع ماكليستر فى جازر تماما • ولما كان شوماخر رساما متدربا فإنه أنتج خرائط ورسومات أفضل من تلك التى أنتجها ماكليستر ، ومع ذلك ثبت

أنها غير دقيقة لدرجة أن المهندسين المساحيين بالمعهد الشرقى وجدوا أنه من المستحيل أن يضموا إلى الخرائط والمساقط المساحية التي أعدوها بأنفسهم . وفى الواقع لم يمكن التعرف اطلاقا على بعض الخنادق المبينة فى رسومات شوماخر بين الخنادق التي قام بحفرها فعلا . وقد أفسد جهل شوماخر بالفهرست الفخارى للتأريخ عمله الاستراتيجرافى الى درجة أنه لم يمكن الاستفادة به الا فى حدود ضيقة . ومع ذلك فإن عمله كان ذا قيمة كبيرة فى حد ذاته ، ولاشك أنه لعب دورا هاما فى تطوير علم الآثار الفلسطينية الى نظام قوى التماسك .

وفى سنة ١٩٠٧ بدأت بعثة ألمانية — نمسوية مشتركة بالعمل فى أريحا ، فى جنوب وادى نهر الاردن ، واستمرت فى العمل حتى ١٩٠٩ تحت قيادة سيلين وكارل واتزينجر Carl Watzinger يعاونهما عدد من المهندسين المعماريين . ولأول مرة فى تاريخ الحفر فى فلسطين تقابل بعثة كبيرة مزودة بالكفايات كما يجب ، وعندما نشر تقرير هذه الحفائر فى سنة ١٩١٣ تحقق ما كان متوقعا منها ، اذ كانت المساقط الهندسية والصور فوتوغرافية ممتازة ، ووصف الفخار وصفا دقيقا برسومات وصور فوتوغرافية توضح تفاصيل الوصف ، كما وصف تركيب السور البديع الذى يرجع تاريخه الى العصر البرونزى المتوسط وصفا كاملا دقيقا ، وعولجت استراتيجرافية الموقع علاجا جيدا ولو أن الحفر لم يخرق طبقات الالف سنة الثالثة قبل الميلاد الا قليلا . ومع ذلك فمن جهة أخرى كان التأريخ بعيدا عن الصواب ، اذ أهمل المنقبان الاطلاع على نتائج البعثات البريطانية واعتمدا على نظام تأريخى تتابعى من صنعهما ، وقد اعتمد هذا النظام الجديد أساسيا على فرض سيلين الذى يزعم ان السور المذكور قد سقط قبل دخول بنى اسرائيل ، وأن سورا آخر — كما استنتج من التوراة — قد بناه حيثيل البيئيلي فى القرن التاسع قبل الميلاد . لكن الحقيقة أن السور الذى ظن سيلين أنه انهار فى الحصار الاسرائيلى قد تهدم فى أوائل العصر البرونزى المتوسط ، فى حين أن السور الذى زعم أن حيثيل بناه لا يمكن أن يكون تاريخ بنائه متأخرا عن القرن السابع عشر ق . م . أى قبل عهد حيثيل بثلاثمائة قرون كاملة .

ويمكن أن يقال ان عام ١٩٠٨ كان عاما فاصلا فى تقدم الجانب الفنى لعلم الآثار الفلسطينية ، اذ بدأ فى ذلك العام العمل الحقيقى فى

التنقيب (لا مجسات أولية) في كل من أريحا والسامرة • ولأول مرة منذ بدأ تنقيب علمي في فلسطين ، كان بالبعثة نفسها مساعدون متدربون في متناول اليد ، للعناية بكل المراحل الهامة للعمل ، ولم تعد أعمال الحفر والتسجيل الشاقة تترك كلها لرجل واحد أو لرجلين • اذ قامت بعثة جامعة هارفارد بالتنقيب في السامرة لمدة ثلاث سنوات برئاسة جورج اندرو ريزنر George Andrew Reisner ، ومعاونته آخرين خصوصا فيشر C.S. Fisher • وبفضل كرم الثرى الأمريكى السخى ، جاكوب شيف Jacob Schiff الذى رصد للمشروع مبلغا ضخما يبلغ ستين ألف دولار ، لم تعان البعثة من الافتقار للاعتمادات المالية كما كان يحدث عادة مع البعثات السابقة • وعلاوة على ذلك فان ريزنر نفسه كان عالما أثريا نابغا خليقا بأن يقف في نفس مرتبة روبينسون ، وكليرمونت- جانو ، وبترى • وكان ريزنر قد أمضى قبل ذلك عشر سنوات في العمل الاثرى في مصر ، حيث ابتكر أساليب فنية جديدة في البحث الاثرى ، أصبحت منذ ذلك الحين مثالا يحتذى به وتجمع بين الطرق التى ابتكرها بترى والطرق التى ابتكرها دورفلد Dörpfeld وكولدوى Koldewey في المانيا، والطرق الممارسة في موطنه الاصلى في أمريكا الغربية الوسطى والبراعة فى تنظيم الاعمال الكبيرة • ومن حسن الحظ كان ريزنر أيضا هو صاحب الامر في صرف الاعتمادات اللازمة للعمل ، وقد توخى دائما عدم الاسراف في الصرف بل كان يصرف كل شئ في موضعه الصحيح • واستغل ريزنر كل الامكانيات لعمل تخطيط مساحى دقيق ، وتحليل معمارى ممتاز ، وتسجيل فوتوغرافى كامل ، وتنظيم دقيق للسجلات ، فلم يترك شيئا للصدفة ، ولم يعتبر شيئا غير ذى بال الى درجة لا يستحق معها الاهتمام الجدى • وحيث ان المجلدين الضخمين عن أبحاثه في السامرة لم يظهر الا سنة ١٩٢٤ ، فان الطرق الجديدة لريزنر لم تؤثر تأثيرها الكامل في علم الآثار الفلسطينية الا عن طريق أعمال تلميذه فيشر الذى كان هو نفسه أيضا أثريا نابغا لا يقل في نبوغه عن ريزنر •

واذا تغاضينا عن ذكر المشروعات الصغيرة العديدة وعمليات الكشف السطحية التى جرت قبيل الحرب العالمية الاولى ، فاننا نصل الى عام ١٩٢٠ حينما أنشئت مصلحة للآثار الفلسطينية على نظام حديث ، تحت رئاسة العالم الاثرى المحنك جون جارستانج John Garstang

من جامعة ليفربول * وفي ظل سياسة المصلحة الجديدة ازاء المنقبين
الاجانب ازدهرت البحوث الاثرية في فلسطين ازدهارا لم يسبق له مثيل .

وفي خلال سنوات السلم الخمسة عشر ١٩٢١ - ١٩٣٦ ، لم تمر سنة
واحدة الا وجرت فيها عدة حفائر ، وقد زاد عدد المشروعات خلال هذه
المدة زيادة مطردة حتى بلغ ذروته في الثلاثينيات الاولى ، ويعد المؤلف
نفسه محظوظا لعمله في فلسطين من ١٩٢٠ الى ١٩٣٥ ، وقد قُلم خلالها
بدور فعال في كل من مجالي التنقيب والدراسة * ولقد كانت هذه
السنوات سنوات مثيرة حقاً ، اذ تحقق فيها كل شهر تقدم ملحوظ نحو
هدفنا البعيد لكتابة تاريخ فلسطين الكامل كما تحكيه آثارها .

وبمجموعة من الاثريين ، تكاد تكون كلها جديدة على العمل الاثري
في فلسطين ، كان علينا أن نبدأ من أول الطريق منشئين نظاما استقرائيا
لم نقبل فيه أيأ من النتائج السابقة كما هي الا اذا أيدتها أبحاثنا
الخاصة * وبدلا من عدم وجود اتصال بالمرّة تقريبا بين البعثات الالمانية
والبعثات البريطانية ، وهي السياسة التي كانت سائدة في ذلك الوقت ،
وكذلك بدلا من الانقطاعات المتكررة في مواصلة العمل انتي كانت تحدث
كلما وصل أثرى جديد الى فلسطين ، ساد جو بديع من التعاون * وكان
الراهب الفرنسي فينسنت L. H. Vincent المرجع السريع الاول لنا ، اذ
أنه كان قد درس كل التنقيبات التي جرت منذ أواخر القرن التاسع عشر
ونشر في ١٩٠٧ عرضا بديعا لنتائجها ، وفي الواقع كان الاب فينسنت معلما
ومرشدا للجميع ولم يدخر وسعا في أن يعرف كل مبتدئ بأسرار نظامه
في البحث * وكانت معلوماته عن الفخار لا تبارى ولو انه شارك في
كثير من أخطاء المنقبين الاوائل ولم يوفق في جهوده لوضع نظام
تأريخي موحد من النتائج المتضاربة جدا لبحوث ماكاليستر
وواتزنجير * وقد سار السفر أسهل نسبيا مما كان عليه
من قبل بفضل انشاء طرق حربية جديدة واستخدام عرباتفوردي للنقل *
وزار الاثريون بعضهم بعضا وتقابلوا في متحف فلسطين أو في
الاجتماعات التي كانت تعقدها جمعية فلسطين للدراسات الشرقية لتبادل
الآراء والنتائج ، ولذلك فلا غرابة في أن أصبح التقدم أكثر أطرادا .

وطبعا ، لا يعني هذا أنه لم تكن هناك نكسات ، فقد وصل من
الخارج أحيانا رجال من ذوى السمعة الوطيدة وأظهروا أنفسهم غير .

مستعدين لقبول أسس تأريخ الفخار الفلسطيني أو غير قادرين على تفهمها • كذلك كشف أحد المنقبين على سفوح جبل جرزيم عن مبنى ظنه هيكلًا وأرخه بعصر جدعون حوالي ١١٠٠ ق • م ، في حين كان هذا المبنى في واقع الامر منزلا (فيلا) وتحقق أخصائيو الفخار فيما بعد أن الفخار الذي وجد به انما هو فخار نموذجي للعصر البرونزي الاوسط ، ومعنى هذا أن المنقب كان مخطئا في تأريخه بحوالي خمسة قرون ، وذلك لجرد أنه حسبه أمرا لا يتفق مع كرامته ان يستطلع آراء علماء آخرين • واكتشفت قرية من عصر النحاس يرجع تاريخها الى أوائل الالف الرابعة قبل الميلاد • وكشف عنها كشفا جزئيا ، لكن مدير العمل ، وكان رجلا مرموقا ، دخل في سلسلة من الاخطاء الغريبة ، حتى أنه أرجعه الى تاريخ متأخر عن تاريخه الحقيقي بألف وخمسمائة سنة ، وما أن نسبه الى هذا التاريخ المتأخر حتى تمسك به حتى وفاته في عمر مبكر • وأرخ احد المنقبين الآخرين مقبرة من عصر الحديد بتاريخ أحدث من تاريخها الصحيح بخمسمائة سنة بسبب أخطاء مماثلة •

ولن نهجد القارئ بذكر كل التنقيبات الاثرية في فلسطين وشرق الاردن منذ سنة ١٩٢٠ ، بل سنقصر نفوسنا على ايراد وصف موجز عام للتقدم في هذا الميدان ، مستشهدين بصورة فوتوغرافية لكل من التنقيبات الاكثر أهمية أو لكل مجموعة من المشاريع وسنكون مضطرين مرارا لعدم ذكر الحقائق كاملة ، وذلك اما لكون المنقب لا يزال يعمل ، أو لان نتائج تنقيباته لم تنشر حتى الان بأكملها ، اذ أن الكاتب لا يكون حقيقيا في مأمن من الخطأ عند محاولته الكتابة باستفاضة عن القيمة الحقيقية للتنقيبات الاثرية الا بعد أن ينتهي العمل منها ويتم نشر كل التفاصيل الهامة عنها •

ولا شك أن أكبر طفرة حدثت في دراسة الاثار الفلسطينية كانت في مجال ما قبل التاريخ ، اذ كان هذا الفرع من العلم حتى سنة ١٩٢٠ قاصرا تماما ، ومع أن بعض التنقيبات السطحية والمجسات القليلة في الكهوف كانت قد كشفت عن بعض آلات ظرائفة تشبه تماما الآلات الظرائفة الشيلية والموسستيرية والاوريانسية من العصر الحجري القديم في غرب أوروبا ، الا أنه لم تكن ثمة استراتيجرافية ، كما لم تكن ثمة أدلة ثابتة عن أنواع الحيوانات والنباتات أو نوع الجنس البشري المرتبط بأي نوع من هذه الآلات الظرائفة ولا عن جيولوجيتها أو تاريخها الجيولوجي • وفي سنة

١٩٢٥ قام شاب انجليزى هو تورفيل بيتر F. Turville-Petre بالتقيب
فى كهفين أعلى بحر الجليل ، وكشف عن أول ترسيبات على شكل طبقات
فى فلسطين ، وفى أحدهما عثر على أول بقايا لانسان ما قبل التاريخ
وكان الاكتشاف الرئيسى هو جزء من جمجمة الانسان نياندرثال فى وسط
يتميز بمعالم موسستيرية أيضا ، مما يثبت بدليل مادى صحة وجود العلاقة
التي سبق تقرير قيامها بين العصر الموسستيرى فى فرنسا العصر
الموسستيرى فى فلسطين . وفى سنة ١٩٢٨ بدأت دوروثى جارود
Miss Dorothy Garrod العالمية البارزة فى دراسات ما قبل التاريخ
بجامعة كامبريدج ، سلسلة طويلة من البعثات فى الكهوف الفلسطينية
استمرت حتى سنة ١٩٣٤ تحت الرعاية المشتركة لكل من المدرسة
البريطانية للآثار British School of Archaeology بالقدس والمدرسة
الامريكية لبحوث ما قبل التاريخ The American School of Prehistoric
Research وكان ضمن الاكتشافات البارزة التى قامت بها بعثتها
الكشف عن الحضارة النطوفية الجديدة وبعض هياكل عظيمة كاملة
أو أجزاء هياكل لمستحجرات بشرية . وكان الفرنسيون يقومون فى نفس
الوقت بنشاط فى فلسطين ، اذ أجرى موظف كبير بالقنصلية الفرنسية
هو رينيه نيفى René Neuville سلسلة من التقيبات فى بعض
الكهوف الاخرى بفلسطين .

وكانت القيادة فى دراسته الآثار الفلسطينية بين الحربين العالميتين
للجمعيات البريطانية بالتعاون فى معظم الاحيان مع مجموعات أمريكية
أو أفراد من الامريكيين ، اذ قامت هيئة صندوق تمويل التقيب عن آثار
فلسطين والمدرسة البريطانية للآثار باجراء سلسلة كاملة من التقيبات
الصغيرة والمجسات مبتدئين ببعض العمل فى عسقلون برئاسة جارستافج
وفيثيان آدمز W. J. Phythian-Adams . وفيما بين ١٩٢٣ و ١٩٢٨
قامت سلسلة من البعثات بالتقيب فى تل الاكمة (أوفيل) فى القدس
تحت اشراف مساكاليستر وجارو دنكان J. Garrow Dunkan
وكروفوت J. W. Crowfoot على التوالى ، ووجدت بهذا التل كمية
كافية من المباني والفخار تثبت بصفة قاطعة أنه كان النواة
الاصلية « لدينة داود » .

وحفائر أريحا التي كان الالمان قد بدأوها فى سنة ١٩٠٧ — ١٩٠٩ ، استأنف العمل فيها جارسستانج فى ١٩٢٩ — ١٩٣٦ وكاثلين كينيون Kathleen Kenyon فى ١٩٥٢ — ١٩٥٨ . وقد فشل جارسستانج فى تحديد تاريخ سقوط هذه المدينة التى كانت آخر معقل للكنعانيين ، لكنه اكتشف بها حضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجري الحديث وهى أقدم حضارة مدنية . وكان فشله فى الحصول على دليل واضح على قيام حضارة مدنية فى العصر البرونزى المتأخر فى أريحا ، راجعاً الى حدوث تآكل شديد جداً لبقايا الطوب اللبن بالموقع خلال الاربعة قرون (أو نحو ذلك) التى تقع بين آخر عمران لها قبل دخول بنى اسرائيل الى فلسطين واعادة بناء المدينة الاسرائيلية فى أوائل القرن التاسع قبل الميلاد ، اذ كان تأثير الرياح والمطر على مثل هذه المواقع شديداً لدرجة تدعو الى عدم الانتباه اليها ، ومع ذلك فقد وجد فيها جارسستانج بقايا من حصن من العصر البرونزى المتأخر ، أمكن تأريخه بواسطة الفخار الذى وجد به ، وكذلك بواسطة الدفقات المجاورة له ، بالقرنين الرابع عشر والثالث عشر قبل الميلاد . ولم تتمكن مس كينيون من اضافة دليل جديد هام لشواهد جارسستانج عن العمران الاخير للمدينة قبل دخول بنى اسرائيل ، لكن بحوثها قد وضحت التسلسل التاريخي للموقع على ممر العصور ، وأمدتنا بمعلومات مثيرة عن حضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجري الحديث .

وقد عاد عميد الاثريين العظيم ، فليندرزبترى الى فلسطين فى سنة ١٩٢٧ بعد مرور سبع وثلاثين سنة، وقرر بترى طبقاً لمبدئه الاستقلالى فى البحث طوال حياته الا يعير أى انتباه لنتائج الباحثين الآخرين ، بل دأب على ان يؤرخ مكتشفاته طبقاً لاستنتاجاته كلما تقدم العمل . ومن الوجهة النظرية اعتمدت استنتاجاته هذه على مقارنة أشكال مكتشفاته فى فلسطين بمثيلاتها التى وجدت فى مصر ، غير أنه ثبت عملياً أن الاشياء التى عثر عليها فى فلسطين كانت شحيحة لدرجة لا يمكن معها اعطاء استنتاجات يعول عليها ، اذ انه رفض ان يعير اهتماماً بالنتائج المتراكمة للباحثين الآخرين فى هذا الحقل . ولذلك فعندما قدم تأريخه عن نك العجول (غزة القديمة) نسب أقدم مخلفات بها الى حوالى ٣٥٠٠ — ٣٢٠٠ ق.م . بدلاً من حوالى ٢٠٠٠ ق . م . رابطاً اياها بالاسرة المصرية الخامسة بدلاً من الاسرة الحادية عشرة ، كما أنه أرخ

أهم مدينة في الموقع بحوالى ٢٦٠٠ - ٢٤٠٠ ق م • بدلامن حوالى ١٥٠٠ ق م • رابطا اياها بالاسرة الثانية عشرة بدلا من الاسرة الثامنة عشرة • ولا يعتمد تصحيح تأريخات بترى على مجرد رأى الشخصى للمؤلف ، بل يعتمد على تحقيق ذاتية أشكال الفخار بصفة قاطعة يمكن اثباتها بمعرفة اى زائر نابيه لمتحف فلسطين أو أى طالب آثار له جلد على الاطلاع والبحث فى أحد المطبوعات • وبالإضافة الى أعمال التنقيب التى جرت فى تل العجول (١٩٣٠ - ١٩٤٣) فقد أجرى بترى حفائر لمدد قصيرة فى موقعين آخرين فى النقب (هما تل جمه فى جنوب غزه وتل فرعه الذى يحتمل أن يكون شاروهين القديمة) • وتكوّن هذه التنقيبات وتنقيبات صغيرة أخرى أجريت فى أنثيدون وبترا (البترا) فى ١٩٣٥ - ١٩٣٧ كل الدور الذى تم فى فلسطين للمعاملات التى قامت بها المدرسة البريطانية للآثار فى مصر التى كان بترى قد أسسها قبل ذلك بأربعين سنة •

ولا يزال أمامنا أن نتناول بالذكر بعثتين بريطانيتين للتنقيب بالعتى الاهمية أولاها البعثة الجامعية المشتركة التى عملت بالسامرة (١٩٣١ - ١٩٣٥) ، والثانية بعثة ويلكوم - مارستون Wellcome - Marston التى عملت فى لخيش (تل الدوير) من ١٩٣٢ الى ١٩٣٨ • وقد بدأت تنقيبات السامرة تحت إشراف كروفوت J. W. Crowfoot من حيث تركها ريزنر ، وأوضحت نقطتا عديدة فى التأريخ كانت دائما موضعا للشك • وبفضل التقدم الهائل فى تأريخ شقف الفخار خلال هذه السنوات العشرين (التى مرت بين عمل بعثة ريزنر وبعثة كروفوت) ، أمكن تصحيح كثير من الاخطاء التى كان لا مناص من ان يقع فيها. ريزنر : فالابراج المستديرة التى توجد بالقلعة ثبت أنها من العصر الهلنستى^(١) بدلا من العصر الاسرائيلى أى أحدث من تاريخها السابق بحوالى خمسة قرون ، وشارع الاعمدة « المهيوديسى » ثبت أنه من القرن الثالث أو الرابع الميلادى • وأهم اكتشاف لريزنر بالمنطقة ،

(١) الحضارة الهلينية Hellenic هى الحضارة اليونانية فى بلاد اليونان نفسها •
والحضارة الهلنستية Hellenistic هى الحضارة اليونانية خارج بلاد اليونان •

وهو حوالى سبعين قطعة من الشقف المكتوب (لخاف أو استراكا)، يرجع تاريخها الى القرن الثامن قبل الميلاد (إلا الى القرن التاسع كما ظن ريزنر) وجدت بعثة كروفوت ما يعادلها من اللخاف بالاضافة الى مجموعة جميلة من العاج المنحوت المطعم من القرن التاسع أو الثامن قبل الميلاد . أما حفائر لخيش فكان يديرها بكفاءة باللغة ستاركى J. L. Starkoy (لوحة ٣) الذى تعلم فن التنقيب على يدى بنرى، ولو لم يكن قد قتل غدرا فى يناير سنة ١٩٣٨ لكان قد وصل الان الى مرتبة جهاذة العلماء الاثريين البارزين . وكان ستاركى يملك روحا تقدمية وثابة بالاضافة الى سليفته الحادة فى التحليل الاثرى ، كما أظهر مقدرة نادرة فى العمليات الهندسية وفى تنظيم العمل الاثرى . وبمعاونة نفر من أعضاء البعثة الممتازين أعطى لكل نواحى تنقيباته حقها الكامل من الدراسة ، بما فى ذلك الرسم المساحى والتصوير الفوتوغرافى ودراسة الفخار والنقوش . وكشفه المثير فى ١٩٣٥ و ١٩٣٨ لما يزيد عن عشرين قطعة من الاستراكا المكتوبة باللغة العبرية ثلثها مقروء تماما ، قد جعل كل الكشوفات الاخرى بالموقع قليلة الاهمية بجوار كشفه هذا . وكانت لخيش قلعة باللغة الاهمية فى العصور المختلفة ، وقد سهل العمل التحضيرى المنظم الذى قام به ستاركى عمل المنقبين التالين له فى هذا الموقع ، وليس هناك أدنى شك فى أن تنقيب الطبقات الكتانية الاخيرة سيمدنا بكثير من القطع المنقوشة بالخط المسمارى والخطوط الاخرى ، وسيذهب الى مدى بعيد نحو اقرار تحديد تاريخ هزيمة بنى اسرائيل لكتعان ، وهى المسألة التى لا تزال الاراء فيها متضاربة

وأول بعثة أمريكية نظمت للعمل فى فلسطين فى المدة الواقعة بين الحربين العالميتين كانت بعثة تنقيب القلعة الكبرى فى بيسان (بيت شان) (لوحة ٦) تحت رعاية متحف جامعة بنسلفانيا وبرئاسة فيشر C. S. Fisher والآن روى Alan Rowe وفيتزجيرالد G.M. Fitz Gerald على المتعاقب . وبلغ عدد مواسم عمل البعثة فى هذا الموقع عشرة مواسم فيما بين ١٩٢١ و ١٩٣٣ . وكان فيشر مهنسا معماريا متديبا وأثريا من مدرسة ريزنر ولذلك فقد حظى مشروع بيسان (بيت شان) ، بتخطيط وتنفيذ جميلين . ولما كان ألان روى وفيتز جيرالد قد تدربا على يدى فيشر ، فلم يكن ثمة انقطاع فعلى فى

سلسلة العمل بسبب تغير رئيس البعثة المتعاقب، ولعل أبرز ما تميزت به هذه الحفائر هو اقامة اللثام عن عدة حصون مصرية فى طبقات بعضها فوق بعض من القرن الرابع عشر الى القرن الثانى عشر ، وقد عثر فيها على عدة لوحات مصرية وعدد من الهياكل باللغة الالهية فى تاريخ الديانة الكنعانية ، كما أعطت المجسات التى أجراها فينر جيرالد حتى وصل الى الارض الصخرية معلومات قيمة عن التعاقب الاستراتيجى للموقع الى ما يرجع الى منتصف الالف الرابعة قبل الميلاد .

وفى عام ١٩٢٥ ترك فيشر العمل فى جامعة بنسلفانيا وعمل مع بعثة معهد الآثار الشرقية بجامعة شيكاغو كرئيس لبعثة التنقيب فى مجدو . وكانت بعثة ألمانية قد قامت بالحفر فى هذه المدينة المشهورة فى ١٩٠٣ - ١٩٠٥ كما سبق الذكر ، ووجدت قليلا من الآثار غير العادية . غير أن البعثة الأمريكية الجديدة تميزت بتنظيم أبداع كثيرا عن سابقتها الألمانية وبموارد مالية فاقت بكثير جدا كل البعثات الاثرية السابقة لها ، إذ بلغت تكاليفها من سنة ١٩٢٥ الى ١٩٣٩ حوالى مليون دولار (بما فى ذلك تكاليف النشر) ، وللأسف اعتلت صحة فيشر مما دعاه الى الانسحاب من العمل وأعقبه جاي P.L.O. Guy وجوردون لاود Gordon Louw على التوالى ، لكن أحدا منهما لم يملك خبرة فيشر ولا معرفته الممتازة فى الفخار . ومن حسن الحظ أن عدلت البعثة عن برنامجها الاصلى لحفر هذا الموقع العظيم بنظام طبقة طبقة بسبب تكاليفه الباهظة . وقد يبدو تعبيرنا هنا لحسن الحظ غريبا ، لكن يجب أن نعلم أن ما يعتبر حاليا أحسن الطرق ربما يبدو بعد قرن من الزمان طريقة بدائية ، ومن الخطأ المؤسف أن نستنفد فى وقت واحد امكانيات موقع هام مثل موقع مجدو . وفى الواقع لم يرفع الا جزء من التل الكبير ولا يزال ثمة مجال متسع لتصحيح التاريخ وللقيام بكشوفات هامة . وأهم ما كشفت عنه هذه البعثة هو الاصطبلات الفسيحة الخاصة بملوك اسرائيل التى بدأ بناؤها فى عصر الملك سليمان ، وكثر مدحش من قطع العاج المنحوت من القرن الثانى عشر قبل الميلاد . ومن الاهمية بمكان أيضا تلك المجسات التى أجرتها البعثة فى الخمسة عشرة طبقة أو أكثر التى سبقت الفتح الاسرائيلى وترجع الى أوائل الالف الرابعة أو ما قبل ذلك .

وبالرغم من تأسيس المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية فى القدس سنة ١٩٠٠ الا أنه لم يكن لديها من الاعتمادات مايسمح لها بأن تقوم الا بتنقيبات صغيرة جدا . وفى ١٩٢٦ دخلت فى سلسلة من الحفائر المشتركة ، كلها تقريبا تنسب اليها . وعين فيشر فيها فى وظيفة مستشار وثبت أن معونته لها كانت قيمة جدا . وأولى البعثات التى دخلت بها ميدان الحفر كانت تنقيبات تل النصبة على الطريق المرتفع شمالى القدس . وقد تم تنقيب الموقع كله تقريبا فى خمسة مواسم (١٩٢٦ — ١٩٣٥) وهو عمل بارع ساعد على انجازه أن الجزء الاوسط من التل كان معرى تماما ولم توجد به الا طبقات قليلة ، وقد اتبع بادی W.F.Badé منظم المشروع ومديره ، نفس طرق فيشر بكل دقة ، بل وأنه قام بتسجيل أصغر الاشياء بكل عناية . والمجلدان الضخمان اللذان أصدرهما ماك كاون C.C. McCown عام ١٩٤٧ عن هذه التنقيبات يعتبران نموذجا لما يجب عليه نشر مثل هذه البحوث . وفى نفس الشهر قامت المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية بمعاونة كايلى M. G. Kyle والمؤلف W. F. Albright الذى كان رئيسا للبعثة ، بمشروع ثان هو حفائر تل بيت مرسيم فى الجنوب الغربى لحبرون التى تعتبر عادة قرية سفر أو دبير المذكورة فى التوراة (يشوع ١٥ : ١٥) . وثبت من تنقيب هذا الموقع تنقيا جزئيا فى اربعة مواسم (١٩٢٦ — ١٩٣٢) أن فترات العمران فى هذا الموقع بلغت عشر فترات أو احدى عشرة فترة ، من أواخر الالف الثالثة الى حوالى ٥٨٩ ق م . ، على أن الاهمية الاساسية لهذا العمل تنحصر فى العناية التى وجهت الى المتتابع التاريخى للفخار الذى نشرت نتائجه على الفور وأصبحت هى المقياس الاساسى الذى يستخدمه علماء الآثار الفلسطينية لمقارنة الفخار . وقد ظهر فى الطبقة التى تمثل عصر الملكية فى هذا التل مدينة يهوذا وهى المدينة الوحيدة المحفوظة حفظا جيدا التى أظهرتها التنقيبات حتى الان ، وقد نشرت المساقط الافقية لعشرات المنازل ومحتوياتها ، وهى تعطى لأول مرة صورة واضحة للكيفية التى عاش بها شعب يهوذا فى أيام أشعيا وأرميا النبيين .

وبعد سنتين قامت المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية بمساعدة وقيادة اليهو جرانت Elihu Grant بمشروع ثالث فى بيت شمس بمعاونة فيشر أيضا ، وفى خمسة مواسم (١٩٢٨ — ١٩٣٣) أزيل

جزء كبير جدا من التل وعثر على العديد من الاثار الهامة ، وترجع الاهمية الرئيسية لهذا العمل الى الضوء الذى ألقاه على العمران الاسرائيلى المبكر فيما بين القرن الثانى عشر والقرن التاسع قبل الميلاد. وبمعاونة الرجل القدير رايت G. E. Wright أمكن ايضاح التتابع الزمنى للموقع ايضاحا تاما قبل الانتهاء من النشر . ومما يجدر بالذكر أن أعمال هذه البعثات الثلاثة قد تم نشرها نشرًا كاملا فى اثنى عشر مجلدا بالاضافة الى عدد كبير من النشرات القصيرة . ومن المؤسف انه لا يمكن أن يقال نفس الشئ بالنسبة للمشروعات الاثرية الاخرى الباهظة التكاليف التى تمت فى نفس الفترة .

وبالاضافة الى هذه التنقيبات الطويلة الثلاثة فان المدرسة الامريكية للبحوث الشرقية فى القدس قامت بمشروعات قصيرة عديدة ، واذا كنا نقتصر هنا على ذكر أهمها فاننا نذكر حفائر بيت زور (١٩٣١) برئاسة سلز ومعاونة المؤلف ، وحفائر بيت ايل (١٩٣٤) برئاسة المؤلف وكلسو J. L. Kelso ، وكانت هاتان البعثتان منتجتين ، وقد استأنف كلصو العمل فى حفائر بيت ايل سنة ١٩٥٤ . على أن أهم هذه المشروعات لم يقم الا سنة ١٩٣٣ ، عندما بدأ نلسون جلويك Nelson Glueck مسح منطقة شرق الاردن مسحا أثريا منظما واستمر هذا العمل سنة بعد سنة حتى ١٩٤٦ . فقد تم سبر كل الاراضى بعناية من العقبة الى حدود سوريا ، وسجلت البعثة مئات عديدة من المواقع القديمة التى لم تكن معروفة من قبل وأرختها بالاستعانة بقطع الشقف التى كانت منتشرة على سطوحها . وحيث أنه لا توجد تقريبا بهذه المنطقة أى تلال بالمعنى الصحيح ، فان النتائج التى أعطتها البعثة قاطعة بوجه عام فيما يختص بالخطوط العريضة لتاريخ عمرائها . وقد نجح جلويك فى تقرير حقيقة هامة هى أن معظم منطقة شرق الاردن (فيما عدا وادى الاردن وأقصى الشمال) لم يستعمر الا لحد قصيرة نسبيا تفصلها فترات طويلة كانت فيها محطا للقبائل البدوية . وأهم فترتين للحياة البدوية بهذه المنطقة لم يستقر البدو خلالها فى مكان واحد أو استقروا استقرارا ضئيلا ، استمرتتا من القرن العشرين الى القرن الثالث عشر ، ومن القرن السادس الى القرن الاول قبل الميلاد . وبالاضافة الى أعمال المسح الاثرى، القيمة التى قام بها جلويك فانه رأس أيضا بعثات تنقيب صغيرة ، لكنها كانت مثمرة جدا ، وذلك فى معبد للانباط من القرنين الاول والثانى الميلاديين ، وفى تل الخليفة وهو

عصيون جابر القديمة على خليج العقبة (١٩٣٧ - ١٩٤٠) وفى
ثلاثة مواسم للتنقيب فى تل الخليفة كشفت البعثة عن بقايا
استراتيجرافية لاستخلاص النحاس من خاماته وتنقيته يرجع تاريخها
الى القرن العاشر قبل الميلاد والى عهد الملك سليمان •

وخلال السنوات ١٩٣٣ - ١٩٣٨ ، أخذت بعثة كولت ، برئاسة
دونسكومب كولت Dunscombe Colt ومعاونة كولن بالى T. J. Colin Baly
على عاتقها تنقيب أربع مدن كبيرة فى النقب جنوبى اليهودية
هى سببته (سوبيتا القديمة) وعوجا الغفير (نيسبانا)
وخلصه (الوسا) وعبد (عبودا) • ومع ان نتائج عمل هذه البعثة
خارجة فى تفاصيلها عن نطاق هذا الكتاب ، الا انها بالغة الاهمية ، كما
سيوضح بعد نشرها نشرًا كاملاً • ومن أهم ما وصلت اليه هذه البعثة هو
أن هذه المدن الاربعة قد تبادلت الاهمية ولم تزدهر كلها فى وقت واحد
وهو ما كان يسلم به المنقبون السابقون دون الاعتماد على دليل ثابت •
وأهم ما عثرت عليه البعثة هو كمية من البردى اليونانى والعربى من
القرنين السادس والسابع بعد الميلاد كشف عنها فى نيسبانا ،
اذ بالإضافة الى أهميتها التاريخية الخارقة ، فان حالتها الطيبة جدا من
الحفظ لتفتح أمامنا باب الامل فى العثور على وثائق أخرى من عصور
أقدم فى نفس الموقع •

وبالرغم من أن الاثريين البريطانيين والامريكيين هم الذين قاموا
بمعظم أعمال التنقيب فى فلسطين بعد الحرب العالمية الاولى ، الا أن
هناك مشروعات عديدة بارعة نظمها أثريون أوروبيون وفلسطينيون •
ومعظم أعمال التنقيب التى قامت بها المنظمات الكاثوليكية تتعلق بالمسح
المعمارى للعمارة البيزنطية وعمارة العصور الوسطى ، ولذلك فهى
متأخرة جدا بالنسبة للنطاق التاريخى الذى يتناوله هذا الكتاب ولا
مناص اذن من عدم ذكرها هنا • أما حفائر طليلات الغسول فى وادى
الاردن جنوب شرقى أريحا ، فقد استمر العمل فيها بمعرفة الاءاء
اليسوعيين ثمانية مواسم من ١٩٢٩ الى ١٩٣٨ حيث نقب الاب أليكسيس
ماللون Alexis Mallor وآخرون جزءا من الطبقتين العلويتين لموقع من
العصر النحاسى من النصف الاول للالف الرابعة قبل الميلاد • وكان
المنقبون الاول قد أعطوا للحضارة الغسولية الحديثة تاريخا متأخرا
جدا ، غير أن المنقبين التالين لهم وهم الاب كوييل Koeppel والاب

ماهان Mahan والاب ميرفى Murphy قد صححوا هذا التاريخ على الفور *
وقد أدت العناية بتنقيب هذا الموقع والعثور على صور مرسومة على
الجدران ذات ألوان متعددة الى زيادة تقديرنا واجلالنا للمستوى
الحضارى الذى ساد فى فلسطين منذ ستة آلاف عام *

وفى عام ١٩٣٤ أنهى ستكوى A. Steckeweh عمل البعثة الالمانية فى
شكيم (بلاطه) بصفة مؤقتة وذلك بعد تاريخ منقطع جدا لاعمال
التنقيب بهذا الموقع ، فقد بدأ سليلين عمل البعثة هنا فى ١٩١٣ ثم
استأنف سليلين العمل فيه مرة ثانية فى ١٩٢٦ * ومن المؤسف أن كل
الاثريين الذين أرسلوا للعمل قبل البعثة الاخيرة لم يكونوا راغبين فى
دراسة الفخار الفلسطينى مقدما ، بل ولم يطلبوا مشورة الخبراء الذين
كانوا يعملون فى فلسطين فى نفس الوقت * وعلاوة على ذلك فان
شجارا قد نشب بين سليلين وفيلتر G. Welter أثرى البعثة الذى تمكن من
ابعاد سليلين عن الحفائر وقام بنفسه بإدارة العمل بطريقة سيئة للغاية
مما دعا الى سحبه من العمل * وان هذا لم ينعى الاسف الشديد حقا ،
اذ أن لهذا الموقع أهمية خاصة ، كما أنه كان محميا بنوع من أهم أنواع
الحصون فى العصر البرونزى التى وجدت حتى الان فى فلسطين * ولم
توجه هذه البعثة أى عناية للتأريخ بالفخار أو لترتيب الطبقات فى
الموقع الا فى الموسم الاخير حينما رفع ستكوى فى أسابيع قليلة
وبتكاليف زهيدة طبقات أكثر مما رفعت البعثة فى كل أعمالها الباهظة
التكاليف التى قامت بها فى السنوات السابقة * ففى علم الآثار كما فى
أشياء أخرى لا يحل أى قدر من المظهر محل العلم والمعرفة *

وفى ١٩٣٣ - ١٩٣٤ قامت مدام جوديت ماركيه
كراوس Mme Judith Marque-Krause بتنقيبات غاية فى الاهمية فى
عائ شرقى بيت ايل مباشرة ، وقد ظهرت هنا بقايا هامة جدا من الالف
الثالثة قبل الميلاد * غير أن عمل البعثة توقف بعد موسمين للحفر فقط
بسبب وفاة مدام ماركيه المفاجئة ، ويأمل الفرنسيون استئناف التنقيب
فى هذا الموقع فى أقرب فرصة تتاح لهم * وثمة حفائر فرنسية أخرى
أجريت سنة ١٩٤٦ برئاسة الراهب الربانى الشاب اللامع رولاند دى
Roland de Vaux فى تل الفرعة ، وهو تل كبير يقع شمال شرقى

خابلس • ونظرا للارتفاع الكبير في الاسعار منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية فان تكاليف التنقيب قد زادت بما يعادل ثلاثة أو أربعة أضعاف متكاليفها قبل الحرب ، ولذلك فان الاب دى فو كان مضطرا لان يقصر التنقيب على مساحات قليلة اذا ما قورنت بحجم كثير من التنقيبات التي أجريت في فترة ما بين الحربين ، ومع ذلك فكثيرا ما يحظى التحليل الاستراتيجى بعناية أكبر عندما لا يكون الاثرى مغمورا بثئون جمع كبير من عمال الحفائر وبسبيل لا ينقطع من الآثار التي يجب عليه وصفها وتسجيلها • ولما كانت معظم الطبقات في تل الفرعه من العصر الكالكوليثى ، فان هذا الموقع سيمدنا بمعلومات قيمة جدا في تحديد المراحل المتتابة للحضارة في الالف الرابعة قبل الميلاد •

ومن المشروعات الهامة الاخرى حفائر المدرسة الامريكية جبالقدس (منذ ١٩٥٠) في ديبون التي تقع في مؤاب ، والتنقيب في آريحا الرومانية الذي أجراه كلسو وبريتشارد J. B. Pritchard في ١٩٥٠ و ١٩٥١ ، وكذلك سلسلة مواسم التنقيب المستمرة في دوثلان برئاسة هيرى J. P. Free منذ ١٩٥٣ • ومنذ ١٩٤٩ كشفت بعثات عديدة برئاسة دى هوعن مراكز اقامة العصيين في خربة قمران وعين فشخة •

الفصل الثالث

عصر ما قبل التاريخ فى فلسطين

نظرا للزيادة الكبيرة فى عمليات التنقيب السطحى فى فلسطين فى منتصف القرن التاسع عشر ، فإنه لم يمض الا وقت قصير حتى كشف لويس لارتيه Louis Lartet ثم الابريشار Abbé Richard عن أول أدوات مصنوعة من الطران (١٨٦٤) • ولقد أدرك لارتيه ماهية هذه الأدوات اذ كان قد مر عشرون عاما على نشر بوشى دى برت Boucher de Perthes لكتابه المثير ، ومرت أربع سنوات منذ أن بدأ ادورد لارتيه Edouard Lartet تنقيبه فى رواسب كهوف ما قبل التاريخ • لكن الاب الطيب ريشارد ظن أن آلاته الطرانىة من عهد يشوع الذى استخدمها لختن بنى اسرائيل • ويرجع الفضل بصفة خاصة الى الحفائر الشاسعة التى أجراها الابهاء اليسوعيون زوموفن Zumoffen وبوفيه لابيير Bovier-Lapierre فى كهوف فينيقيا ، والى التنقيبات السطحية التى قام بها الاب جيرميه - ديران Germer Durand فى فلسطين ، فى أن تمكن بول كارج Paul Karge (وهو قس علمانى كاثولىكى) من تجميع كل المعلومات التى عرفت قبل الحرب العالمية الاولى فى مؤلف بعنوان Rephaim ظهر سنة ١٩١٧ • وبالرغم من عدم وجود أية بحوث استراتيجرافية فان التتابع التاريخى الذى أعطاه كارج للالات الطرانىة التى وجدت ، كان صحيحا بوجه عام ، اذ أنه اعتمد على طريقة مقارنة طرز الالات الطرانىة التى وجدت بفلسطين وسوريا بطرز الالات المقابلة لها مما وجد فى فرنسا وأمكن تأريخها بالدراسة الاستراتيجية •

وقد ذكرنا فى الباب الاول بايجاز الحفائر المنظمة التى قام بها تورفى بيتير ودوروثى جارود وريفيه نيفى ابتداء من عام ١٩٢٥ وقد انضم آخرون الى هذه المجموعة الصغيرة ، وتفوق معلوماتنا حاليا المستوى الذى وصل اليه كارج ، اذ أن علمنا بهذا العصر يعتمد على أسس استراتيجرافية الى جانب الدراسة الطرازية (typology).

وأشترك في هذه الدراسة جيولوجيون وأثريون وAntropologists ويعاونهم
أخصائيو في ميادين كثيرة أخرى • وظلت فلسطين لعدة سنوات في
المرتبة الثانية بعد فرنسا بالنسبة الى أهميتها لعلماء ما قبل التاريخ ،
غير أنه من الانصاف أن نضيف هنا أن جنوب أفريقيا قد اجتذب الاضواء
في هذا الحقل من كل من هذين القطرين •

وفي العصر الطباشيري الذي يتبع حقب الحياة الوسطى (الميزوزوي) *
كانت فلسطين مغمورة بالمياه المتقدمة لبحر طئيس • ومع أن فلسطين
بقيت كجرف للقارة تحت المياه بعد الشاطئ مباشرة ، إلا أن الرواسب
البحرية للعصر الطباشيري تصل الى سمك يبلغ حده الأقصى حوالي
ميل في أواسط فلسطين ومرت ملايين السنين ورواسب الجرف ترتفع

(*) الأحقاب الجيولوجية خمسة هي الآتية مبتدئين بأقدمها :

- ١ — حقب الحياة العتيقة (الأركيوزوي) ومداه حوالي ٥٠٠ مليون سنة
وهو أقدم قسمي دهر الحياة الخفية (Cryptozoic Eon) •
- ٢ — حقب طلائع الاحياء البروتروزوي ومداه حوالي ٥٠٠ مليون سنة
وهو أحدث قسمي الحياة الخفية •
- ٣ — حقب الحياة القديمة (اليايوزوي) ومداه نحو ٣٠٠ سنة وهو
أقدم الأقسام لدهر الحياة الظاهرة (Phanerozoic Eon) ويشمل
سنة عصور هي مبتدئين بأقدمها :

Cambrian Epoch	(أ) العصر الكمبري
Ordovician Epoch	(ب) العصر الأردوفيس
Silurian Epoch	(ج) العصر السيلوري
Devonian Epoch	(د) العصر الديفوني
Carboniferous Epoch	(هـ) العصر الكربوني
Permian Epoch	(و) العصر البرمي

- ٤ — حقب الحياة الوسطى (الميزوزوي) ومداه نحو ١٣٠ مليون سنة
وهو أواسط الأقسام الثلاثة لدهر الحياة الظاهرة ويشمل ثلاثة
عصور هي :

Triassic Epoch	(أ) العصر الثلاثي
Jurassic Epoch	(ب) العصر الجوراي
Cretaceous Epoch	(ج) العصر الطباشيري

ببطء في قاع البحر + ثم ، منذ أكثر من خمسين مليون سنة ، بدأ حقب الحياة الحديثة، وقبل أن تنقضي ملايين كثيرة من السنين ارتفعت أرض فلسطين عن مستوى البحر ، وبعد تأرجح كثير ، وصلت الى حدودها الحالية على وجه التقريب + وفي ذلك الوقت لم يوجد وادي الأردن أو بحر ميت وكانت مستويات الارض مختلفة جدا عما هي عليه الآن + ولم تبلغ الحركات التكتونية في القشرة الارضية نهايتها القصوى الا منذ أقل من مليوني سنة في الشق الارضي الكبير الذي يعرف في شكله المتحور الحالي باسم وادي الاردن + وظهور هذا الشق الشمالي كان مصحوبا بارتفاعات في الرواسب الصخرية التي كونت تلال فلسطين الغربية +

وطبقا للمنحنيات البيانية التي أوردها ميلانكوفيتش — كوبن — زوينر والتي تبين العلاقة بين اشعاع الشمس ومراحل عصر البليستوسين ، بدأ هذا العصر الجيولوجي ، وهو الذي تنتمي اليه كل الاثار التي امكن التعرف عليها حتى الان من مستحجرات الانسان وآلاته ، منذ أقل من مليون سنة + وقد تميز عصر البليستوسين بأربع مراحل بارده رطبة تفصلها ثلاث مراحل دافئة جافة + وتسمى المراحل الباردة بالعصور الجليدية « في خطوط العرض الشمالية » ، وتسمى « بالعصور المطيرة » في خط عرض فلسطين حيث لم يتكون الجليد بل كان هناك بدلا من ذلك هطول امطار غزيرة متزايدة + وتبعيا للمصطلحات الجيولوجية لمنطقة جبال الالب تسمى العصور الجليدية جيفتر ، ميندل ، ريس ، فيرم ، بنفس ترتيبها الابجدي في الابجدية الالمانية وترتيبها التاريخي ،

ه — حقب الحياة الحديثة (الكاينوزوي) ومداه نحو ٧٠ مليون سنة وهو احدث الأقسام الثلاثة لدهر الحياة الظاهرة . وينقسم الى سبعة عصور هي :

Palaeocene Epoch	(أ) الباليوسين
Eocene Epoch	(ب) الايوسين
Oligocene Epoch	(ج) الاوليجوسين
Miocene Epoch	(د) عصر الميوسين
Pliocene Epoch	(هـ) عصر البليوسين
Pleistocene Epoch	(و) عصر البليستوسين
Holocene Epoch	(ز) عصر الهولوسين
(المترجمان)	

بينما تسمى العصور بين الجليدية بأسماء جينتز — ميندل ، وميندل — ريس ، ريس — فيرم ، ولم توجد حتى الآن مصطلحات مناسبة للمراحل المطيرة والمراحل بين المطيرة لمناطق خطوط العرض الجنوبية . والموضوع كله معقد جدا بسبب حدوث كثير من التقلبات في العصر الجليدي . ففي أوروبا ، اذ كانت ثمة مراحل متعاقبة في كل عصر جليدي ، بمعنى أن يتحدث الجيولوجيون عن مرحلتين في عصر جينتز وثلاث مراحل في عصر فيرم ، وهكذا . أما في العصور المطيرة في فلسطين حيث لم يكن هناك جليد ، فربما كانت الدورات الجوية وتغيراتها أكثر تعقيدا وطبقا لنظرية زوبنز في التاريخ الجيولوجي انتهى عصر جينتز الجليدي منذ أقل من ٥٥٠٠٠٠ سنة بقليل ، ولذلك فإنه حتى اذا افترضنا أنه كان اقصر من ذلك بكثير فإن نهايته لا يمكن أن تكون منذ أقل من نصف مليون سنة بكثير . وفي خلال العصور المطيرة كانت هناك بحيرة كبيرة أو خليج ممتد من البحر المتوسط في وادي الاردن ، وفي العصور بين المطيرة انقطع الاتصال البحري وانكشفت البحيرة الى حجم صغير مثل حجم البحر الميت في الوقت الحاضر . ويوما ما ، عندما تدرس المدرجات الرملية في وادي الاردن دراسة تفصيلية ، فإنه سيمنك اثبات أو تصحيح نتائج التأريخ بالأشعاع الشمسي ، وذلك بتقدير العدد الصحيح للرقائق السنوية في هذه المدرجات . وفي أحد التقديرات ، حسبت المدة اللازمة لترسيب أسمك هذه المدرجات ، وهو مدرج ليزان بأربعين ألف سنة .

غير أن التقدم في التاريخ بالكربون المشع (ص ٢٦ قد أثبت في نفس الوقت أن العصر الجليدي الأخير (فيرم — وسكونسين) قد انتهى منذ حوالي ١١٠٠٠ سنة وأنه بدأ منذ حوالي ستين ألف سنة (أو حتى أقل) وبذلك يخفض نتائج التأريخ الشمسي الى النصف . وقد تأرجحت الآراء بخصوص تأريخ أقدم آلات محددة تحديدا جيدا (من العصر الابفيلي) بما بين العصر البين جليدي الثالث والعصر البين جليدي الأول . ويميل الرأي السائد الى ترجيح تأريخه بالعصر البين جليدي الثاني . والى أن يحدث تقدم محسوس في ايجاد علاقة بين مدرجات الانهار ومراقده الجداول (الحصباء) في غرب أوروبا ، وبين صخور الأنهار الجليدية في الالب ، فإنه من غير المحتمل أن يستقر التأريخ الجيولوجي على رأي . والى أن يتم ذلك فإننا قد نقبل مؤقتا تأريخ هذه الآلات بعصر

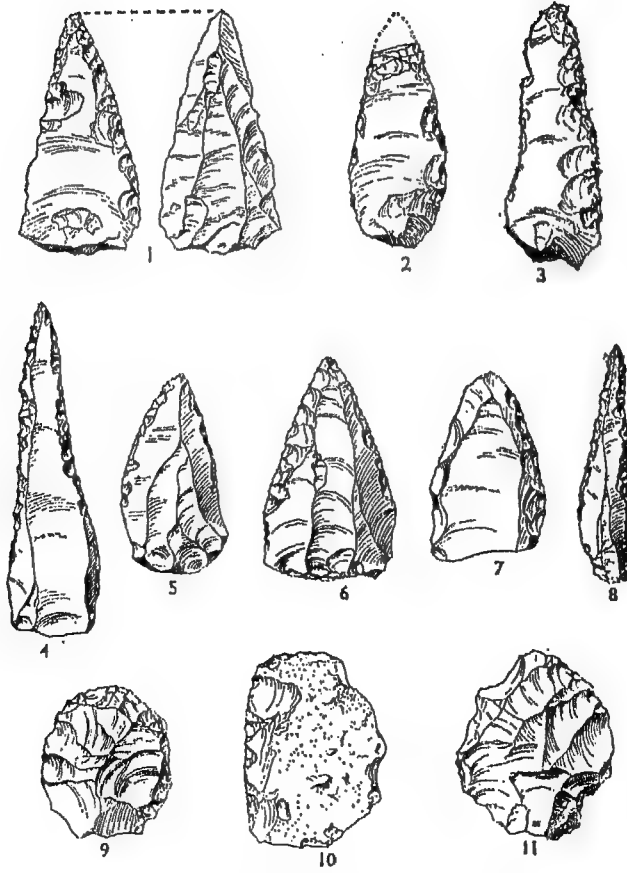
جيينتنز - ميندل ، الذى تنتمى اليه العصور الفرنسية الالبفيلى والشيلى وأقدم مراحل الاشولى التى وجدت كلها تقريبا فى مدرجات الانهار وفى مراكز مكشوفة ، ولم توجد أول مخلفات كهفية الا فى العصر الاشولى المتأخر ، ويعنى هذا أن الظروف الجوية قد أصبحت فى ذلك الوقت غير هلائمة لدرجة ان احتفى الناس فى الكهوف ، وسرعان ما بدأوا يعيشون فيها بصفة منتظمة ، خصوصا خلال الفترة القاسية البرودة من السنة . وفى فلسطين نجد نفس الحال تماما ففى مراكز الاقامة المكشوفة نجد فؤوسا يدوية ذات اشكال خاصة بالعصر الشيلى أو الاشولى القديم ولم توجد المخلفات الكهفية الا فى المراحل الاخيرة للعصر الاشولى .

واقدم صناعة للصوان فى الكهوف التى كشف عنها كل من مس جارود ونيفى تماثل تماما تلك التى وجدت فى تايا الفرنسية . واعتبت هذه الصناعة فى الكهوف الفلسطينية عدة مراحل للحضارة الاشولية ، وكان أقدمها مختلطا بحيوانات مميزة للجو الاستوائى الرطب . وهذه الفترة تقابل على وجه التقريب عصر ريس الجليدى الذى اركه زوينر بمنذ حوالى ٢٣٠٠٠٠ - ١٨٠٠٠٠ سنة ، ولكنه قد يكون أحدث من هذا التأريخ بكثير . وبعد هذه المرحلة الاشولية الرطبة جاءت عدة مراحل أخرى من نفس الحضارة كان الجو يميل اثناءها الى التحول الى ظروف أكثر جفافا فى العصر البين مطير الذى يقابل تقريبا عصر ريس - فيرم البين جليدى ، وبانتهاء هذه المرحلة وصل العصر الحجرى القديم الاسفل الى نهايته . ولسنا نعلم حتى الان ماهية الجنس الفرعى للانسان الذى قام بصنع هذه الالات والاسلحة ، وهى التى أمكنه بواسطتها الابقاء على حياته ووجوده فى صراعه ضد الوحوش المهولة من خرائيت وجواميس النهر والفيلة وثيران الكهوف التى وجدت عظامها فى نفس المنسوب الارضى .

وتتنمى الى العصر الحجرى القديم الاوسط مجموعة من الحضارات الصوانية التى وجدت فى عدد من الكهوف التى كشف عنها فى جهات

مختلفة من فلسطين ، ويشبه بعضها بعضا تشابها كبيرا (شكل ٧) .
وتتشابه هذه الحضارات مع الحضارتين الموستيرية والفلوآزية
الفرنسيتين ولكنها لا تطابق أيأ منهما تماما ، ولذلك فقد أطلق عليها
المكتشفون اسم لفلوآزي - موستيري (شكل ١) . وفي هذا العصر
حلت الادوات المصنوعة من الشظايا محل الفؤوس اليدوية ، وحدث تقدم
غير عادي في المهارة الفنية في التشظية . وكان الجو في العصر
الفلوآزي-الموستيري المبكر جافا دافئا ، وكانت ثمة مستنقعات واسعة
(لا أنهار) حيث ترعرعت التماسيح ، وفي رواسب متأخرة عن هذا
الوقت بقليل (أرخت أولا بما بين ١٥٠٠٠٠ و ١٢٠٠٠٠ سنة ، ولكنها
مؤرخة حاليا بما بين ٥٠٠٠٠ و ٤٠٠٠٠ سنة تقريبا) ، وجدت الانسة
جارود وماك كاون عددا من مستحجرات الهياكل البشرية ، ثم
وجد نيفي بعد ذلك بعضا آخر منها في الجليل . ولدهشة العلماء ،
ثبت أن انسان الكرمل يمثل سلالة مختلطة وسطا بين الانسان
القديم (انسان نياندرثال) *Homo neanderthalensis* والانسان
العاقل *Homo sapiens* ويوضح عدة مراحل للتطور بين هاتين السلالتين .

ونظرا للمصافات النياندرثالية الصرفة للعديد من الهياكل الموستيرية
التي وجدت حتى الان في أوروبا يمكن تفسير هذا الخليط من الاجناس
فقط بأن فلسطين كانت قنطرة بين القارات ، حيث نتوقع بدهاء وجود
خليط من السلالات . ويظهر ان الانسان العاقل (هومو سابينز) قد
رحل من الجنوب الشرقي الى أوروبا دافعا أمامه انسان نياندرثال ،
ومتزاوجا في نفس الوقت مع هذا العدو المقهور . وكان من نتائج هذا
الكشف تأييد علماء الوراثة الذين يصرون على أنه من
الخطأ اعتبار الانواع المختلفة لانسان ما قبل التاريخ أجناسا مختلفة .
ولما كان من الواضح الان أن هذه الانواع قد تزاوجت فيما بينها ، فانها
كانت على أكثر تقدير فروعاً لجنس واحد هو جنس الانسان . وليس
ثمة مكان في العلم لتفاخر جنس أو سلالة على جنس آخر .
ومع ذلك ، فعندما قال فرانز فيدنرايخ على سبيل المزاح ، في
مؤتمر العلماء الانثروبولوجيا الطبيعية (علم الاجناس البشرية) في
كوبنهاجن قبل الحرب العالمية الثانية مباشرة ، أنه يبدو أن الانسان
العاقل قد جاء من فلسطين الى شمال أوروبا ، ثار مندوب النازي وخرج
من غرفة الاجتماع .



شكل (١) أدوات مصنوعة من الصوان
من العصر اللفلوازي - الموستيري الاسفل
(نقلا عن دورثي جارود)

وقد استمرت الحضارة اللفلوازية-الموستيرية حتى فترة باردة رطبة ، من المؤكد أنها تتفق مع آخر عصر جليدي في أوروبا هو عصر الفيرم • وفي خلال هذه الفترة حلت محل هذه الحضارة ، الحضارة الاوربانييسية ، وهي احدى حضارات العصر الحجري القديم الاعلى • وفي هذه الاثناء مرت فلسطين بتغيرات جوية عنيفة خلال ثلاث مراحل متعاقبة من مراحل عصر الفيرم ، تؤرخ حاليا بما بين ٦٠٠٠٠ و ١١٠٠٠ سنة • وكانت الحضارة الاوربانييسية أغنى كثيرا في أشكال آلاتها الصوانية من الحضارة الموستيرية • ومن الجزء الاخير للحضارة الاوربانييسية الاوربية وجدت في الكهوف صور ملونة مدهشة لوحوش ما قبل التاريخ التي استمرت حتى فترة الحضارة المادلينية في نهاية

العصر الحجري القديم الاوربي • ولم يكشف في فلسطين أو في الاراضى المجاورة لها عن أى شئ مشابه لصور الكهوف هذه ، ولهذا فإنه لا يمكن الحكم عما اذا كان عدم ظهورها هو عن طريق الصدفة أم هناك تفسير آخر • وكان من المعتقد الى حين أنه كان يوجد افريز من حيوانات ما قبل التاريخ في أم القطافة ، غير أنه اتضح أن ذلك كان خداع بصر ، ارضاء لاعتقاد الجيولوجيين الذين كانوا مهتمين بدراسة توزيع الوحوش من مختلف العصور والاجواء •

ولم تستطع فترة الحضارة الاوربانية في فلسطين مثلما استطالت هذه الفترة في أوروبا • وربما قبل أن تحل الحضارة السوليتيرية محل الحضارة الاوربانية في أوروبا بوقت طويل ، حلت محل حضارة العصر الاورباني الاوسط بفلسطين حضارة صوانية أقل تطورا منها وهى التى سميتها مس جارود « اثليتيه » ، ولها صفات كثيرة مشتركة مع حضارة العصر الاورباني الاعلى في أوروبا • وكان معظم علماء ما قبل التاريخ يعتقدون من قبل أنه كانت توجد فجوة متسعة من الوقت بين العصر الاورباني في فلسطين وبين المراحل العلوية للعصر الحجري المتوسط (التى عرفت من المكتشفات السطحية التى عثر عليها الاب جيرمر — ديران وآخرون) ، وهى الحضارات التى كانوا يتوقعون أن يجدوا منها آثارا تشبه آثار الحضارة السوليتيرية والمادالينية الاوربيتين • غير أن هذه الفجوة قد ملئت بسرعة فى السنوات السابقة للحرب العالمية الثانية ، ومع ذلك لم يعثر حتى الان على آثار تشبه آثار هاتين الحضارتين الاوربيتين ، وتفسير ذلك ببساطة ، أن الحضارة المادالينية في فلسطين كانت مختلفة عما كانت عليه في أوروبا خلال هذين العصرين ، ولم تتلاق الحضارة في كلا المكانين مرة أخرى الا بعد هذين العصرين بكثير • ويمدنا الان التأريخ بالكربون المشع بتسلسل أدق كثيرا لتواريخ هذا العصر (الاورباني) تؤيد الادلة المستمدة من التتابع السنوى لطبقات التربة وهى الطريقة الاسكنديناويه للتأريخ Scandinavian Varves التى كانت معروفة من قبل طريقة التأريخ بالكربون المشع ولكن لم يعرفها أحد اهتماما كبيرا • وبناء على ذلك لابد وأن يؤرخ العصر الاورباني في فلسطين بما يقابل الجزء الاخير من عصر الفيرم الجليدى بأوروبا أى منذ ٣٥٠٠٠ الى ١٥٠٠٠ سنة • ويرجح كثيرا أن الحضارة كانت فيه أكثر تقدما عما كانت عليه في العصر

الاوربانييسى الاوربى ، اذ ربما كانت فلسطين أقرب الى مركز الاشعاع الحضارى .

وقد استكملت تدريجيا حلقات التطور فى فترات ما بعد العصر الحجرى القديم Epi Palaeolithic أو أوائل العصر الحجرى المتوسط (الميزوليثى) فى فلسطين ، ولو أن عدم نشر دراسات مفصلة عن المكتشفات يجعل من الصعب علينا أن نكون متأكدين من الاسس التى نرتكز عليها . ويذكر نيفى أنه عثر فى مغارة الخيام G. - F. على صناعة يبدو أنها كانت وسطا بين الحضارة التليثية والحضارة القفصية المعاصرة لها فى شمال افريقية ، وهو ييوبا بصفة قاطعة مع الحضارة القفصية ، ويعتبر أنها لم تعد بعد تابعة للعصر الحجرى القديم . ثم تأتى بعد ذلك حضارة كباران التى كشف عنها تورفى - بيتر واستمرت هذه الحضارة فى صناعة الآلات الصوانية الدقيقة الحجم (ميكروليثية) التى تتميز بها الحضارة القفصية Capsian ، بل واستمرت فى تحسينها وتطويرها . ويمكن تأريخ هذه الصناعات بما بين ١٢٠٠٠ و ٩٠٠٠ ق.م. تقريبا ، ومن المحتمل أنها كانت تعاصر الحضارتين المادلينية والازيلية الاوربيتين . ويبدو أنه حدث بعد ذوبان آخر جليد فى أوربا بوقت قصير ، أن ظهرت الحضارة التى يتميز بها العصر الحجرى المتوسط فى فلسطين وهى التى أطلقت عليها مس جارود اسم الحضارة النطوفية . ولما كانت الآلات الهلالية المميزة للحضارة النطوفية قد ظهرت أيضا فى حضارة العصر الحجرى المتوسط فى أوربا (التارد نوازية) ، بل وظهرت أيضا على وجه أخص فى العصر الحجرى المتوسط بجنوب افريقيا ، فإنه لا يزال من المتعذر جدا معرفة مصدرها الاصلى . ووجدت حضارة تطابقها تماما فى حلوان جنوبى القاهرة ، كما وجدت بعثة جامعة كاليفورنيا سنة ١٩٤٧ مركزا حضاريا مماثلا لها فى شبه جزيرة سينا على بعد سبعين ميلا شرقى الاسماعيلية . وكانت الحضارة النطوفية الفلسطينية حضارة ميكروليثية بالمعنى الصحيح تتكون من نصال صوانية وآلات مديبة وأخصها ما يسمى بالنصل القمرى Lunar ، وهو نصل هلالى أو على شكل قوس ربما استخدم كراس لسهام من البوص ، وبالإضافة الى ذلك توجد بها أيضا كثير من مناقيش ذات أطراف مديبة . ومن أهم الآلات الصوانية الكبيرة الحجم فى هذه الحضارة ، نصال المناجل والمعاول Picks مما يدل على الحياة الزراعية فى الحضارة النطوفية ، وعلى

أنها كانت حينئذ على علم بحصد الحبوب مما استلزم استخدام مناجل بصفة منتظمة . فقد كشفت مس جارود وكذلك كشف تورفى — بيتر عن مناجل كاملة أو مكسورة من العظم ، تزين مقابض المناجل الكبيرة منها رؤوس حيوانات منحوتة ، بينما ثبتت بنصالها أسنان صغيرة من الصوان تمتد من طرف النصل الى طرفه الآخر . وبمرور الوقت حدثت تعديلات فى شكل المنجل ، غير أن نفس التكوين ظل ساريا فى فلسطين حتى بدء العصر الحديدي . وبعض الآلات التى سمتها مس جارود معاول Picks هى أقرب الى الفؤوس hoes التى استخدمت لعرق الأرض قبل بذر الحبوب ، ومن هذا يتضح أن أقدم النطوفيين الذين أمكن العثور على آثار لهم كانوا بلا شك فى أول مرحلة بدائية لحضارة الفأس hoe-culture ، ولذلك فإنهم كانوا منتجى طعام كما كانوا فى نفس الوقت جامعى طعام ، إلا أنه من جهة أخرى ليس ثمة دليل على استئناسهم لاي حيوانات فيما عدا الكلب الذى عثر على جمجمة بديةة له ، وهذا الحيوان الكاسر كان ذا حجم متوسط ويبدو أنه نشأ عن استئناس حديث نسبيا لنوع منقرض من ابن آوى .

وكان النطوفيون أنفسهم من شعوب البحر المتوسط القديمة ، التى تتميز بهيكل عظمية نحيلة ، ورؤوس مسطحة dolichocephalis ، وثقاليع دقيقة ، ومتوسط طول الرجال يزيد قليلا عن خمسة أقدام . وحيث أنه وجدت هياكل بشرية مشابهة جدا لهذه الهياكل فى حضارة البدارى فى مصر ، وكذلك من العصر النحاسى المتأخر فى جازر وجيبيل (بيلوس) ، فإنه يبدو أن هذه الشعوب انتمت الى أسلاف السلالة السامية — الحامية التى لم تكن قد أصبحت بعد منقسمة الى مجموعات متباينة بعضها عن بعض تباينا واضحا لغويا وقوميا كما حدث فيما بعد . ولعل التغير الوحيد الملحوظ فى الصفات الجسمانية حدث فى الطول غير أنه من المعروف تماما الآن أن التحسن فى التغذية لبضعة أجيال قليلة جدا تنتج عنه زيادة محسوسة فى الطول . ولما كان النطوفيون لا يزالون أساسيا جامعى طعام بالرغم من اكتشافهم للزراعة ، فإننا لن نعدو الحقيقة اذا ما فرضنا أن معظم طعامهم كان من صيد البحر وصيد البر ، لكن صيد السمك بالحرايب وقنص الغزلان بالاستعانة بكلاب الصيد لم يكونا لينتجا طعاما بصفة منتظمة تماما يكفى لشعب يتزايد بسرعة . وكان النطوفيون فى ذلك الحين على دراية تامة بالاعراض الرئيسية التى استخدم فيها

العظم فى العصور القديمة التالية لهم ، اذ كانت لديهم منه دبابيس ومخارز ودلايات وخرز وغير ذلك ، وقد أشرنا فيما سبق الى مناجلهم الشهيرة ذات المقابض المنحوتة من العظم ، ويمثل أحد هذه المقابض حيوانا صغيرا • ووجدت من هذه الحضارة أيضا ، أهوان وأيادى أهوان من الحجر ، ومن الواضح أنها استخدمت ولو جزئيا على الاقل ، فى تجهيز الحبوب •

وقد أظهرت التنقيبات التى أجراها جان برو فى عينان بالقرب من بحيرة الحولة سنة ١٩٥٦ ، أن رجال العصر النطوفى المبكر كانوا فى ذلك الحين يشيّدون منازل أساساتها وأرضياتها من الحجر ، وأصبحت لهم تقاليد محكمة فى الدفن وتزويد المقبرة بالاثاث الجنائزى ، وكشفت كاثلين كينيون عن بقايا مماثلة أيضا تحت مناسيب العصر الحجري الحديث فى أريحا ، وقد أرخت هذه البقايا بطريقة الكربون المشع بحوالى ٧٨٠٠ ق • م • وحيث أن أقدم تاريخ لفترة ما قبل الفخار تقع بعد ذلك بحوالى ألف سنة ، فإنه يمكن تأريخ مناسيب العصر النطوفى الأعلى التى ذكرها نيفى بناء على دراسته للكهوف ، بالالف السابعة قبل الميلاد • وفى هذا التاريخ يأتى أيضا عصر ما قبل الحجري الحديث Proto Neolithic الذى ذكرته مس كينيون والذى يتشابه مع حضارة العصر النطوفى المبكر أكثر مما يتشابه مع الحضارة الطاحونية •

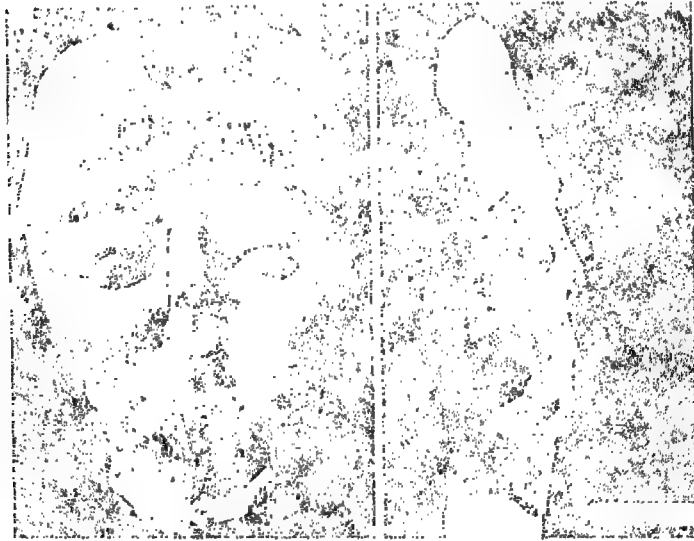
وقد تلا هذا العصر ، عصر ما قبل الفخار فى العصر الحجري الحديث الذى يمثل مرحلة جديدة تماما من الحضارة لم تكن معروفة قبل أن يكشف عنها جارستانج لأول مرة فى أريحا عام ١٩٣٥ ، ولم يعترف بها بصفة عامة الا بعد الكشوفات المثيرة التى قامت بها مس كينيون بعد ذلك بعشرين سنة • وقد ثبت أن أريحا كانت خلال معظم الالف السابعة والالف السادسة قبل الميلاد جيدة البناء ، ومحاطة بأسوار من الحجر ، وفيها أمكن تمييز مرحلتين من مراحل حضارة ما قبل الفخار فى العصر الحجري الحديث ، لاشك أن كل مرحلة منهما قد استمرت عدة قرون • وتميزت أولاها بقوالب من اللبن على شكل ظهور الخنازير hog-back brichs ، وتميزت الثانية بأرضيات متتابعة من الملاط لا يقل عددها عن أربع عشرة طبقة فى بقعة واحدة • وقدر عمر الطبقات المتتابعة بطريقة الكربون المشع مرات عدة ، ويبدو من

النتائج أن الطبقة الثانية قد هجرت في أواسط الألف السادسة •
ولما كانت أوروبا لم تنزل في العصر الحجري المتوسط خلال معظم فترة
ما قبل الفخار في أريحا ، فاننا لابد وأن نسلّم بأن أوروبا كانت متأخرة
كثيرا جدا عن فلسطين في ذلك الحين •

وأريحا هي أول مركز لحضارة ما قبل الفخار في العصر الحجري
الحديث ، له صفات مدنية تم للكشف عنه في العالم القديم ، غير أنه
مما لا شك فيه أن كانت هناك حضارات مماثلة منتشرة انتشارا واسعا في
كل من الشرقيين الأدنى والأوسط فيما بين ٧٠٠٠ و ٥٠٠٠ ق • م •
وقد حددت مواقع عدد من قرى ما قبل الفخار في شمال شرقي العراق ،
وكشف بريد وود R.J. Braid Wool عن أحد هذه المواقع وهو قلعة
جارمو ، كما حددت أماكن مواقع مماثلة على طول الطريق من باكستان
الى تساليا . كما أن خيروكيتا في قبرص هي أيضا موقع لحضارة ما
قبل الفخار في العصر الحجري الحديث ، ولابد أن يكون تاريخه أقدم
من التاريخ الذي حدده له المكتشف ، وهو حوالي ٣٧٠٠ —
٣٤٠٠ ق • م • بما لا يقل عن ألف سنة • وفي معظم الأماكن ، يبدو
أن حضارة ما قبل الفخار في العصر الحجري الحديث ، تقع على عمق
كبير مطمورة تحت غرين وديان الانهار ، لكن في أريحا تقع منطقة السكنى
خارج المنطقة الزراعية التي تروىها مياه عين السلطان ، ولذا كان من
الممكن حفرها حتى مرقد المرل (الطين أو الرمل الطينى حينما
يكون مشوبا بكميات الكلسيوم) دون الوصول الى المياه الأرضية •

وفي أريحا نجد أقدم بيوت ومعابد مستديرة معروفة لنا حتى الآن ،
جدرانها من جواليص الطين أو من الطوب اللبن المستدير الصغير
الحجم • واحتوى المعبد على بوابة كانت في الأصل محمولة على ستة
أعمدة خشبية ، وغرفة أمامية متسعة وحجرة داخلية كبيرة • وفي هذا
المبنى وحوله لم توجد المستلزمات المنزلية العادية ، بل وجد بدلا منها
كثير من التماثيل الصغيرة لحيوانات مثل الغنم والماشية الكبيرة والماعز
والخنازير ، كما وجدت أيضا نماذج من المرل لأعضاء التذكير وغيرها •
ونذكر بهذه المناسبة ، أنه وجد من الحضارة النطوفية في مغارة الواد
عضو تذكير من الصوان المنحوت نحنا جيدا ، ولذلك فقد كانت عبادة عضو
التذكير معروفة من قبل في فلسطين •

وكان أهم ما عثر عليه من مرحلة ما قبل الفخار في العصر الحجري الحديث في أريحا ، تماثيل بشرية من المرل يبدو أنها كانت على شكل مجموعات ، تتكون كل مجموعة منها من رجل وامرأة وطفل * وقد صنعت هذه التماثيل بتليبسيس الحوارة (مرل جيري محلى) على تصليبه من البوص التي تكون نوعا من الهيكل الداخلى ، وكانت نسب تشكيل أجزاء الجسم فيها عادية ، ويبلغ حجمها ثلثي الحجم الطبيعي في الطول والعرض ، لكنها رقيقة جدا في السمك * والامثلة المنتشرة من هذه التماثيل ليس لها نظير معروف من العصور الاقدم منها او الاحدث (شكل ٢) *



شكل ٢ تماثيل من المرل من مرحلة ما قبل الفخار في العصر الحجري الحديث في أريحا

وتنتشر في فلسطين ، وخصوصا في شرق الأردن ، حقول دولن عديدة كبيرة وصغيرة * والدولن (١) من الكلمات القديمة التي تعنى « حجر » أو « مائدة » مبنى يتألف أساسيا من قطع ضخمة من الحجر

(١) الدولن dolmen اسم أطلقه الفرنسيون على مسكن الانسان في عصر ما قبل التاريخ ويتكون من قطعتين أو أكثر من الاحجار القائمة تحمل فوقها قطعة أخرى مسطحة لتكون بمثابة السقف .

مقامة بعضها بجوار بعض لتكوين جدران غرفة أو ممر أو مجموعة من الغرف ، ثم وضعت فوقها قطع ضخمة أخرى لتكوين السقف • وكان كل المبنى في الغالب مطمورا في كومة من التراب أو الحجارة • وبالإضافة الى هذه المباني ، توجد أيضا صفوف من أحجار مرتفعة ضخمة : منهيرات (٢) ودوائر حجرية (٣) وغير ذلك • كما كشف عن تحصينات ضخمة قليلة لها نفس الاسلوب في البناء • والصفة المميزة لكل الانشاءات من هذا النوع التي تمت دراستها حتى الان ، هي عدم وجود فخار بها ، كاملا أو على هيئة شقف ، على أنه عثر على أوان قليلة من عصور تاريخية متأخرة وعلى بعض قطع من الشقف الحديث نسبيا في دولينات مفتوحة أو بالقرب منها • وتوجد انشاءات ميجاليتية (أى مشيدة بأحجار ضخمة) الجزء الرئيسي منها من الدولينات ، في بقاع كثيرة في أوراسيا (أوروبا وآسيا) ، ويمكن تأريخ ما يقع منها في الشمال الغربي لأوروبا بما بين الألف الخامسة والألف الثالثة مينا قد يرجع تاريخ المعابد الميجاليتية ، مثل ستون هينج Stonehenge إلى الألف الثانية قبل الميلاد • وحيث أن دولينات فلسطين تتفق في الشكل أو النمط مع دولينات العصر الحجري الحديث أكثر مما تتفق مع دولينات العصر البرونزي في أوروبا ، فانه يمكن تأريخها بلا تردد بالعصر الحجري الحديث الفلسطيني ، أي فيما بين ٧٠٠٠ و ٤٠٠٠ (وربما ٤٥٠٠) ق م • ومن المؤكد أن هذه الدولينات قد بنيت على نمط المنازل التي عاش فيها الناس ، وقد تردد هذا القول بين الحين والآخر ، غير أنه يمكن الان اثبات ذلك بحيث أصبح بعيدا عن كل شك بفضل التنقيب الذي قام به ويشتر J. d'A. Waechter وسيتون ويليامز V. A. Seton Williams في وادي دوباى جنوب شرقى عمان (١٩٣٧ - ١٩٣٨) ، فقد وجدت هناك أدوات حجرية مثل تلك التي وجدت من الحضارة الطاحونية في فترة ما قبل الفخار في أريحا

(٢) منهير menhir كلمة اطلقها اهل ويلز على قطعة ضخمة من الحجر تقام على هيئة اثر وتتركب الكلمة من men بمعنى حجر ، hir بمعنى ضخم أو طويل لغرض ديني •

(٣) الدوائر الحجرية Stone-circles تطلق على مجموعة من الاحجار السابقة المرصوة على شكل دائرة لاغراض دينية •

(المترجم)

ومعها أكوخ مشيدة بوضع قطع من الحجر الجيري على الحافة لتكوين أشكال دائرية تقريبا . وعلاوة على ذلك ، كشف جارستانج عام ١٩٤٧ ، فى مناسب فترة مابعد الفخار فى العصر الحجري الحديث بمرسين فى كيليكية عن مبان « ميجاليثية » شيدت بوضع كتل ثقيلة من الحجر جنباً الى جنب ثم وضع كتل أخرى فوقها لتكوين الجدران . وشيدت بهذه الطريقة كل من الغرف والممرات ، وقد يزن الحجر الواحد عدة أطنان . وإذا كانت ثمة حاجة الى مزيد من الأدلة لتأييد التاريخ المبكر للدولينات الفلسطينية ، فانه من السهل ايرادها : وعلى سبيل المثال ، لا يمكن أن يكون قد تم بطريق الصدفة حفر مقابر الغسولين (التى كشف عنها ستكليس Stekelis) فى الارض ، وتبطينها بالاحجار ، ثم تغطيتها بقطع صغيرة . وهذا الاسلوب فى البناء يشبه فى جوهره المبانى الميجاليثية ، فيما عدا أن الاحجار صغيرة ويمكن لرجل واحد ان يحملها .

وتلت فترة ما قبل الفخار فى العصر الحجري الحديث فى فلسطين فترة استخدام الفخار التابعة لنفس العصر ، وتمثلها أحسن تمثيل أريحا (٩) ، وخصوصا فى التنقيبات التى أجراها ستكليس فى وادى اليرموك حيث عثر على بقايا هامة جدا من حضارة شعار هاجولان اليرموكية التى يرجع تاريخها الى أواسط الالف الخامسة . والفخار مزين فى الغالب بزخارف على شكل العمود الفقرى للسبك ، كما وجدت بعض كميات من تماثيل حجرية منحوتة نحتا خشنا .

الفصل الرابع

فلسطين في العصر الكالكوليثي والعصر البرونزي المبكر

نستمد معظم معلوماتنا عن العصر الكالكوليثي في فلسطين من التنقيبات التي قام بها الابهاء اليسوعيون في طليلات الغسول فيما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨ التي سبق ذكرها (ص ٥٢) . حقيقة كان هناك تضارب في الرأي بين علماء الآثار بالنسبة لتاريخ هذه الحضارة ، غير أنه قد تم الوصول الى رأى حاسم بالنسبة لهذا الامر قبل بدء الحرب العالمية الثانية بفضل عدة اكتشافات لفخار غسولى تحت المناسيب الخاصة بالعصر الكالكوليثي المتأخر والعصر البرونزي المبكر . ويمكننا الآن تقسيم العصر الكالكوليثي الى ثلاثة مراحل رئيسية هي : العصر الكالكوليثي المبكر (ويشمل بصفة خاصة أريحا (٨) وعدة مواقع في وادي غزة في الطرف الجنوبي لفلسطين) ، والعصر الكالكوليثي المتوسط (الغسولى) ، والعصر الكالكوليثي المتأخر (ويشمل على الاخص عزدرايلون والطبقة الخاصة بهذا العصر فى بيرشيبيا) . الا أنه لا يزال غير معروف على وجه التحديد أين يقع الحد الفاصل بين العصر الحجري الحديث والعصر الكالكوليثي المبكر ، كما أن هناك اسبابا معقولة لمعارضة الرأى السائد الآن بامتداد العصر البرونزي المبكر حتى يشمل القرن الاخير أو القرنين الاخيرين للالف الثالثة قبل الميلاد . وثمة أيضا اعتراضات على الاسم كالكوليثي الذى يعنى « نحاس (أو برونز) - و - حجر » ، والواقع أن حجر الصوان استمر استخدامه لصنع السكاكين حتى نهاية الالف الثالثة ، واستمر صنع حواف المنجل من قطع الصوان حتى أوائل عصر الحديد . ويميل بعض العلماء الى الاعتقاد بأن النحاس كان معروفا فى أوائل العصر الحجري الحديث نفسه ، غير ان المؤلف يرى ان هذا الاعتقاد غير محتمل بالمرة ، اذ عرف النحاس لأول مرة فى غضون الالف الخامسة وربما فى حوالى ٤٥٠٠ ق.م . غير أنه أصبح بعد قرون قليلة أكثر شيوعا من الحجر وحل محله فى صنع رؤوس الفؤوس ورؤوس السهام ، واختفت الرؤوس الحجرية

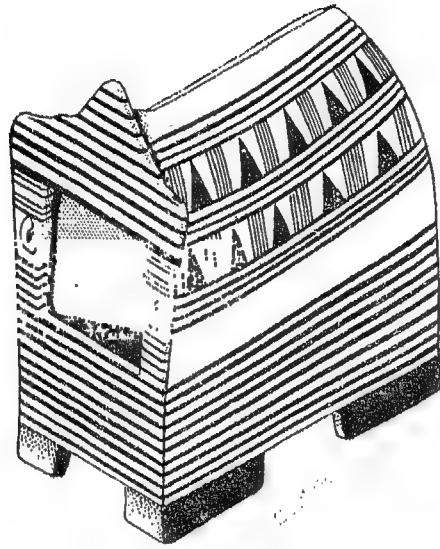
للسهام قبل العصر الغسولى ، واختفت رؤوس الفؤوس الحجرية ذوات الحواف المشطوفة طبقا لما كان متبعاً فى العصر الحجرى الحديث بعد العصر الغسولى (ولو أن رؤوس الفؤوس الحجرية المصقولة صقلا كاملا استمر استخدامها بين الحين والآخر حتى زمن متأخر فى العصر البرونزى) •

والى ان يتم الكشف عن المناسيب السفلية للتلال الاخرى بوادى النهر ، ربما يجب أن تظل أريحا (٨) معتبرة أقدم طبقة معروفة من العصر الكالكوليثى ، ويمكن تأريخها بصفة مبدئية بحوالى اواخر الالف الخامسة • وفخار هذا المنسوب يختلف اختلافاً بينا عن فخار العصر الحجرى الحديث، انسابق له فى الطبقة أريحا (٩) • ففى أريحا (٩) كان الطين يخلط بالطين لتحسين قوامه ، بينما نجد فى أريحا (٨) أن الطين قد خلط بحبيبات كبيرة وصغيرة من الحجر بدلا من التبن • والالات الصوانية فى أريحا (٨) لها نفس الطراز الخاص بالعصر الحجرى الحديث ولا تزال تشمل رؤوس سهام عديدة من الصوان • وحتى فى الطبقات السفلى من العصر الغسولى التى لم تحفر بعد ، يلاحظ أن رؤوس السهام قليلة وردية الصنع ، وعندما نصل الى المنسوبيين العلويين فى نفس هذا الموقع نجد انها قد اختفت تماما كما ذكرنا انفا • ومعظم طبقة مجدو (٢٠) ، وبعض مراكز العمران المبكرة فى غزة ، والالات الصوانية والوانى الفخارية التى كشف عنها سنكليس فى مغارة أبو عصبه ، ربما تكون كلها أيضا أمثلة من فترة ما قبل المرحلة الغسولية فى العصر الكالكوليثى • وفى ١٩٤٦ - ١٩٤٧ اكتشف دى فو R. de Vaux رواسب العصر الكالكوليثى المبكر من نفس فترة ما قبل الغسولى (هكذا ذكر) فى آخر طبقة سفلى فى تل الفرعه فى الشمال الاوسط لفلسطين •

ويمكننا تأريخ العصر الغسولى بأواسط الالف الرابعة ق.م. ويرجع تاريخ الطبقتين اللتين تم الكشف عنهما حتى الان فى غسول نفسها الى تاريخ متأخر نسبيا فى هذا العصر لكنه يقع قبل ٣٩٠٠ ق.م. ، وحضارة هذا العصر التى ربما كانت تعاصر على وجه التقريب بداية حضارة العمرة فى مصر (تأريخ تتابعى ٣٠) وأواخر حضارة حلف أو أوائل حضارة العبيد فى شمال بلاد ما بين الرافدين ، كانت متقدمة جدا فى

بعض الفواحي ، اذ عاش الغسوليون فى مساكن جيدة ، شيد بعضها بطوب من اللبن مشكل يدويا ومجفف فى الشمس ، على اساس من الحجر من نفس المنطقة ، وشيد بعضها الاخر بأكمله باللبن ، وكانت سقوفها من الخشب الذى انهار عندما دمرت هذه البلدة بسبب الحريق . وكان كثير من الجدران اللبن مغطى بصور متعددة الالوان انقذ المنقبون بعضا منها . وانه لمن الغريب حقا أن يبلغ فن الزخرفة الهندسية الملونة درجة عالية من التنسيق والابداع فى أوائل الالف الرابعة فى فلسطين وسوريا وما بين الرافدين أكثر مما بلغه بعد ذلك بالالف السنين . وان تنوع الزخارف ذات الالوان المتعددة على السطح الداخلى للوانى أو الاوعية والصحاف فى أيام حضارة تلخلف ليعد نفوسنا لاستقبال الفريسكو المركب المدهش المتعدد الالوان الذى وجد فى طليلات الغسول ويمثل نجمة ذات ثمانية فروع مدببة . وحول النجمة توجد أجزاء من خلفية معقدة للصورة ، تحوى رسوما دقيقة لحيوانات خرافية وأشكال هندسية . وثمة لوحة ملونة أخرى محفوظة حفظا جيدا ، تمثل طائرا ملونا يحاكي الطبيعة فى كل تفاصيله حتى أنه لا يمكن أن يوجد لها مثل فى العصور المبكرة التالية فيما عدا مصر . وهناك أيضا لوحة أخرى ملونة ولكنها تالفة ، يبدو أنها تصور حفل استقبال من نوع ما ويظهر فيها رجل يواجه اليمين بينما يجلس أمامه شخصان يضع كل منهما قدميه على موطئ للقدمين ذى اربعة أرجل ، تماما كما صور فى العصور المتأخرة ، ولما كان أول هذين الشخصين يلبس حذاء مطرزا فلعله يمثل سيده من طبقة الاشراف أو الهة . ولم يمكن التعرف حتى الان على مبنى يمكن أن يكون معبدا . وقد قام ستكليس بالتنقيب الجزئى لجبانة غسول ، وقد حوت أضرحة تبطنها من الداخل وتكسوها من الخارج حجارة يذكرنا شكلها وموضوعها بالدولينات الميجاليثية (التى سبق ذكرها) ولو أنها اصغر منها بكثير جدا .

وفى سنة ١٩٣٤ كشف سوكنيك Sukenik عن مدفن على شكل كهف بالقرب من الخضيرية فى سهل شارون ، وعثر فيه على صناديق من الطين ، وفخار ، وعدد من صناديق ملونة من الطين مشكلة على هيئة بيوت (شكل ٣) . وقد استخدم هذان النوعان من الصناديق لحفظ عظام الموتى بعد فناء لحومهم . وكان الفخار يماثل الفخار الغسولى تماثلا كبيرا . والصناديق (أو المقابر) التى تشبه البيوت تركز على



شكل ٣ . مدفن من الطين مشكل على هيئة بيت
من العصر الكالكوليثي . من الخضيرة

أربعة أرجل مثل تواييت حفظ رماد الموتى في المانيا في العصر البرونزي التي تتشابه معها أيضا في بعض ملامح أخرى . ومع ذلك ، كانت المساكن المستطيلة ذات الأعمدة التي لها سقوف مسنمة (سقوف جملون) وأبواب مضلعة ، شائعة في مختلف المناطق والعصور ، ولذلك ليس من الصواب إيجاد علاقة مباشرة بينها وبين طراز الصناديق التي تشبه هذه البيوت . ولا شك أن شارون كانت في أوائل الألف الرابعة ، كما كانت أيضا في العصر النطوفى الأقدم كثيرا من هذا التاريخ ، منطقة كثيرة المستنقعات جدا ، ولذلك لم تكن ملائمة لهذا الطراز من المساكن الذي كان ملائما جدا للسكنى في الوادى الجاف شمالى البحر الميت . ولعله يكون من المفيد أن نعرف بالضبط ماهية التغيرات الجوية التي أدت الى هجر مواقع مثل غسول التي تقع بعيدا في سهل الاردن حيث كان يتعذر رى الارض دون بذل جهود جبارة . ويبدو مؤكدا ان كانت هنالك جداول مياه جانبية تفيض في نهر الأردن أكثر عددا مما يفيض فيه الآن ، كما وأنها كانت تفيض فيه وقتنا أطول كل عام قبل أن تجف . وبعد هذا العصر نجد أن مراكز العمران في وادى الاردن تكاد تكون دائما قاصرة على مداخل الوديان بالقرب من جداول وينابيع المياه الدائمة التي لا تزال مصادر المياه الدائمة في المنطقة حتى الآن . ومن

الغريب جدا أن أريحا التي تتمتع بمصادر غنية بالمياه قد بقيت ، على ما يظهر ، غير مأهولة طوال معظم الالف الرابعة .

وبعد هجر غسول هجرا تاما ، وربما كان ذلك بسبب دمار كامل حل بها قبل ٣٤٠٠ ق م ، يبدو أنه قد مر بعض الوقت قبل أن يبدأ الناس في استعمارها من جديد . وعندئذ نشأت مراكز عمران جديدة في أماكن مثل بيسان (بيت شان) التي تقع على عرض الطريق بين مجدو والاردن ، حيث قد يرجع تاريخ الطبقة بيت شان (١٨) الى آخر العصر الغسولي . وهذه الحضارة الأخيرة استمرت في ثوب منحور في بئر سبع في الجنوب ، حيث وجد برو و آروني Perrot and Aharoni قرى دل تأريخها بالكربون المشع على أنها ترجع الى القرن الرابع والثلاثين أو الثالث والثلاثين . ويتعاصر مع بيسان (١٧ - ١٦) موقع كبير في وسط وادي الاردن هو تل أم حماد الشرقي الذي كشف عنه نلسن جلويك . أما الطبقة مجدو (٢٠) وهي أعماق طبقات العمران في هذا الموقع العظيم الذي يطل على سهل عزدرائيلون (مرج ابن عامر) الغربي ، فليست للأسف مكونة من مرحلة حضارية واحدة ، بل هي طبقة مختلطة تظهر بها مخلفات مراحل مختلفة تمتد من العصر المبكر الى العصر الغسولي أو مرحلة عمرانية تالية له مباشرة (تشترك مع العصر الغسولي في وجود أبواب من الطين في كل منها) الى مرحلة بيت شان (١٦) . وانتهى العصر الكالكوليثي المتأخر في بيت شان (١٨ - ١٦) (حوالي ٣٤٠٠ - ٣٢٠٠ ق م) بمرحلة استخدام فخار رمادي مصقول وأسود مصقول ، واستمرت هذه الفترة حتى العصر البرونزي المبكر الاول . وفي بيت شان (١٦) نجد بيوتا من نوع مستطيل الشكل تقريبا ذي طرف مستدير نطلق عليه اسم « محرابي » apsidal ، ويظهر البيت المحرابي بعد ذلك في أريحا (٦ - ٧) ثم في مجدو ، غير ان المساقط الافقية لهذه البيوت ليست متشابهة بالمرة في العصور المختلفة . وابدع مخلفات لمرحلة الفخار الرمادي المصقول الذي أطلق عليه رايت فخار « حضارة عزدرائيلون » وجدها دي فو عام ١٩٤٧ في تل الفرعة .

وفي مصر كشف مصطفى عامر (بك) عن فخار فلسطيني بكميات قليلة في المعادي جنوبى القاهرة ، حيث كانت توجد قرية كبيرة وجبانة من العصر الجزى المتوسط الذي لا بد وان يرجع تاريخه الى ما قبل

القرن الاخير من الالف الرابعة • وهذا الفخار يشبه بشكل مدهش فخار
عزدرايون الذى يرجع الى القرنين الثالث والثلاثين والثانى والثلاثين
قبل الميلاد •

وفى حوالى القرن الحادى والثلاثين قبل الميلاد ، يبدأ العصر
البرونزى المبكر • ويمكننا الان بكل اطمئنان تقسيم هذا العصر الطويل
الغامض الى أقسام ، ويرجع الفضل فى ذلك بصفة خاصة الى النتائج
الواضح للطبقات فى مجدو ، وبيت شان ، وأريحا ، وأضيف اليها حديثا
بيت يراح وثل الفرعه بالقرب من شكيم • فضلا عن ذلك يمكننا الان
تأريخ كل مرحلة من مراحل هذا العصر طبقا للترتيب التاريخى.
للاسرات المصرية كما يلى :

١ - العصر البرونزى المبكر الاول (القرن ٣١ - ٢٩ ق م •)
ويعاصر الجزء الاخير من عصر ما قبل الاسرات فى مصر •

٢ - العصر البرونزى المبكر الثانى (القرن ٢٩ - ٢٦) ويعاصر
الجزء الاخير من الاسرة الاولى •

٣ - العصر البرونزى المبكر الثالث (القرن ٢٦ - ٢٣) ويعاصر
عصر الاهرامات ، من الاسرة الثالثة الى الاسرة الخامسة •

٤ - العصر البرونزى المبكر الرابع (أو الثالث مكرر) ويمثل مرحلة
بينية استمرت حتى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد •

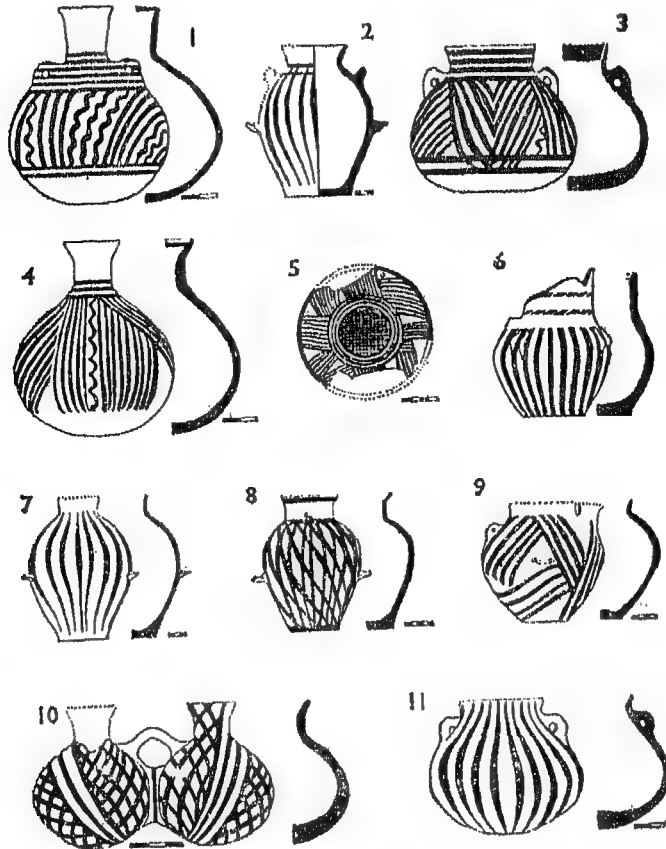
على أن الملاحظ أن هذه التواريخ قد حددت على أساس أدنى تواريخ
معطاة لاسرات المصرية ، وهى التى نعتبرها أدنى تواريخ صحيحة
تقريبيا من الوجهة العملية للعشر أسرات الاولى ، ومع كل زيادة فى
التواريخ المصرية ، يجب أن تزداد تواريخ العصر البرونزى المبكر
والعصر الكالكوليثى بما يقابل هذه الزيادة •

والى الفترة الانتقالية بين العصر الكالكوليثى المتأخر والعصر البرونزى
المبكر الاول فى حوالى القرن الثانى والثلاثين أو الحادى والثلاثين ،
قد يرجع تاريخ الطبقات (٧ - ٥) و (٤) فى المنحدر الشرقى
لمجدو • ولابد أن توضع هذه المرحلة بين بيسان (بيت شان) (١٥)
وبيسان (١٣) وتقابل الطبقة ١٩ من طبقات تل

مجدو نفسه • ففي الطبقة الخامسة في المنحدر الشرقى لمجدو ، وجدت كمية من الشقف مطبوع عليها بأختام اسطوانية أشكال تمثل حيوانات وزخارف زهرية ، وقد نسبها فرانكفورت أولا الى عصر الاسرات الاولى والثانية في بلاد ما بين الرافدين ، غير أن دوناند نشر عام ١٩٤٥ بحثا عن حوالى ثلاثين قطعة من شقف مختوم مماثل وجد في منسوب للعمران في جبيل مما غير الصورة الاولى التى أعطاها فرانكفورت • ولا يمكن أن يكون ثمة أى شك أن دوناند محق تماما في نسبتها الى فترة جمدة نصر في بلاد ما بين الرافدين (حوالى ٣١٠٠ - ٢٩٠٠ ق م •) • وفي حوالى نهاية الالف الرابعة لابد أن تكون الحضارة قد انتشرت انتشارا واسعا بين أجزاء الشرقين الأدنى والوسط ، ولهذا كان من الطبيعى أن تصبح سوريا وفلسطين الوسيطتين الحضاريتين اللتين عبر خلالهما التأثير الحضارى من بلاد ما بين النهرين الى مصر قبل الاسرة الاولى مباشرة ، وهو ما أوضحه البعض وخصوصا فرانكفورت وشارف •

وفى المدة التى اصطلح على تسميتها الان بالعصر البرونزى المبكر الاول ، كان هناك نوعان من صناعة الفخار يقسمان شمال فلسطين وجنوبها على جانبي نهر الاردن الى منطقتين لهما صفات مشتركة ، ومع ذلك فهما يختلفان بعضهما عن بعض بدرجة أكبر من اختلافهما فى العصور اللاحقة • ففي شمال فلسطين نجد كميات ضخمة من الاوانى المزخرفة بكسوة شريطية (أو بطلاء مجزع كما تسمى للاسف) ، أى أنها مزينة بخطوط متوازية أو خطوط متقاطعة على شكل شبكى ، مكونة عادة من حزم من الكسوة على السطح الطبيعى المصقول للناء • وأصدق مثال لحضارة هذا العصر (حوالى القرن الحادى والثلاثين الى القرن الثلاثين قبل الميلاد) نجده فى طبقة بيت يراح (٢) التى كشف عنها ستكليس ومعاونوه فى ١٩٤٥ - ١٩٤٦ • وفى ذلك العصر ، كانت هذه المدينة محاطة بجدار من اللبن لا يقل سمكه عن ثمانية أمتار ، وقد بنى هذا الجدار من ثلاثة أجزاء ، جزء قائم فى الوسط وازافتان منحدرتان على الجانبين • والطبقة الخامسة عشرة فى بيت شان المعاصرة تقريبا للطبقة الثانية فى بيت يراح تتميز أيضا بطوب مستطيل من اللبن وجدران مستقيمة ، حلت محل المبانى المخرابية التى تميزت بها بيت شان (١٦) •

وكان يتعاصر تقريبا مع الفخار ذى الكسوة الشريطية فى شمال فلسطين ، الفخار الملون الذى صنع فى جنوبها (شكل ٤) ، وفى هذا الفخار نجد أن حزما من الخطوط المتوازية أو المتعوجة الملونة باللون الاحمر أو البنى قد استخدمت استخداما واسعا لزخرفة كل سطح الاناء ، وغالبا ما يكون سطح الاناء كله مغطى بزخارف على شكل شبكى . ويمثل هذا العصر خير تمثيل مجموعات المقبرة ٣ فى أوفيل (القدس) ، وكهوف جازر ، وجبانة عاى ، وأريحا (٦ - ٧) والمدافن المبكرة فى تل النصبه . ويبدو أنها تمثل فى جملتها بدايات بناء المدن فى المناطق الجبلية فى جنوب فلسطين . وقد استوردت مصر أوان من فلسطين يرجع تاريخها الى هذا العصر اذ وجدت مثل هذه الاواني فى أبو صير الملق وفى مواقع أخرى يرجع

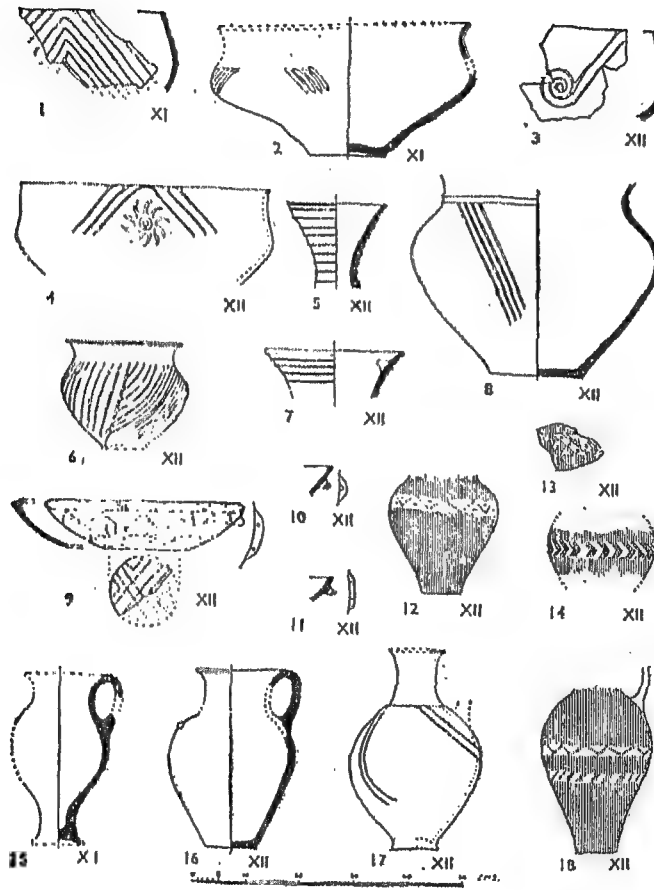


شكل ٤ — فخار من العصر البرونزى المبكر الاول فى متحف فلسطين

تاريخها الى نهاية عصر ما قبل الاسرات أى حوالى ٣٠٠٠ ق • م •
طبقا لادنى تأريخ ممكن •

وفى حوالى القرن التاسع والعشرين (طبقا لادنى تأريخ ممكن)
حينما استتب الامر للأسرة الاولى فى مصر ، نلاحظ بزوغ حضارة
فخارية جديدة فى فلسطين ، تعرف بحضارة العصر البرونزى المبكر
الثانية • ولا يمكن أن يكون ثمة أى شك اطلاقا فى وجود صلات بين
فلسطين فى هذه الفترة وبين أسرة مينا فى مصر ، اذ وجدت كميات
كبيرة من الاوانى وقطع الشقف المميزة لهذه الحضارة فى المقابر الملكية
من الأسرة الاولى فى أبيدوس وسقارة • وفضلا عن ذلك فان الاناء
المعروف باسم « اناء أبيدوس » ، وهو أبريق ذو يد واحدة وقاعدة ضيقة
سميكة وزخارف على شكل خطوط منحنية ملونة بلون أحمر على أرضية
ذات لون برتقالى مصفر ، قد ظهر فى العصر البرونزى المبكر الثانى فى
مقبرة بالقرب من بيت يراح • وأجمل أوان من الفخار فى فلسطين
وساحل سوريا فى ذلك الوقت كانت فى الغالب من فخار صلد مغطى
بكسوة ذات لون أحمر مصقول ، وكانت قواعدها عادة من النوع السميك
الضيق • وشاع جدا فى هذا العصر تمهيط الفخار وصقله لعمل زخارف
بلغت درجة كبيرة من التعقيد أحيانا • ولم يعد ثمة أى شك فى أن هذا
العصر كان من أزهى عصور شمال فلسطين ولو أنه يبدو أن المناطق
الجبلية فى وسط فلسطين وجنوبها لم يصبها العمران الا قليلا • وكانت
بلدان هذا العصر منسقة خير تنسيق كما يتضح من الطبقات : بيت
يراح (٣) ، وبيسان (١٣) ومجدو (١٨ — ١٦) وأريحا (٤) ، وغيرها فى
مواقع أخرى • وفى خلال الجزء الاخير من هذا العصر تعرضت فلسطين
وفينيقيا للنفوذ المصرى القوى ، ويبدو ان ملوك العصر الطينى الاقوياء
قد بسطوا سلطانهم فى آسيا •

والعصر التالى لهذا العصر من الناحية الاثرية ، وهو العصر
البرونزى المبكر الثالث (شكل ٥) ، انما يرتبط بعصر الاهرامات فى
مصر من الأسرة الثالثة الى الأسرة الخامسة (من القرن السادس
والعشرين الى القرن الثالث والعشرين طبقا لادنى تأريخ ممكن) ،
يدلنا على ذلك ما كشف عنه من آثار مصرية فى فلسطين والفخار
الفلسطينى الذى عثر عليه فى مقابر الجيزة • ولا شك أن هذا العصر
يمثل أعلى درجات حضارة العصر البرونزى المبكر فى كل من فلسطين.



شكل ٥ — فخار من العصر البرونزى المبكر الثالث من بيسان

ومصر ، غير أن المدن والحصون كانت لا تزال مبعثرة متباعدة في المناطق الجبلية ، ولم يكن ثل بيت مرسيم قد لحقه العمران بعد ، ومجدو (١٧ — ١٦) تنتمى الى المرحلة الاولى فقط من هذا العصر .
 الا أنه كانت ثمة مدينة زاهرة فى بيت يراح وقد وصل سمك أنقاض مراحل هذا العصر المتتابعة التى تراكمت فيها الى مترين فى المتوسط ، وقد دمرت هذه المدينة بعد ذلك ولم تستعمر لمدة تزيد على ألفى عام .
 ومدينة بيت يراح كانت محاطة بسور مشيد بكثل من الجلاميد البركانية ، ويبلغ سمك هذا السور أربعة أمتار ، وعلاوة على ذلك كانت محصنة من خارج السور أيضا بمنحدر من أرض مدكوكة معبدة . وكانت بيسان^٢ (١٢ — ١١) وأريحا (٣) عامرتين بالسكان أيضا خلال هذا

العصر • على أن أهم مدينة كشفت عنها من هذا العصر حتى الان هي دون شك مدينة عاى (وهى التل الذى يقع شرقى بيت ايل) حيث كشفت مدام ماركيبه عن معبد (أطلق المكتشفون عليه خطأ اسم « قصر ») وفى هذا المعبد ، الذى كان مستطيلا وبابه الرئيسى فى أحد الجانبين الطويلين كانت الجدران مكونة من مداميك من الحجارة التى سويت سطوحها بالدق بالشحوظة ، بينما كان السقف محمولا على أعمدة خشبية قائمة على قواعد منحوتة نحتا جيدا • والمبنى نفسه ، فى طرازه ، يمكن اعتباره وسطا بين معبد مجدو (١٩) المستطيل الشكل الذى يرجع تاريخه الى حوالى ٣٠٠٠ ق • م • ، وبين ثلاثة مبان متشابهة من القرن التاسع عشر ق • م • فى مجدو (١٥) • ويمكن الحكم من طبقات المناطق المجاورة على أن معبد عاى ربما بنى فى حوالى القرن السادس والعشرين ق • م • ، وبالقرب من هذا المعبد هيككل صغير ، عثر بداخله على كمية من الاوانى والصوانى المكسورة من المرمر المصرى ، ذات أشكال مميزة لبدء عصر الاهرامات فى مصر (الاسرة الثالثة) • وعثر على مقبرة فى تعنك ، جنوب شرقى مجدو تحاكي فى بنائها طريقة البناء بالحجر فى عصر الملك زوسر ، وقطع الشقف التى وجدت بها تشير الى نهاية العصر البرونزى المبكر الثانى أو بدء العصر البرونزى المبكر الثالث ، أى حوالى القرن السادس والعشرين ق • م •

وأهم فخار مبتكر فى هذا العصر هو فخار « خربة كراك » الاحمر والاسود المصقول ، الذى عرف أولا فى الموقع الذى يحمل هذا الاسم ، فى مكان بيت يراح القديمة، فى الركن الجنوبى الغربى لبحر الجليل ، والسطح الخارجى لهذه الاوانى مزخرف عادة بأشكال هندسية وزخارف حلزونية وخطوط منحنية ، وكثيرا ما تكون مضلعة بصلوع محدبة أو مقعرة ، أضيف الى هذه الملامح شكل هذه الاوانى البديع اذ لدينا منها أجمل ما عثر عليه من أوان فخارية فى فلسطين حتى الان • وقد أثبتت تنقيبات بريدوود فى شمال بسوريا أن نوعا مماثلا جدا لهذا الفخار كان موجودا بكثرة فى الطبقة الحادية عشرة فى تل اليهودية ، التى تميزت بوجود أختام اسطوانية عراقية من عصر الاسرات المبكر ، بينما وجدت فى الطبقة الثانية عشرة التى تقع تحتها أختام من عصر جمدت نصر ، وهذه الحقيقة تعطينا فارقا من الزمن يبلغ أربعة قرون أو أكثر ، من حوالى

٢٨٠٠ الى ٢٤٠٠ ق م • ، غير أن الشواهد الفلسطينية تدل بوضوح على أن هذا الطراز من الفخار لم يشع استخدامه لأكثر من قرنين (حوالى ٢٦٠٠ - ٢٤٠٠ ق م •) ، ولسنا نجزم بصحة استنتاجنا ، من حقيقة عدم ظهور هذا الفخار الا فى مواقع قليلة جدا فى فلسطين ، أنه لم ينتشر بعيدا نحو الجنوب ، ولكنى أرى أن وجود قطع قليلة من الشقف فى أريحا أثبت فيتز جيرالد Fitz Gerald أنها تنتمى لهذا الطراز من الفخار ، لدليل كاف على انتشاره الى جنوب فلسطين • ومع ذلك فلم تكن سفوح الجبال فى الجنوب قد لحقها العمران بدرجة كبيرة فى العصر البرونزى المبكر الثالث ، ولذلك فان أدلتنا فى جوهرها سلبية بالنسبة لهذه المواقع • أما مواقع السهول ووديان الانهار ، فمما يؤسف له بالنسبة لمستندائنا الاثرية ، أنها قد أصبحت بصفة عامة ، عامرة بالسكان قبل المدن الجبلية بوقت طويل جدا ، وتبعاً لذلك فان طبقات العصر البرونزى المبكر تقع على أعماق كبيرة جدا لم يصل اليها الا عدد قليل من المنقبين ، أو أن المنقبين على الاقل لم يقوموا بحفر مساحة كافية لإمدادنا بعينات تفى بتمثيل محتويات هذه الطبقات تمثيلاً مرضياً •

ويلى هذا العصر ، العصر البرونزى الرابع (أو الثالث ب) ، وهو فى جوهره مرحلة مكمله للعصر السابق له ، ولم يمتد هذا العصر لفترة أكثر من مائتى عام (من القرن الثالث والعشرين الى القرن الحادى والعشرين) • ولم تستحدث فيه طرز جديدة حقا من الاوانى الفخارية ، بينما اختفت آخر آثار للاوانى ذات القواعد السميكة الضيقة وتدهور بسرعة نوع الفخار الاحمر المصقول • على أن عددا غير قليل من المدن الجبلية فى الجنوب بدأ عمرانها فى هذا العصر (أو فى الجزء الاخير من العصر البرونزى المبكر الثالث) ، مثل تل بيت مرسيم وبيت شمس • وفى شرق الاردن نجد تزايدا سريعا فى كثافة السكان كما دلت على ذلك تنقيبات نلسن جلويك Nelson Glueck وأيدتها المجسات التى أجريت فى آدر وفى باب الدراع • ويقابل هذا العصر فى مصر الاسرة السادسة وأوائل الفترة البيئية الاولى التى بدأ فيها دخول الشعوب السامية الغربية فى مصر كما تشهد بذلك بعض الوثائق الهيراطيقية •

ولم تكتشف حتى الان مبان محفوظة حفظا جيدا من العصر البرونزى المبكر الرابع ، ولذلك فلا بد أن تبقى معلوماتنا عن حضارته جزئية جدا

الى حين • ولعل أهم مخلفات هذا العصر ، مجموعة من المباني الاثرية المقامة فى العراء فى شرق الاردن • ففي باب الذراع ، الذى يطل على البحر الميت من فوق أحد المدرجات الشرقية ، سياج كبير مكشوف يحميه جدار من أحجار كبيرة محلية • وبداخل هذا السياج ، ومن حوله ، مواعد قديمة عديدة ، بها كميات من الشقف يمتد تاريخها من حوالى القرن الثالث والعشرين الى القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد • وعلى بعد أكبر خارج السور مقابر كثيرة محفورة فى باطن الأرض ومحاطة بأحجار صغيرة مرصوفة بطريقة بحيث تشبه فى منظرها الخارجى الدولينات الميجاليتية فيما عدا التفاوت الكبير فى حجم الاحجار وبعض الاختلافات الاساسية (الخرى) ، وكانت معظم هذه المقابر مغطاة بأكوام Tumuli^(١) من التراب قليلة الارتفاع • وعلى مسافة قصيرة منها ، مجموعة من المنهيرات المتهدمة التى يبدو أن عددها الاصلى كان سبع منهيرات • وفى لجبون وآدر مجموعات أخرى من أحجار مرصوفة مرتقعة ومرتبطة هى الاخرى بمراكز عمران من العصر البرونزى المبكر الرابع ، الذى يبدو أن هذا الطراز من الانشاءات الدينية كان شائع الاستعمال فيه •

ومن البديهي أن فخار العصر البرونزى المبكر لم ينته استعماله فجأة ، بل كانت هناك مرحلة انتقالية فى القرن الحادى والعشرين ق • م • (وربما بدء القرن الثانى والعشرين) • وأول فخار يمثل هذه المرحلة هو فخار بيت مرسيم (١) (العين) ، الذى يتميز بمقايض ظرفية ذات افريز • وقد كشف عن نفس هذه المرحلة منذ ١٩٣٠ فى مجدو وفى أماكن أخرى • وعثر نلسون جلويك حديثا على اناء بديع جدا من هذا الطراز فى تل أم حماد الغربى فى وادى الاردن • ويتميز فخار هذه المرحلة بتحسن كبير فى عمليات صناعته ، مما أدى الى اكسابه درجات أفضل فى نعومة السطح والصلادة بعد الحرق ، كما عاد استخدام عجلة الفخارى لتشكيل رقاب الاوانى وحواف فوهاتها • وأسهل قرينة للتعرف على هذا العصر ، كما ذكرنا آنفا هو المقبض الظرفى ذو الافريز ، وهذا الاسم الذى أطلقه عليه جاى P.L.O. Guy مشتق من أن طرفى هذا المقبض المرتفعين ، وهو المقبض الذى كان يتميز

(١) كلمة Tumuli هى صيغة الجمع لكلمة Tumulus ، ومعناها كوم من التراب على مقبرة (المراجع) •

به فخار العصور السابقة منذ العصر البرونزى المبكر الثانى ، قد طويا على سطح الاناء وضغط على كل منهما حتى بدا شكل كل طرف منهما كما لو كان ثنيه ظرف الخطاب •

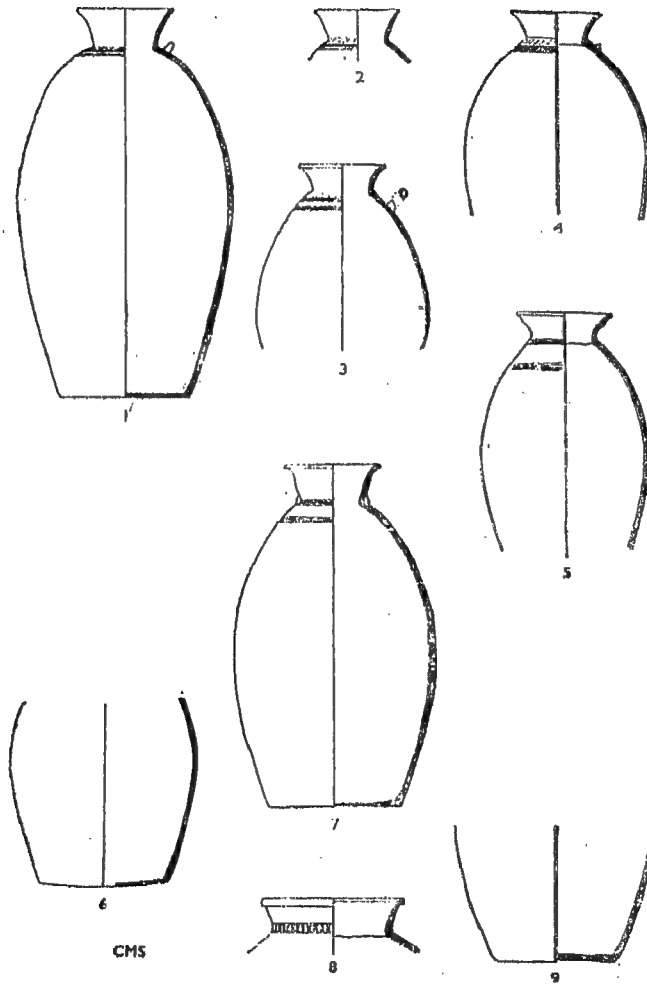
ويبدو أن لوحتين مهمتين من مؤاب تنتميان الى الجزء الاخير من العصر البرونزى المبكر ، وهما لوحة شيجان التى كشف عنها دى سولسى F. de Saulcy والموجودة الان بمتحف اللوفر ، ولوحة بالوعة الموجودة الان فى متحف عمان • ولا تحمل اللوحة الاولى نقوشا مكتوبة ، غير أن شكل الرداء المصرى العتيق يدل على التأثير المصرى خلال عصر الاهرامات • أما لوحة بالوعة فقد أعيد استعمالها فى القرن الثانى عشر (وربما القرن الحادى عشر) ، غير أن شكل اللوحة وبقايا الكتابة الاصلية فوق الرسم الزخرفى المتأخر ، يدل على أن تاريخها يرجع الى حوالى نهاية الالف الثالثة ق.م • (انظر الباب الثامن) • فاذا صحت نسبة هاتين اللوحتين الى هذا العصر فانهما يلقيان ضوءا ، نحن فى حاجة اليه ، على الحضارة المتقدمة فى فلسطين خلال هذا العصر ، اذ أن المعروف عنها حتى الان قليل •

الفصل الخامس

فلسطين في العصرين البرونزي المتوسط والبرونزي المتأخر

في غضون القرن الحادى والعشرين قبل الميلاد ، حل محل فخار العصر البرونزى المبكر فى فلسطين ، فخار العصر البرونزى المتوسط الاول (من القرن الحادى والعشرين الى القرن التاسع عشر ق . م) . وقد وفدت صناعة هذا الفخار اليها من سوريا ، حيث تعرف بالصناعة « الكأسيّة » وذلك لتفضيل الفخارين لشكل كأس الزهرة على ما عداه من الاشكال الاخرى . وفى حماة على نهر العاصى ، تكمن هارالد انجولت Harald Ingholt من تمييز أربع مراحل متعاقبة من هذا الفخار الذى قد يرجع تاريخه على وجه التقريب الى ما بين القرن الثانى والعشرين والقرن التاسع عشر ق . م . (يجب تخفيض التاريخ الاصلى الذى أعطى له من قبل وهو ٢٤٠٠-٢٠٠٠ ق . م . ليتمشى مع التخفيض العام فى تواريخ بلاد ما بين الرافدين) . وحتى لو أجزنا مرور بعض الوقت قبل انتشار هذا النوع الى الجنوب ، فانه من المؤكد أنه وصل الى فلسطين خلال القرن الحادى والعشرين ، ولو أنه يبدو أنه لم يحل أبدا محل الطرز الاسبق منه حلولا كاملا فى شرق الاردن . وليس من المحتم أن نفترض أن تحركات هذه الصناعة الفخارية كانت مرتبطة بأى تحركات للشعوب ، بل يبدو أمرا أكثر احتمالا أن كان هناك انتشار حضارى حدث فى نفس الوقت مع انتشار الحضارة السورية العراقية فى العصر السابق مباشرة للأسرة الثالثة فى أور (حوالى ٢٠٧٠-١٩٦٠ ق . م) .

لكن فلسطين كانت حينئذاك فى معمعة التطاحن القبائلى ، وكان ثمة تخريب كبير وهجر للمدن . وإلى عهد قريب ، كانت المرحلة الاولى للعصر البرونزى المتوسط من أكثر الفترات غموضا فى تاريخ فلسطين الاثرى القديم . ومع أن واترينجر Watzinger اكتشف فخارا من هذا العصر فى أريحا عام ١٩٠٨ (وعرفه خطأ بأنه كنعانى متأخر) ، إلا أن الاثريين لم يعيروه اهتماما ، وظن معظمهم أن فخار العصر البرونزى



شكل ٦ — فخار من طبقة ح (من العصر البرونزى المتوسط الاول)
من تل بيت مرسيم

المتوسط الثانى من عصر الهكسوس هو الذى تلا مباشرة فخار العصر
البرونزى المبكر . غير أنه وجد فى ١٩٣٠ فى تل بيت مرسيم أن
الطبقتين (ط - ح I-H) ، وخصوصا الطبقة (ح I) ،
تتميزان بهذا النوع من الفخار (شكل ٦) ، وقد تخلصت
الطبقة (ح) تماما من تأثير أنواع فخار العصر البرونزى المبكر ،
وتقع هذه الطبقة بين الطبقة (ي J) (من العصر البرونزى المبكر
الرابع) وبين الطبقة (ز - و F.-G.) من العصر البرونزى

المتوسط الثانى — ا) • ثم وجد بعد ذلك فخار كلتا المرحلتين (ط)
و (ح) فى مواقع عديدة أخرى حيث وجدت بنفس الترتيب
استراتيجرافيا وشكليا • غير أننا لا نجد فى أى مكان مدنا منسقة أو
مبان جيدة البناء من المرحلة (ح) التى يبدو واضحا أن فلسطين كانت
أثناءها قليلة السكان • وقد أعطت تنقيبات نلسون جلويك فى شرق
الأردن نفس الصورة ، وهى أن تناقصا كبيرا فى كثافة السكان حدث
قبل نهاية القرن العشرين قبل الميلاد بسبب هجر البلاد وتركها للبدو
الرحالة • ولعله حدث عن طريق الصدفة فقط أن هذه المرحلة لم تظهر
الا نادرا بين طبقات مجدو وبيسان وأنها لم تظهر بالمرّة فى الطبقات
السفلى فى تلال السهل (شفا الله) • وبالإضافة الى ذلك ، فقد أثبتت
تنقيبات نلسون جلويك فى النقب منذ ١٩٥٢ ، أنه كانت هناك خلال هذا
العصر قرى كثيرة صغيرة من الحجر تسكنها أقوام نصف بدوية ، متناثرة
فى كل المنطقة القاحلة التى تقع جنوبى بئر سبع •

وتدل نصوص اللعنات المصرية من الاسرة الثانية عشرة على أن كلا
من شرق فلسطين وغربها كانت تستعمره قبائل بدوية ونصف بدوية فى
أواخر القرن العشرين قبل الميلاد • وبعد قرن أصبح غرب فلسطين
مكتظا كثيرا بالسكان ، لكن شرق الأردن ظل مأهولا بالبدو الرحل •
وقد زادت الكشوفات الاثرية فى فلسطين هذه الصورة ايضا ، اذ دلت
على أن شرق الأردن أصبح منطقة بدوية تماما فيما بين ٢٠٠٠ و ١٨٠٠
ق • م • وقد وجد أن نوع الفخار الذى وجد فى تل بيت مرسيم
بالطبة (ط — ح) ، لا يزال يوجد فى عدد من المواقع فى شمال
شرق الأردن ، كما وجد فخار معاصر تقريبا من القرن العشرين فى آدر
بمؤاب وفى بعض أماكن أخرى ، غير انه لم يوجد حتى الان فخار من
القرن التاسع عشر أو من الجزء الاخير من العصر البرونزى المتوسط فى
أى مكان فى شرق الأردن خارج وادى الأردن نفسه وأقصى الشمال •
وليس من الصعب استنتاج معنى هذه الحقائق من الادلة المستمدة من
نصوص اللعنات • وهذه الوثائق الغريبة تتكون من أوان وتماثيل صغيرة
مكتوب عليها بخط هيراطيقى ردىء أسماء ثورات قائمة فعلا أو الثورات
التي يحتمل قيامها فى مصر والبلاد المجاورة ، وكان يظن بناء على هذا
أنها تقع تحت رحمة فرعون مصر • فاذا هددت بعض القبائل أو المدن
بالثورة أو العصيان ، فما على فرعون مصر الا أن يكسر الاشياء المكتوب

عليها أسماؤها والتعاويذ اللازمة في احتفال سحري ، وفي التسوية ينتهي العصيان بمأساة تقع على رأس العصاة بطريقة ما . وقد تم نشر مجموعتين من هذه الأشياء حتى الآن ، المجموعة الأولى من الأواني بمتحف برلين ونشرها كورت زيتة عام ١٩٢٦ ، والمجموعة الثانية من التماثيل الصغيرة في متحف بروكسل ونشرها بوزنر G. Posener عام ١٩٤٠ . ومن المرجح أن يرجع تاريخ المجموعة الأولى الى نهاية القرن العشرين ق.م. ، ويرجع تاريخ المجموعة الثانية الى أواخر القرن التاسع عشر ق.م. ، وهما يظهران نقصا كبيرا في العدد النسبي للوحدات القبائلية وزيادة مقابلة في عدد ولايات المدن ، وهو ما يطابق تماما الأدلة المستمدة من توزيع الفخار .

ويقابل العصر البرونزي المتوسط عصر الانبياء في الكتاب المقدس ، ولو أنه لم يمكن حتى الآن تحديد تاريخ هجرة ابراهيم من بلاد الرافدين أو تاريخ هجرة يعقوب الى مصر على وجه الدقة . ومن رأى المؤلف حاليا أن الهجرة من أور الى حاران والبلاد الواقعة غربها (١) ربما حدثت في القرنين العشرين والتاسع عشر ق.م. ، وأن هجرة يعقوب الى مصر ربما وقعت في غضون القرن الثامن عشر أو على وجه أرجح في القرن السابع عشر ق.م. مرتبطة بحركة الهكسوس (٢) . وفي الباب العاشر تفاصيل أكثر عن الضوء الذي تلقى به الدراسات الأثرية على عصر الانبياء .

ولم يتضح تماما تاريخ المرحلة الأولى للعصر البرونزي المتأخر بالنسبة الى العصر البرونزي المتوسط الثاني الا بعد حفائر ١٩٢٨ — ١٩٣٢ في تل بيت مرسيم ، التي أيدت نتائجها وأضافت اليها معلومات جديدة نتائج الحفائر التي أجريت على أعماق كبيرة في مجدو في ١٩٣٥ — ١٩٣٧ . وحيث أن الانقراض في هذين الموقعين موجودة على شكل طبقات واضحة ، ويقع أحدهما في الشمال ويقع الآخر في الجنوب ، ومع ذلك يتفقان بطريقة مدهشة في تتابع أنواع الفخار

(١) لا توجد اية أدلة أثرية تثبت ذلك ، وإنما هي مجرد استنتاجات .
(المترجمان)

(٢) عصر الهكسوس عصر غامض جدا ، ولا توجد اية وثيقة تثبت صلة بين الهكسوس وبين هجرة يعقوب الى مصر .
(المترجمان)

فيهما ،فلا يمكن أن يكون ثمة أى شك فى أن النتائج المشتركة لهذين
التنقيبين تعطى صورة صحيحة جدا لفلسطين فى ذلك العصر ، ويمكن
توضيح هذه الصورة فى الجدول التالى :

العصر	تل بيت مرسيم	مجدو	ملاحظات ومواقع معاصرة
البرونزى المتأخر (١ - ١)	غير موجود	(٩) (١٥٥٠ - ١٤٧٩)	تل العجول (٢)
البرونزى المتوسط (٢ ج)	D د	(١٠) (القرن ١٧ - ١٦)	المرحلة الاخيرة من عصر الهكسوس
البرونزى المتوسط (٢ ب)	E ₂ ه ٢	(١١) (القرن ١٧)	المرحلة الوسطى لعصر الهكسوس
البرونزى المتوسط (٢ ب)	E ₁ ه ١	(١٢) (القرن ١٧ - ١٨)	المرحلة الاولى لعصر الهكسوس
البرونزى المتوسط (١٢)	F و	(١٣) (القرن ١٨)	الاسرة الثالثة عشرة
البرونزى المتوسط (٢ ا)	G ز	(١٤) (القرن ١٩ - ١٨)	اواخر الاسرة الثانية عشرة
البرونزى المتوسط (١) و (١٢)	I, G ط ، ز	(١٥) (القرن ١٩ والقرن ٢١ - ٢٠)	طبقة مركبة

وحيث أن التواريخ المصرية قد أصبحت الان دقيقة فى حدود عشر
سنوات أو عشرين سنة لكل الفترة التاريخية التى يتناولها هذا الباب فان
التواريخ المبينة فى هذا الجدول تكاد تكون مؤكدة كلما كان من الممكن
ايجاد قرينة طيبة لها مع تاريخ الحضارة المصرية . والواقع أن هذه
القرائن محتلة الوقوع جدا بفضل الدلائل المستمرة من الجعلان
والنصوص الخطية . وعلى سبيل المثال المقبرتان رقم (١)
ورقم (٢) فى جيل اللتان كشف عنهما ببيير مونتيه
Pierre Montet كانتا معاصرتين لامنمحات الثالث وأمنمحات
الرابع ، ولذلك فلا بد أن يرجع تاريخهما الى نهاية القرن التاسع عشر

ق • م • والفخار الذى وجد بهما يشبه بوجه عام (وأحيانا يطابق تماما) فخار العصر البرونزى المتوسط (١٢) ولو أنه احتوى أيضا على عدد قليل من الاشكال المختلفة تماما عنه • ولذلك فإن ظهور مرحلة الفخار هذه فى جبيل لابد وأن يسبق منتصف القرن التاسع عشر وربما يرجع ظهوره الى حوالى ١٩٠٠ ق • م • وتحتوى المقبرتان (٣) و (٤) وهما أحدث من المقبرتين السابقتين على نفس أنواع الفخار ، كما لوحظ أن ابناء كبيرا من أوانى الاساس من منطقة المعبد له نفس المميزات ، والجعلان التى وجدت داخل هذا الاناء من الجعلان المصرية المميزة لنهاية القرن التاسع عشر وبدا القرن الثامن عشر ق • م • وبفضل هذه القرائن وغيوط أخرى من الادلة ، يمكن الحكم بأن الانتقال من العصر البرونزى المتوسط (١٢) الى (٢ب) حدث فى غضون النصف الثانى من القرن الثامن عشر قبل الميلاد • وبناء على دلائل أخرى مماثلة أمكن تأريخ بقية مراحل العصر البرونزى المتوسط الثانى والعصر البرونزى المتأخر الاول كما هو مبين بالجدول السابق •

وقبل أن نستعرض أهم مظاهر الحضارة فى العصر البرونزى المتوسط الثانى (الذى سنطلق عليه من باب التبسيط « العصر البرونزى المتوسط » فقط) ، سنورد فيما يلى وصفا مختصرا لتاريخ فلسطين السياسى فى هذا العصر : كانت منطقة غرب فلسطين وفينيقيّة وبعض أجزاء من سوريا خلال المرحلة (مجدو ١٥ — ١٣ ، تل عرسيم ز — و) تحت حكم مصر سياسيا وحضاريا • وقد وجدت آثار تثبت وجود علاقات مباشرة مع البلاط الملكى فى مصر منذ أوائل القرن التاسع عشر ق • م • فى أوجاريت وأبعد شرقا فى قطنه شمال شرقى حمص • وتمهدنا الآثار التى كشف عنها فى جبيل بصورة واضحة تبين مدئ تأثير مصر على الفن والحرف الصناعيّة فى فينيقيّة • بلا وتمكننا نصوص اللعنات (التى سبق ذكرها) من أن نرسم حدود الدائرة التى كانت تحت حكم مصر ، من وسط سوريا شمالى دمشق الى وادى اليوثيروس (النهر الكبير) فى وسط فينيقيّة • وقد أصبح تقريبا كل سكان شرق الاردن من البدو الرحالة فى هذا العصر • وبعد سقوط الاسرة الثانية عشرة ، أصبحت الاقاليم الاسيوية مستقلة ، ولو أن عودة السلطة المركزيّة فى مصر الى الانتعاش لفترة قصيرة فى ١٧٥٠ ق • م • قد أدى الى بسط نفوذها من جديد على جبيل وربما على

بعض أماكن أخرى • غير أن مصر كانت حينذاك قد بلغت من الضعف درجة لم يمكنها معها توطيد إمبراطوريتها في آسيا ، ولذلك فإن الشعوب السامية في الشمال الغربي التي كانت تستعمر حينذاك معظم أجزاء سوريا وفلسطين ، كانت مطلقة اليد في تطوير اقتصادياتها وقوتها الحربية دون تدخل من الخارج • وقد جاء ذكر ولايات ومدن عديدة في سوريا منها بيبيلوس (جبيل) وداماسين (آبوم) في خطابات ألواح معصرة عثر عليها في مارى على الفرات الأوسط ، وتشير هذه الوثائق إلى مدينة حاصور فقط في فلسطين ، مع أنها لم تكن أبعد من سوريا فحسب بل كانت أفقر منها أيضا بكثير • ومع ذلك فربما كان من فلسطين مجيء أول فوج من الغزاة الساميين الهكسوس (١) قبل نهاية القرن الثامن عشر ق • م • بوقت غير قليل • ولسنا نعرف إلى أى مدى توغلت هذه القبائل في مصر ، غير أنه يبدو أنهم غمروا كل الوجه البحرى وربما أيضا مصر الوسطى قبل قيام أمراء الهكسوس المكونين للأسرة الخامسة عشرة بغزو مصر في أوائل القرن السابع عشر ق • م •

وتحركات الشعوب التي حدثت في أوائل القرن السابع عشر قبل الميلاد لا تزال بالغة الغموض ، غير أنه يبدو مرجحا جدا أنه حدث وقتئذ هجرة على نطاق واسع للشعوب الهندو — آرية والخورية نحو الجنوب • ولو أنه لا توجد آثار لهذه الشعوب في فلسطين أو جنوب سوريا خلال القرنين التاسع عشر والثامن عشر ، إلا أنه ما أن حل القرن الخامس عشر ، حتى كان أمراء الشعوب الهندو — آرية والخورية وأشرافها راسخين في كل مكان فيهما تقريبا • ولا بد أن يكون قد حدث في هذه الاثناء نوع ما من الهجرة على نطاق واسع نحو الجنوب ، وكانت العربات التي تجرها الخيول قد أصبحت أهم أداة حربية في ذلك الوقت ، ولذلك يجب أن نتصور الغزاة الشماليين وهم يتوغلون في فلسطين ومصر بعرباتهم الحربية السريعة (٢) ، بينما لم يقيم

(١) لا يزال جنس الهكسوس موضع جدل وتاريخهم غامض كل الغموض •

[المترجمان]

(٢) من المشكوك فيه الآن أن الهكسوس كانوا يعرفون العربات السريعة عند دخولهم مصر •

[المترجمان]

المشاة الا بدور ثانوى تماما . وقد ترتب على استخدام العربات فى الحروب أن انتشر فن بناء استحكامات ضخمة مستطيلة الشكل عادة من اللبن . وقد ورد ذكر مثل هذه الاستحكامات لأول مرة فى مصادر بابلية من أوائل القرن السابع عشر ، وحيثما توجد شواهد فخارية عن تاريخ بناء هذه الاستحكامات فى سوريا وفلسطين ، نجدها تدل على عصر الهكسوس المبكر . وقد وجدت أمثلة طيبة لهذا فى فلسطين فى لايش (دان) وحاصور فى وادى الأردن الأعلى ، كما وجدت استحكامات ترابية أيضا من ذلك الوقت فى مواقع كثيرة أخرى مثل تل قيسان ، وشكيم ، ولخيش ، وتل بيت مرسيم ، وتل العجول ، وغيرها .

وفى القرن السابع عشر ، كانت فلسطين مركز الامبراطورية السامية الشمالية الغربية التى كانت تتولى حكمها عاصمة الهكسوس أفاريس فى الركن الشمالى الغربى لدلتا النيل . وفى أزهى عصورها ، تحت حكم الملكين أبوفيس وخيان ، ربما امتد حكم الهكسوس من الفرات الى بلاد النوبة الجنوبية^(١) . والآثار الرئيسية التى لدينا من هذا العصر هى آلاف من الجعلان التى استخدمها موظفوها وأعيانها لختم الوثائق والاوانى ، وفى الواقع لم يوجد فى أى عصر فى تاريخ فلسطين جعلان بالكثرة التى وجدت بها خلال عصر الهكسوس ، من حوالى ١٧٠٠ الى حوالى ١٥٥٠ ق.م. وكان هذا العصر ، عصر رخاء محلى كبير ، زاد فيه عدد المساكن والمقابر زيادة منتظمة مطردة ، كما أن الاثاث الجنائزى المتعرف من العصر البرونزى المتوسط (٢ ب - ج) يفوق أى شئ آخر عرف فى تاريخ هذا القطر . ومعلوماتنا عن مصادر الثروة فى فلسطين فى عصر الهكسوس لا تزيد عن كونها تخمينات ، غير أن تخميناتنا هذه لا يمكن أن تكون بعيدة عن الصواب بقدر كبير . ولعله يكون عن طريق المنطق فقط أن نظن أن هذا الرخاء كان ناتجا على الاخص عن ازدهار التجارة فى ذلك العصر ، اذ كانت فلسطين قد أضحت طريقا هاما للتجارة بين افريقية وآسيا ، غير أن

(١) وجود امبراطورية الهكسوس الممتدة من الفرات الى بلاد النوبة الجنوبية أمر مشكوك فيه اذ لا توجد أدلة مادية تؤيد هذا الزعم .
[المرجعان]

كثرة الاسلحة واللقى المصنوعة في مصر ، أو المصنوعة طبقا
للاسلوب المصرى فى آثار هذا العصر ، يدل على أن كثيرا من هذه
الثروة قد جلبه المحاربون الذين كانوا يحاربون فى مصر فى صفوف
الهكسوس .

وبعد نهاية الاسرة الخامسة عشرة ، فى أوائل القرن السادس عشر
ق . م ، يبدو أن امبراطورية الهكسوس قد اندثرت بسرعة . وقبل
نهاية حكم أحمس الاول ، كان قد تم طرد الهكسوس من مصر وعصف
حصونهم الجنوبية بعد مقاومة مريرة . ويثبت مدى العناد الذى قاوم
به أمراء الهكسوس فى فلسطين ، الجيوش المصرية والنوبية ، من
النص المصرى لوصف حصار الثلاث سنوات لقلعة شاروهين (التى قد
تكون تل الفرعة على حافة الصحراء الجنوبية) ، وكذلك من مظاهر
التخريب التى تقابل المنقبين الذين يصلون فى حفاثرهم الى مناسب
التدمير التى ترجع الى منتصف القرن السادس عشر . كما تبين هذه
المناسيب فى تل بيت مرسيم ومجدو ، وربما أيضا بيت صور وأريحا ،
مدى القسوة التى عاناها الهكسوس فى هذا الهجوم على يد الجيش
المصرى . وبالفتح المصرى لفلسطين خلال حكمى أحمس الاول وامحبت
الاول فصل الى عتبة باب العصر البرونزى المتأخر الذى سنعالجه فيما
بعد .

ولو كان المنقبون قد نشروا وصفا كاملا لاسوار مدن وبوابات العصر
البرونزى المتوسط التى كشفوا عنها ، لكان من الميسور شرح تطور فن
بناء الحصون بتفصيل كبير . ومع ذلك يمكن الحكم مما نشر عن أسوار
الالف الثالثة وأسوار القرون الاولى من الالف الثانية قبل الميلاد التى
كشفت عنها حتى الان ، بأن النظام المحلى الذى اتبع أولا ، كان يتضمن
بناء أسوار رأسية حسب الاسلوب المصرى ، بدون اضافات خارجية أو
منحدرات لحماية المدن قبالة المحاصرين . وبالرغم من أننا نجد فى
أريحا وعائى صفين أو ثلاثة صفوف من الاسوار ، على نهج النظام المتبع
فى بلاد ما بين النهرين فقد ظلت الاسوار التى تتكون من صف واحد من
الجدران الرأسية أكثر أنواع الحصون شيوعا . وفى تل بيت
مرسيم (ز) من القرن التاسع عشر ق . م ، لدينا سور سمكه
حوالى ٣.٢٥ مترا ، به حصون على شكل أبراج يبلغ متوسط

طولها عشرة أمتار أو أكثر قليلا ومتوسط عرضها ستة أمتار أو أكثر . وفى الطبقة (و) نجد نفس السور لا يزال مستخدما ، ولكن حدثت توسيعات فى عرضه فى النقاط الضعيفة . وقد بنيت هذه الاسوار مثلما بنيت الاسوار الاقدم منها فى عاى بأحجار صغيرة نسبيا مرتبة على صورة مداмик غير منتظمة . ويلى هذه الاسوار فراغ بينى أقيمت فيه حصون من اللبن فى معظمها ، كما سبق الوصف . ومن المراحل الاخيرة للعصر البرونزى المتوسط الثانى ، تأتى كل الاسوار الحجرية الرأسية والاسوار المنحدرة (شكل ٦) . وقد وجدت فى شكيم وأريحا أمثلة بديعة من أسوار منحدرية السطح فرشها (الجزء السفلى منها) مشيد بكتل حجرية ضخمة متعددة الوجة وسطحه الخارجى منحدر (بانبعاج فى معظم الاحيان) ، بينما سطحه الداخلى رأسى . وعلى القمة المسطحة لفرش البناء المنحدر هذا شيد جزء علوى من الجدران الرأسية من اللبن . والجدران الحجرية للفرش من النوع الهائل الحجم ذى الزوايا والاضلاع الكثيرة المعروف باسم Cyclopean ^(١) وهى مكونة من جلايد حجرية سائبة ، كبيرة الحجم متعددة الوجة ، ركبت سطوحها الغير منتظمة بعضها فوق بعض ، ثم ملئت الشقوق بحجارة صغيرة وسوى السطح الخارجى كله بالدق بالشحوطة . وبلغ عرض بعض الكتل الحجرية فى هذه الاسوار أكثر من مترين ، وبلغ أقصى ارتفاع للسور المنحدر الذى وجد قائما فى شكيم عشرة أمتار ، ووجد خلفه سور منحدر أقدم منه شيد بحجارة من الدقشوم . ويرجع تاريخ كلا الجزئين الضخمين للسور اللذين وصفناهما الان الى القرن السابع عشر أو أوائل القرن السادس عشر قبل الميلاد . وفى بعض الاحيان كان بينى بدلا من الاسوار المنحدرة ، منحدرات من الحجر مشيدة بنفس الطريقة ، تستند على جدران أقدم ، أو مشيدة مباشرة على أنقاض عمران أقدم ، والسور الذى وجد فى الطبقة D (د) فى تل بيت مرسيم ، والذى يبدو أنه أقيم فى أواخر القرن السابع عشر ، كانت بعض أجزائه من هذا النوع . ونجد أيضا أسوارا رأسية دون اضافات للتحصين على مثال

(١) كلمة Cyclopean تعنى ضخمة أو هائل وهى صفة لباني من عصر ما قبل التاريخ تتكون من كتل كبيرة من الاحجار غير المستصلحة .
(المراجع)

الطرز القديمة . مواقع أخرى . ومن الامثلة الجيدة لمثل هذه الاسوار ، سور بيت زور من العصر البرونزى المتوسط الذى بنى بكثل من الدقشوم الضخم مثل السور الاقدم منه فى تل بيت مرسيم (ز) ، الا أن سمكه يبلغ ٢ مترًا فقط ، وبه برج يبلغ طوله حوالى عشرة أمتار وعرضه حوالى خمسة أمتار ، وربما شيد هذا السور فى أواخر القرن السابع عشر . وكان كثير من هذه التحصينات مشيدا بطريقة شديدة التماسك جدا ، حتى انها بقيت قائمة لقرون عدة ، ورممت كلما دعت حالتها لذلك . ويبدو ان طرز مبانى السور المنحدر والمنحدرات قد جاءت من آسيا الصغرى الى فلسطين ، اذ وجد منها فى الشمال أسوار من عصور أقدم بكثير مما وجد فى فلسطين ، وتظهر أمثلة بديعة منها فى علاياخ (تل عطشانة) وأوجاريت فى شمال سوريا .

وثمة خاصية أخرى بالغة الاهمية يتميز بها العصر البرونزى المتوسط الثانى ، هى أن بوابة الحصن بها ممران أو ثلاثة ممرات ، على جانبى كل ممر منها زوج من الاعمدة الضخمة ، وكانت كل الاعمدة الاربعة أو الستة ذات حجم واحد ومنظمة بطريقة متماثلة فى صفين متوازيين . وهذا الطراز من البوابات الذى كان له تاريخ سابق طويل وتطور تدريجيا بعد القرن السادس عشر الى طرز جديدة مقتبسة منه ، نشأ أولا فى بلاد ما بين الرافدين حيث ظهر فى القصر الكبير فى زيمرى - ليم فى مارى فى القرن الثامن عشر قبل الميلاد . ويوجد هذا الطراز من البوابات فى طبقات العصر البرونزى المتوسط فى كل مواقع فلسطين، ونذكر منها بصفة خاصة البوابات الثلاثية الممرات التى كشف عنها فى شكيم ومجدو . ولم تكن هذه البوابات الاثرية خلاصة فى مظهرها فحسب ، بل الابد وأنها كانت أيضا ذات أثر فعال فى الدفاع والا لما استمر هذا الطراز طويلا بهذا القدر . وكقاعدة عامة يبدو أنه كان على جانبى كل من هذه البوابات برجان كان يمكن الوصول اليهما عن طريق مطلع صاعد من الوادى خارج المدينة . وقد لا يكون من اللازم أن نبين هنا أن ظهور البوابات الثنائية أو الثلاثية كان مرتبطا ارتباطا وثيقا باستخدام العربات الحربية التى تجرها الجياد ، اذ هو أمر واضح . وكانت أضيق هذه البوابات ، مثل تلك التى توجد فى تل بيت

مرسيم كافيّة ، لمرور عربة مفردة بينما كانت أوسع البوابات المعروفة
لدينا كافيّة لمرور عربتين في نفس الوقت خلال ممراتها •

وقد سبق أن تحدثنا عن ثروة فلسطين في العصر البرونزي المتوسط
الثاني ، لكن حالة الرخاء النسبي الذي حظيت به فلسطين في هذا العصر
لا تعني بالضرورة أن البلاد كانت في سلام ، أو أن الرجل العادي كان
ولا بد في حالة رغبة من العيش • وفي الواقع ، كان الامر على نقيض
ذلك ، إذ لم يمر في تاريخ فلسطين عصر اختل فيه الامن العام قدر
اختلاله في هذا العصر • ففي تل بيت مرسيم مثلا ، حدث دمار شامل
أربع مرات على الاقل ، علاوة على أربع مرات أخرى لدمار جزئي ،
وذلك خلال قرنين ونصف قرن (١٨٠٠ - ١٥٥٠ ق م •) • وفي
مجدو في نفس الفترة حدث دمار شامل خمس مرات على الاقل ، ولا
يعرف حتى الان عدد المرات التي تعرضت فيها هذه المدينة لدمار
جزئي • ولا شك أن بعض حالات الدمار الجزئي هذه ، قد حدثت نتيجة
لهزائم حربية ، غير أنه لم يترتب عليها هجر المدينة وتكون طبقة جديدة
من الانقاض • وأحيانا تعكس بعض حالات الدمار هذه ، وقوع كارثة
زلزالية ، كما حدث مرة في بيت ايل • وكانت البلاد في ذلك العهد
تحت حكم أمراء كانوا في حرب دائمة بعضهم مع بعض ، ولذلك فقد
أحاطوا بمقر حكمهم بتحصينات ضخمة مثل الاسوار الضخمة المنحدرة في
شكيم وأريحا • ولسنا نجد في أي عصر آخر في تاريخ فلسطين مثل هذا
العدد الكبير من المراكز المحصنة تحصينا قويا حتى انها لتبدو في الغالب
كما لو كانت قلاعاً لا مدناً • وكان هؤلاء الحكام الكنعانيون محاطين
بمجموعة من أقربائهم الاشراف وأتباعهم المخلصين ، ولا بد أن جمهور
عبيد الارض النصف أحرار كانوا يعيشون في حالة بؤس إذ يبدو هذا
واضحا من الفرق الكبير بين قصور الاشراف وأكواخ عامة الشعب •
وفي العصر البرونزي المتأخر نجد عددا وافرا من الوثائق التي توضح
نفس هذا التباين في الحياة الاجتماعية بين النبلاء وعبيدهم •

وقد تم الكشف كسفا كاملا أو جزئيا عن عدد غير قليل من القصور
ومساكن الاشراف من العصر البرونزي المتوسط ، ولعل أحسنها حفظا ذلك
المسكن الذي كشف عنه في الطبقة D (د) في تل بيت مرسيم (شكل ٧) •
وربما أقدم هذا المسكن في أواخر القرن السابع عشر ، ثم أعيد

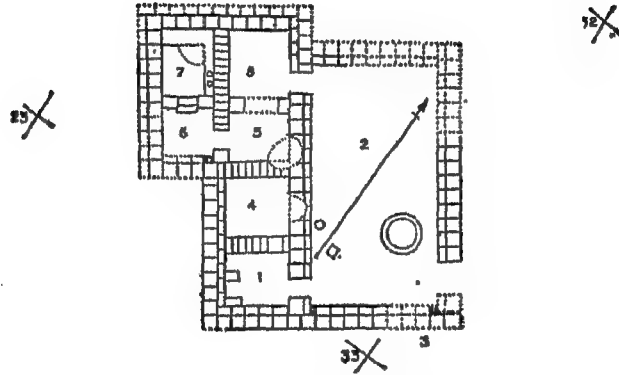
بناؤه بعد تدميره تدميرا كاملا فى النصف الاول من القرن السادس عشر قبيل الفتح المصرى لفلسطين ، وقد وجدت مبان مماثلة لهذا المسكن ، لكنها أوسع ، فى مجدو وبيت ايل وبالقرب من شكيم ، وفى أريحا ، وفى أماكن أخرى (شكل ٨) • وأعظم قصر وجد من هذا العصر حتى الآن يقع فى طبقة القرن ١٧ - ١٦ فى تل العجول • وتبلغ مساحته بما فى ذلك الحوش الداخلى حوالى ألفى متر مربع أى نصف فدان وسمك جداره الخارجى متران ، وهو مبنى بطوب من اللبن على السفلى المرتفع من الحجر الذى كان من أخص مميزات هذا العصر • وكان تل العجول يقع بالقرب من نهاية الطريق الصحراوى بفلسطين الذى كان يصل أفارييس عاصمة الهكسوس بالجزء الاسيوى من امبراطوريتها ، ولذلك فليس بمستغرب أنه يكون قد حصن تحصينا قويا وشيد به قصر يبلغ فى أبعاده قصور الامراء • وقد تألفت كل هذه القصور ومساكن الاشراف من فناء وصف واحد أو صفوف من الحجرات المتصلة به ، وكان أصحاب المنزل يقيمون فى الطابق الثانى ، كما يتضح من ملاحظتنا عن تل بيت مرسيم •

ومعظم القطع الاثرية التى يرجع تاريخها الى هذا العصر فى متاحفنا وجدت فى مقابر فى كهوف تحت سطح الارض ، وكانت هذه المقابر عادة مقابر عائلات واستمر استعمالها لهذا الغرض أحيانا عدة أجيال • ونجد أيضا مقابر أفراد وتتكون كل منها من بئر رأسية تؤدى الى غرفة تحت الارض تتصل بالبئر عن طريق باب جانبى • وقد زودت عادة مقابر النبلاء الاثرياء ومقابر نسائهم بأسلحة وحلى ثمينة • ولم تكن مقابر الكهوف على ما يبدو قاصرة على طبقة واحدة ، كما يدل على ذلك التفاوت الكبير فى قيمة الاشياء التى وضعت فى الكهوف المختلفة ومن الهياكل العظيمة المختلفة التى وجدت بها • ومن الطبيعى أن هذه المقابر قد احتوت دائما على كميات وفيرة من الفخار (شكل ٩) •

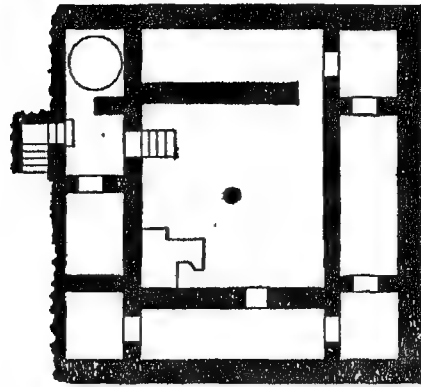
ومن الخصائص المميزة لفخار العصر البرونزى المتوسط الثانى أن كل أجزائه قد شكلت فى الواقع على عجلة الفخار وكان التشكيل اليدوى ناقصا فقط على صنع أرخص الانواع مثل قدور الطهو وما الى ذلك • وأشكال هذا الفخار بديعة جدا ومنحنياتها ذات نسب متناسقة تتناسقا تماما ، وبها ثنيات حادة تدل دون شك على أن طرزا سابقة لاوان معدنية

قد قلدت بأمانة لصنع هذه الاوانى من الطين * ولتقوية تقليد المظهر المعدنى ، طليت سطوح الاوانى الممتازة منها بطبقات سميكة من الكسوة الحمراء أو الصفراء (الكريم) بينما كان الطين لايزال فى صلادة الجلد ، أى بعد أن تركت لتجف ببطء فى مكان ظليل وقبل أن تحرق ، ثم صقلت الكسوة على كل السطح صقلا جيدا بملوق من الحجر أو العظم حتى صار السطح لامعا كالنحاس أو الفضة * وبالرغم من جمال هذا الفخار فانه لم يصدر الى الاقطار الاخرى الا نادرا اذ أن فن صنع الفخار كان قد وصل الى مستوى عال من الاتقان فى تلك الاقطار أيضا ، أضف الى ذلك أن الاوانى المصنوعة من المعدن أو المرمر كانت تفضل كثيرا على الاوانى الفخارية الارخص فى معظم هذه الاقطار * ولم يوجد فى فلسطين شئ أجمل من فخار كاماريس Kamares من العصر البرونزى الكريتى الذى كان عليه اقبال عظيم فى مصر * ومن أشهر أنواع الفخار فى العصر البرونزى المتوسط النوع المعروف بأبريق تل اليهودية ، وهو اناء كمثرى الشكل ذو يد واحدة وقاعدة زرية button base ، أو ذو يدين وقمته مزينة بحلية على شكل مسمار برشام (متسلسلة وراثيا من الطرز المعدنية السابقة) * وكان سطح هذه الاوانى عادة أسود مصقولا للغاية ومزينا بوخزات بيضاء طباشيرية موزعة فى أشكال هندسية بسيطة * وقد استعملت هذه الاوانى لحفظ العطور ، وشاع استعمالها جدا عن طريق التجارة ، ولذلك فقد اتخذها علماء الآثار لدة طويلة علامة مميزة لتاريخ عصر الهكسوس (مع أن استعمالها كان قد بدأ قبل عصر الهكسوس) *

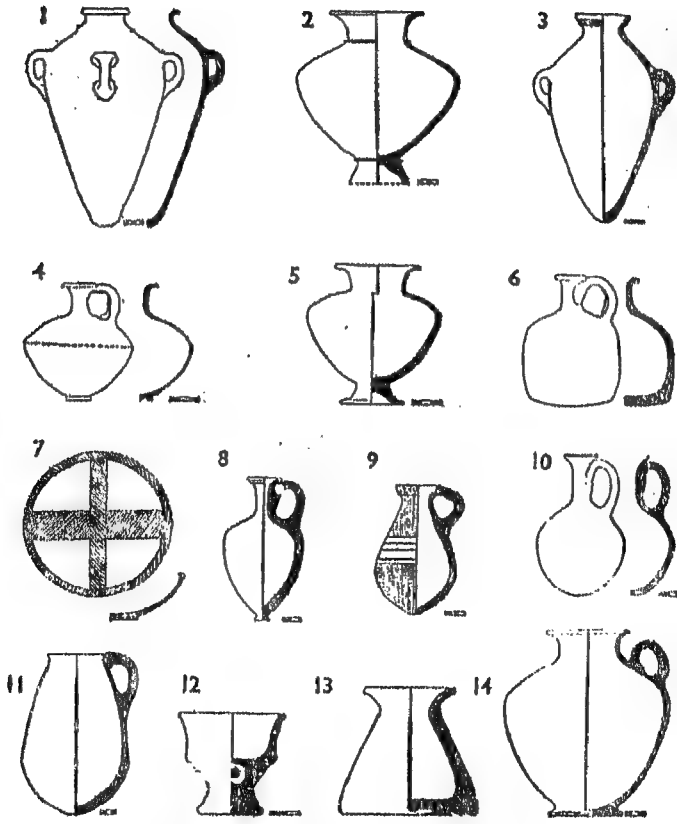
ونحن نعلم الكثير عن الفن فى العصر البرونزى المتوسط ، ومع ذلك فمعلوماتنا هذه أقل بكثير مما كنا نتوقع أن نعرفه بعد تنقيب مناسب لم تعبت بها يد من ذلك العصر فى بعض أهم المدن الكنعانية فى فينيقية وسوريا * والكشوفات التى تمت حتى الآن فى فلسطين وفى جيبيل بفينيقية قد أثبتت أن الفن الكنعانى قد اعتمد اعتمادا كبيرا على الاقتباس من الفن المصرى ، وخاصة فى العشرات الاخيرة من عصر الدولة الوسطى فى مصر (من القرن التاسع عشر الى القرن الثامن عشر ق . م *) ، كما يتضح من الآثار التى وجدت فى جيبيل * أما فى عصر الهكسوس ، فاننا نجد فنا محليا أكثر ابتكارا ، وفى نفس الوقت



شكل ٧ — مسكن شيخ من طبقة د في تل بيت مرسيم
(حوالي ١٦٠٠ ق. م.)



شكل ٨ — فيلا من عصر البرونز المتوسط عند سفح جبل جرزيم



شكل ٩ — فخار من عصر البرونز المتوسط الثاني
في متحف فلسطين

الذى قلدت فيه مخليا صناعة الجعلان والصدريات والاولانى المرمر
المصرية ، نلمح مبادئ ظهور فن مستقل رفيع • ويتمثل هذا الفن في
المشغولات المعدنية المحفورة الجميلة ، مثل المشابك التى استعملت لشبك
الاثواب معا • ويظهر هذا الفن أيضا فى التطعيم بالعاج والعظم (شكل
١٠) ، كما يظهر قليلا فى اللوحات مثل لوحة الالهة التى على شكل
حية التى وجدت فى تل بيت مرسيم • أضف الى كل هذا
أن الكنعانيين قد برعوا فى صناعة النسيج وصباغة الاقمشة
الصوفية بألوان حمراء (ارجوانية) بصبغة مستخرجة من أحد أنواع
السبك الصدفى المسمى ميوركس ، غير أنه لم تبق منها لاسف أى بقايا
محفوظة بسبب عوامل التلف لمدة خمسة وثلاثين قرنا •

وبالفتح المصرى لفلسطين فى حوالى منتصف القرن السادس عشر يبدأ
العصر البرونزى المتأخر * ولا يزال ثمة بعض الخلط بين المرحلة الاولى
لهذا العصر التى قد نسميها « العصر البرونزى المتأخر ١ أ » وبين
العصر البرونزى المتوسط الذى ظل ينسب اليه لوقت طويل معظم الفخار
المميز لهذه المرحلة * غير أن وضع الحد الفاصل بين هذين العصرين عند
هذه النقطة يلائم خبراء الفخار أكثر من وضعه عند أى نقطة أخرى سبق
اقتراحها حتى الآن * فبين ١٥٥٠ ومنتصف القرن الخامس عشر
ق * م * نجد كميات كبيرة من نوع متماثل جدا من الفخار ، عليه
زخارف من لونين بأفاريز مقسمة الى حشوات تشبه الافاريز المعمارية
والزخارف داخل هذه الحشوات تتجه فى معظمها نحو
الطيور والسمك والاشكال الهندسية (*) * وكان الفخار الاكثر شيوعا
فى هذه الفترة يتألف بصفة خاصة من أوانى عميقة وأنواع متعددة من
الاباريق والقذور * ويحتل هذا النوع كل الصورة الفخارية فى تل
العجول (٢) ومجدو (٩) ، غير أنه غير موجود بالمرة فى تل بيت
مرسيم ، ولا شك أن ذلك ناتج من حدوث فترة انقطاع فى عمران هذا
الموقع بين تدمير المصريين له فى حوالى ١٥٥٠ ق * م * واستعماره من
جديد فى الطبقة C (ج) بعد عدة أجيال * وكان هذا الفخار شائعا



شكل ١٠ — ظباء تجرى . تطعيم على العاج
عصر البرونز المتوسط من تل بيت مرسيم
(حوالى ١٦٠٠ ق.م.)

(*) النى اطلق عليها union jack نسبة الى شكل العلم البريطانى.
(المراجع)

جدا على الساحل الكنعانى حيث وصل اليه من قبرص ، ومن قبرص صدر الى مصر وما وراءها من بلاد * وان خلو أريحا تماما حتى الان من هذا النوع وأنواع الفخار الاخرى المعاصرة له ، لدليل قوى على حدوث فترة انقطاع فى تتابع العصور بها ، كما حدث فى تل بيت مرسيم المعاصرة * .

والى أن صدر حديثا كتاب « المعبد الكاذب » Fosse Temple لخيش ، كانت المرحلة التالية ، وهى مرحلة العصر البرونزى المتأخر (١٠ ب) لا تعدو أن تكون طفلا ريبيا ، اذ كانت معروفة فقط من المقابر لا من المخلفات الاستراتيجرافية * ومعظم الفخار من الطبقة الاولى بالمعبد الكاذب من الطراز الذى يتميز به العصر البرونزى (١٠ ب) ، ولو أن المبنى نفسه لا بد وأن كان قد أقيم قبل نهاية القرن السادس عشر ق * م * وأقدم طبقة من العصر البرونزى المتأخر فى بيسان (بيت شان) ، وهى الطبقة التاسعة ، عزيت أولا الى القرن الخامس عشر (عهد تحتتمس الثالث) ، غير أنه ثبت أن الفخار الذى وجد بها يرجع الى القرن الرابع عشر (غير أن هذا لا ينفى أن يكون أساس الحصن المصرى بالموقع من القرن الخامس عشر) * ويرجع تاريخ كل من الطبقة (ج ١) فى تل بيت مرسيم وطبقة العصر البرونزى المتأخر المعاصرة لها فى أريحا الى القرن الرابع عشر بصفة أساسية لا الى القرن الخامس عشر كما كان يظن أولا * .

ومن الصعب تقسيم المرحلة الثانية من العصر البرونزى المتأخر بدقة، غير أنه بالرغم من وجود ملامح كثيرة مشتركة ، فإنه توجد أيضا أوجه اختلاف كافية تمكننا من تقسيمه بتبصر الى مرحلتين : العصر البرونزى المتأخر ٢ أ (القرن الرابع عشر تقريبا) والعصر البرونزى المتأخر ٢ ب (القرن الثالث عشر تقريبا) * وتمثل أولاهما عصر العمارة وفترة الانتقال من الاسرة الثامنة عشرة الى الاسرة التاسعة عشرة فى مصر ، بينما تعكس الثانية عصر الرعامسة * . وحيثما توجد كمية وفيرة من فخار متنوع فى مستودع واحد له صفات متجانسة (حتى تكون كل أنواع الفخار التى بالمستودع من نفس الوقت تقريبا) ، فإن وضع بعض قواعد بسيطة سيساعدنا فى ايجاد الترتيب التاريخى لهذا المستودع فى العصر البرونزى المتأخر * فوجود أى فخار ميسينى من بلاد اليونان يدل على أن تاريخه يتراوح بين ١٤٠٠ و ١٢٣٠ ق * م * .

اذ توقف استيراد هذا الفخار بعد هذا التاريخ • وفيما عدا بضعة أمثلة قليلة جدا لاستيراد فخار ميسيني أقدم ، فان كل قطعة من أصل ايجي وجدت فى فلسطين انما تنتمى حقيقة الى العصر الميسيني المتأخر (الهيليني المتأخر الثالث) • والفخار الحلقى القاعدة من قبرص (وهو عادة أسود أو بنى داكن أو رمادى غامق قاعدته مشككة بالضغط فى حلقة معدنية) نادرا ما يكون تاريخه بعد العصر البرونزى المتأخر ٢ أ ، اذ أنه اختفى بسرعة بعد بداية القرن الثالث عشر • والسلطانيات القبرصية ذات المقابض التى على شكل عظمة اليد ، وهى عادة ذات لون سمى أو رمادى مائل الى الزرقة ، ومزينة بوحدات زخرفية على شكل « سلم » جرى استعمالها خلال كلا المرحلتين (٢ أ) و (٢ ب) ، على أنها كانت أكثر شيوعا نسبيا فى المرحلة (٢ ب) •

وقد ظلت حضارة فلسطين فى العصر البرونزى المتأخر قليلة الصلة بالحضارة الكنعانية الأكثر غنى فى فينيقيا وجنوب سوريا ، ولولا تأثيرها بالحضارات الشمالية ، لكانت فلسطين قد فقدت بسهولة حضارتها الاصلية وأضحت حضارتها صورة منعكسة للحضارة المصرية • وقد ظلت فلسطين خلال كل هذا العصر جزءا لا يتجزأ من الامبراطورية المصرية ، وليس ثمة أى دليل على أن أيا من التمردات العديدة التى قامت بها بعض العناصر المعادية قد استمرت لاكثر من سنوات قليلة على الاكثر • ولدينا أدلة وافرة من مصادرنا ، ولو أنها متقطعة ، عن حدوث بعض الثورات • فقد دمر تل الحسا ثلاث مرات خلال العصر المذكور ، أو أربع مرات اذا أضفنا اليها التدمير الذى حدث فى الطبقة الرابعة فى نهاية هذا العصر • ودمرت مجدو مرتين • والقلعة المصرية فى بيسان التى أقيمت فى القرن الخامس عشر على ما يبدو ، دمرت مرتين على الاقل قبل منتصف القرن الثالث عشر • وطبعا لم تكن التدميرات فى عصر السلم المصرى بالكثرة التى كانت عليها فى العصر البرونزى المتوسط السابق أو العصر الحديدي المبكر اللاحق (※) ، اذ حظيت البلاد ببعض

* أى اثناء الفترات التى لم تكن فلسطين خلالها جزءا من الامبراطورية المصرية ، ومن الثابت من خطابات العمارنة أن فلسطين كانت فى حالة استقرار اثناء انضمامها لمصر وانها كانت تتمتع برخاء وازدهار ثقافى وتجارى •

[المترجمان]

الاستقرار ، كما كانت ولايات المدن بصفة عامة ، محمية ضد الغزو من الخارج •

وكما عرفنا آنفا ، لم يتغير فن إقامة الحصون الا قليلا خلال العصر البرونزى المتأخر ، ويمكن أن يقال نفس الشيء بالنسبة لفن بناء منازل الاشراف التى لم تزل تتألف من صفوف من الحجرات المفردة أو المزدوجة حول فناء فسيح • وقد وجدت أمثلة جيدة لهذه المنازل فى تعنك ، ومجدو ، وبيت ايل وغيرها • ووجد فى بيت ايل نظام جيد لانايبب صرف مبطنة بالحجر تجرى تحت الارضيات الجصية لمنازل الاشراف لتصريف مياه المطر ومياه المجارى الى خارج أسوار المدينة • ونلاحظ تقدما كبيرا فى أحد الوجوه ، وهو الكتابة ، خلال فترة الحكم المصرى لفلسطين ، اذ زاد استخدامها أكثر فأكثر بالتدريج (انظر الباب الثامن) • وكان الكنعانيون ملمين فى العصر البرونزى المتأخر بأربعة نظم للكتابة على الاقل ، بل ربما خمسة نظم ، استخدموها كلها فى بعض الأحيان لكتابة لغتهم الخاصة • وكانت هذه الخطوط الخمسة هى :

١ - المسمارى الاكادى (بلاد ما بين الرافدين) •

٢ - الهيروغليفى المصرى •

٣ - الابجدية الخطية التى انحدرت منها فى النهاية الابجدية الافرنجية •

٤ - الابجدية المسمارية فى أوجاريت •

٥ - الكتابة ذات المقاطع فى جيبيل (ولو أنه يحتمل أن تكون هذه قد بطل استعمالها خلال العصر البرونزى المتأخر) •

غير أنه ليس لدينا دليل على أن أيًا من هذه الخطوط ، فيما عدا الخطين (٣) و (٤) ، قد استخدم بصفة منتظمة لكتابة اللغة الكنعانية ، ولم يستخدم فى الواقع الخطان (١) و (٢) لهذا الغرض الا لاما • ومن حسن الحظ بالنسبة لنا ، أن الكنعانيين فى هذا العصر سجلوا معظم كتاباتهم بالخط المسمارى الاكادى باللغة الاكادية ، وهى مأخوذة عن بلاد ما بين الرافدين فى العصر البرونزى المتوسط • ولما كان الخط المسمارى يكتب على لوحات من الطين فان كثيرا من هذه



شكل ١١ — لوح لسيتي الاول من بيسان (حوالي ١٣١٨ ق.م.)

اللوحات قد قاوم عوامل التلف بمرور الزمن ، وعثر الاثريون على عدد كبير منها . وقد عثر حتى الان فى الحفائر الفلسطينية على حوالى عشرين لوحيحة بالخط المسمار من القرنين الخامس عشر والرابع عشر : منها اثنتا عشرة لوحيحة فى تعبك والبقاى فى تل الحسا ، وجازر ، وشكيم ، وأريحا ، ومجدو (١٩٥٥) . والى هذه اللويحات يجب أن يضاف ما يقرب من مائة وخمسين لوحيحة بالخط المسمارى وجدت فى تل العمارنة بمصر الوسطى عام ١٨٨٧ ، كما كتب بهذا الخط ما يقرب من مائتى لوحيحة أخرى من نفس المجموعة فى أماكن أخرى معظمها فى سوريا وفينيقية . وتحت ظروف حفظ مناسبة ، تكاد تكون هذه اللويحات غير قابلة للتلف الى درجة أنه عندما عثر بليس Bliss على أول لوحيحة منها فى فلسطين عام ١٨٩٢ ظننا من الحجر .

وخطابات العمارنه التى أرسلت من الحكام الكنعانيين الموالين لمصر الى البلاط الملكى فى مصر ، تعكس غمرا من الضوء على الحياة العامة والحياة السياسية فى فلسطين فى تلك الايام . وتحتوى اللويحات التى وجدت فى فلسطين خطابات ووثائق معاملات تجارية ، وقوائم ادارية . وقد تكشف الايام لنا صدفه أرشييفا فلسطينيا كاملا من هذا العصر ، كما أنه ليس بمستبعد أن توجد فى فلسطين يوما ما نصوص دينية مكتوبة بالابجدية المسمارية مثل الوثائق التى وجدت فى أوجاريت من القرنين الخامس عشر والرابع عشر ق . م .

وقد أقيمت لوحات وتمائيل مصرية فى مدن وقلاع كثيرة فى فلسطين ، وقد وجد فعلا فى بيسان (بيت شان) التى كانت مدينة لحامية مصرية ثلاث لوحات ملكية مصرية ، وجزء من لوحة رابعة، وتمثال ملكى ، ولوحات لاشخاص ونصوص مصرية أخرى (شكل ١١) ، واكتشف جزء من لوحة لتحتمس الثالث أو أمتحتب الثانى فى شنفرith (تل العريمه) ، كما وجدت كتابات مصرية أخرى فى أماكن متعددة من مناطق العمران المختلفة فى ذلك العصر . ولا شك فى أن ثمة مستندات كثيرة مكتوبة فى غاية الاهمية تاريخيا لا تزال مطمورة فى تلال فلسطين .

ولدينا الان عديد من المعابد والهيكل والاثار الدينية من العصر البرونزى المتأخر . ففى لخيش كشف عن هيكل يرجع تاريخه الى

الفترة من ١٥٠٠ الى ١٢٣٠ ق م • ، وقد أعيد بناؤه مرتين خلال هذه الفترة ولخلفات كل مرحلة منها أهمية كبرى فى الترتيب التاريخى (كما سبق الذكر) • وفى مجدو ، وجد معبد من ثلاث مراحل فى انطبقات ٨ - ٧ (حوالى ١٤٠٠ - ١١٥٠ ق م •) ، وفى بيسان كشف عن معبدتين على الاقل من العصر البرونزى المتأخر فى الطبقتين (٩) و (٧) ، وهما ينتميان الى القرنين الرابع عشر (لا القرن الخامس عشر كما كان يظن أولا) والثالث عشر (لا القرن الرابع عشر) على التوالى ، أما الثلاثة معابد الاخرى بهذا الموقع فترجع الى عصر الحديد (كما سنذكر فيما بعد) • وبفضل تشابه المسقط الأفقى لمعبد كشف عنه شيفر Schaeffer فى أوجاريت ، مع المسقط الأفقى للبناء الضخم الذى يوجد عند البوابة الشمالية فى شكيم والذى أرخه فيلتر Welter بحوالى القرن الرابع عشر ، يمكن الان تعريف هذا البناء بأنه معبد ، بعد ان كانت ماهيته موضع خلاف بين سيلين Sellin وفيلتر • وكان يبلغ طول هذا البناء ٢٥ مترا ، وعرضه ٢١ مترا ، وكان مزودا بجدران خارجية مصممة يبلغ سمكها خمسة أمتار ، وعلى جانبيه المدخل برجان ، وفى داخله كان يوجد صفان من الاعمدة يتألف كل منهما من ثلاثة أعمدة ، ولا شك أن هذا البناء الحجرى الذى كشف كان يحمل أصلا طابقين أو أكثر من اللبن • وفى أوجاريت ومجدو تدل مساقط أفقية مماثلة على وجود جدران لها نفس السمك ، ولذلك لا بد أن كانت هناك مجموعة كاملة من المعابد الكنعانية التى تتألف من عدة طوابق • ولاشك أن تكوين هذه المعابد قد انعكس فى التفاصيل المتعددة الطوابق الاحداث تاريخيا فى بيسان •

ومن جهة أخرى لم يعد هناك أى سبب الان لاعتبار المبنى الذى يسمى « مرتفعة جازر » (الذى كان لا يزال مستعملا فى العصر البرونزى المتأخر مع أنه ، على ما يبدو ، قد أسس فى حوالى نهاية العصر البرونزى المبكر) هيكلا بالمعنى الدقيق لهذا الاصطلاح • ويظهر بالاحرى أنه كان مقصورة جنائزية اذ أن تخطيط الاحجار التى لاتزال قائمة به يطابق تخطيط المنهيرات المعاصرة له فى معبد داجون فى أوجاريت وفى حقل اللوحات فى آشور • « ومرتفعات » عصر الحديد اللاحق ، التى ذكرت مرات عديدة فى التوراة ، كانت هى الاخرى مبان مكتشوفة مثل مرتفعات الانباط فى البتراء (أنظر الباب السابع) •

ومن أكثر أنواع الآثار الدينية شيوعا فى مناسيب العصر البرونزى المتأخر ، اللوحات التى تسمى « لوحات عشتاروت » (شكل ١٢) وهى لوحات من الفخار بيضاوية الشكل عادة ، مطبوع عليها بالضغط (بواسطة قالب من الفخار او المعدن) صورة أمامية عارية للالهة عشتاروت ، ذراعاها مرفوعتان الى أعلى ، ويداه ممسكتان بسيقان لوتس أو بحيات أو بكليهما، ورأس الالهة مزينة بخصلتين من الشعر مماثلتين لخصلتى شعر الالهة حتحور فى مصر . وقد اقتبست هذه اللوحات من بلاد ما بين النهرين حيث كان لها تاريخ سابق فى العصر البرونزى المبكر . وقد وجدت أيضا فى فلسطين أنواع أخرى من الالهات العاريات على شكل لوحات أو على شكل تماثيل صغيرة .

وقطع الفن الكنعانى التى وجدت فى طبقات العصر البرونزى المتأخر أقل الان مما كان يظن بصفة عامة أولا ، اذ من المعروف حاليا ان كثيرا مما كان يعتقد من قبل بانه ينتمى الى هذا العصر ، انما يرجع تاريخه فى الواقع الى عصر أحدث . فترجع مثلا الى عصر الحديد الاول حوامل المباخر والتوابيت الادمية الشكل التى وجدت فى بيسان ، وغطاء الصندوق العاج الذى وجد فى تل الفرعه ، وتابوت أحيرام الذى وجد فى فينيقية . ومعظم القطع العاج (لكن ليس كلها) التى وجدت فى الخبيئة الكبيرة بمجدو ، ترجع الى القرن الثانى عشر (كما سنذكر فيما بعد) (شكل ١٣ - ١٤) . ومع ذلك ، فبفضل الكنز الاثرى الثمين الذى عثر عليه فى أوجاريت من العصر البرونزى المتأخر ، نعلم أن الفن الكنعانى كان أغنى بكثير مما كنا نظنه على أساس الحفائر التى جرت فى فلسطين . فالتاسان الذهبيان الجميلان المسبوكان اللذان وجدتهما شيفر فى أوجاريت، من القرن الخامس عشر او الرابع عشر ، مثل حى لمستوى الفن الكنعانى الذى يجب ان نتوقع وجوده فى المراكز الفنية . غير أن معظم المواقع الفلسطينية فى هذا العصر كانت مواطن رؤساء قبائل فقراء ولذلك لايمكن أن نتوقع أن نعثر فى هذه المواقع على كنوز فنية . أضف الى ذلك أن فلسطين كانت قريبة جدا من مصر ، ومن ثم فقد كان فيها تحت التأثير الدائم للفن المصرى ، ولذلك فقد كانت معظم منتجاتها الفنية تقليدا هزىلا للمنتجات الفنية المصرية الاصلية . ويظهر هذا التأثير بوضوح فى بيسان ولخيش ، حيث نجد مستوردات مصرية وتقليدات محلية ، غالبا ما تكون أقل منها بكثير فى



شكل ١٢ - لوحيات عشتاروت من تل ميت مرسيم
أرقام من ١ - ٥ من عصر البرونز المتأخر و ٦ - ١٠ من عصر الحديد الأول



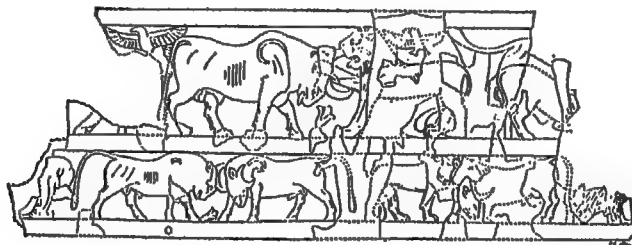
شكل ١٣ — صندوق من العاج مزخرف باسود
وملائكة خرافية من مجدو (حوالي القرن الثالث قبل الميلاد)



شكل ١٤ — عاج مشكل على هيئة ملاك خرافي ، من مجدو ،
أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد

مستواها الفني (شكل ١٥) كما كان ثمة أيضا تأثير أجنبي كبير من جزر ايجيه وخاصة في الفخار • ومن الامثلة الجيدة المستوردة من سوريا ، اللوح البازلت الذي وجد في بيسان ويرجع تاريخه الى القرن الرابع عشر (لا الخامس عشر) ، وعليه منظران لصراع بين أسد وكلب ضخيم ، وربما كان هذا اللوح جزءا من الغنائم المصرية في الحرب • وتبين المنحوتات التي وجدت في أوجاريت تدهورا واضحا في المهارة الفنية فيما بين القرن الخامس عشر والقرن الثالث عشر • ويظهر نفس التدهور في فلسطين ويبدو هذا واضحا في تمثال الاسد والسلطانية القليلة الغور المزينة برؤوس أسود ، المصنوعين من الحجر الجيري بطريقة ركيكة بدرجة غير معقولة ، ويرجع تاريخ كليهما الى القرن الثالث عشر ، وعثر عليهما في تل بيت مرسيم •

وقد وجدت هاتان القطعتان في حفرة للمهملات بالقرب من مبنى لم يكشف عنه بعد (قد يكون معبدا) بالجزء الاخير من الطبقة (جـ) (من القرن الخامس عشر الى أواخر القرن الثالث عشر) • وتنتشر في كل المكان آثار تدمير عنيف بسبب الحريق الذي تعرضت له آخر مدينة كنعانية في هذا الموقع (الذي يحتمل ان يكون بلدة دبير المذكورة في يشوع ١٠ : ٣٩) على يد الغزاة الاسرائيليين • وقد تسبب حريق مدمر مماثل في القضاء المبرم على لخيش المعاصرة لها في تاريخ يستحيل أن يكون سابقا للسنة الرابعة من حكم مرنبتاج بن رمسيس الثاني وخليفته • وهذان التدميران اللذان حدثا في حوالي ١٢٢٠ ق • م • قد سبقهما تدمير اريحا وبيت أيل عند دخول بني اسرائيل الى أرض فلسطين ، وللأسف ، كل ما يمكننا تقريره بخصوص تاريخ هذين التدميرين الاخيرين هو أنهما حدثا عقب عصر استورد فيه الفخار الميسيني وقلد ،



شكل ١٥ — تطعيم على العاج من لخيش
(القرن الثالث عشر قبل الميلاد)

ولمنا نجد في أى من هذين الموقعين شققا كثيرا منتشرا ليعاوننا في تأريخهما ، اذ أن كل الحجرات كانت خاوية تماما ، وقطع الشقف التي وجدت بالطبقة المعنية قد تشير فى أغلب الاحيان الى وقت سابق للتدمير النهائي لهما بعشرات السنين • وتشير الادلة التي لدينا حاليا الى أن سقوط بيت ايل كان فى غضون القرن الثالث عشر ، أما بالنسبة الارياحا فقد أضحت مشكلتها أكثر غموضا بعد الحفائر التي أجرتها مس كينيون ، والتي بينت أن منسوب العصر البرونزى المتأخر قد تعرض كله تقريبا بسبب الرياح والامطار التي تعرض لها هذا الموقع خلال المدة الطويلة التي هجر فيها بعد الفتح الاسرائيلي •

وخلال العصر البرونزى المتوسط والبرونزى المتأخر ، كانت المنطقة الساحلية من جبل كاسيوس (الاقرع) بالقرب من انطاكية في شمال سوريا الى أقصى جنوب فلسطين ، آهلة بشعب من جنس مختلط يتكلم اللغة السامية للشمال الغربى بلهجات متقاربة جدا ، ولهم حضارة مادية ودينية مشتركة ، وامتدت حدودهم شرقا فى جنوب سوريا وفلسطين فى وقت من الاوقات حتى حافة منطقة العمران الدائمة • وبالرغم من بعض الاختلافات المحلية ، فان هؤلاء الكتعانيين (وهو الاسم الذى أطلقته عليهم الشعوب المجاورة ثم أطلقوهم هم على أنفسهم بعد ذلك) كانوا كلهم متجانسين جدا كالحثيين والاغريق القدماء • وكما رأينا ، كانت الحضارة الكتعانية متقدمة جدا فى بعض النواحي وريثة لدرجة مقزعة فى بعض النواحي الاخرى •

وبدخول بنى اسرائيل الى أرض فلسطين فى القرن الثالث عشر ، وغزو شعوب البحر لها فى أوائل القرن الثانى عشر ، ينتهى فى الواقع تاريخ فلسطين الكتعانية ، ولو أن وديان النهر والسهول ظلت لمدة قرنين آخرين آهلة بولايات المدن الكتعانية • لكن الكتعانيين كانوا قد استنفذوا كل نشاطهم الحضارى الذى سندهم حتى ذلك الوقت ، وبعد أقول طويل ودخول دم جديد ، بزغ منهم شعب حى جديد هو الشعب الفينيقي الذى قام بالانجازات المادية العظيمة لفلسطين فى عصر الحديد •

الفصل السادس

فلسطين فى عصر الحديد

يزعم البعض أحياناً أنه حدث تغير مفاجئ من تغلب النحاس والبرونز الى تغلب الحديد كمادة لصنع الآلات والأسلحة ، بينما يزعم آخرون أن التغير كان بطيئاً جداً ، والواقع أن كلا من هذين التقيضين غير صحيح . فالحديد الشهبى الساقط من السماء كان معروفاً منذ عصر ما قبل الأسرات فى مصر واستخدم فى صنع الآلات والأسلحة فى الألف الثالثة قبل الميلاد . وليس من السهل تمييز هذا الحديد الشهبى عن الحديد الأرضى بوجود نسبة قليلة من النيكل به فحسب (فى حين أن النيكل لا يوجد فى خامات الحديد الأرضية إلا بنسبة ضئيلة جداً) ، بل أن مصدره الشهبى ليبدل عليه صراحة كل من اسمه المصرى القديم « معدن السماء » وكتابته الرمزىة المسمارية . ولم يبدأ استعمال الحديد بكثرة لصنع الأسلحة ، مثل الخناجر ورؤوس الفؤوس والسيوف ، إلا فى القرن الرابع عشر . وفى القرن التالى ازداد استخدامه أكثر ، ولدينا خطاب بالخط المسمارى من عاصمة الحيثيين فى آسيا الصغرى يبين أن الحيثيين قد احتكروا استغلال هذا المعدن . ولم يبطل احتكار الحيثيين للحديد إلا بعد زوال إمبراطوريتهم فى حوالى ١٢٠٠ ق . م . ومن ثم نجد الحديد يحل محل النحاس والبرونز تدريجياً فى صنع الآلات والأسلحة ، وفى حوالى القرن العاشر كان الحديد هو المعدن الرئيسى لصنع سلاح المحراث والمناجل والأسلحة . وتحديد بترى للقرن الرابع عشر لشيوع استخدام الحديد فى فلسطين مبنى على تواريخه المطلقة الخاطئة ، إذ أن الحصر الدقيق لكل ما عثر عليه من آثار من الحديد فى ضوء ما ذكره مكتشفوها ليبدل بوضوح على أن الفلسطينيين استخدموا الحديد لأول مرة فى القرن الثانى عشر أو القرن الحادى عشر ق . م . (مقابر تل الفرع) وأن بنى إسرائيل بدأوا استعماله ببطء كبير ، إذ عاقهم عن ذلك احتكار الفلسطينيين له (صموئيل الأول ١٣ : ١٩ - ٢٣)

وقد حدث ارتباك شديد فى مسألة التقسيم التاريخى لعصر الحديد بسبب آراء المنقبين الاوائل فى كل من جازر وأريحا ، ثم زادت هذه المسألة غموضا من جراء اعطاء تسميات متناقضة لوحدات هذا التقسيم . وقد سبق ان أوضحنا بايجاز فى الباب الثانى كيف اضطر ماكاليستر الى خفض تاريخ عصر الحديد الاول بسبب محاولته ملء فجوة عمرانية غير معروفة تبلغ عدة قرون فى جازر . كما سبق ان أوضحنا كيف ضلل واتزينجر Watzinger بتعريف سللين بسبب خطأ للجدار المنحدر الضخم الذى يرجع الى العصر البرونزى المتوسط بأنه الجدار الذى بناه حيثيل البينثيلى فى أريحا فى القرن التاسع ق.م . (ملوك الاولى ١٦ : ٣٤) .

وبالرغم من رد الفعل الصحيح لما كثرى Mackenzie فى بيت شمس ، فان الترتيب التاريخى الاثرى لفلسطين كان قد وصل الى حالة ارتباك لا يمكن وصفها عندما بدأ المؤلف تنقيحاته فى جبعة شاول (تل الفول) عام ١٩٢٢ ، ومنذ ذلك الحين أخذت تتضح معالم الترتيب التاريخى المطلق لفلسطين ، ويرجع الفضل فى ذلك الى الاعمال التى قام بها فيثيان آدمز Phythian-Adams فى عسقلون (١٩٢٠) ، وهاميلتون Hamilton فى تل أبو هوام (١٩٣٣ - ١٩٣٤) ، والمؤلف فى جبعة وتل بيت هرسييم (١٩٢٦) وبيت ايل (١٩٣٤) ، ويريزنر Reisner (نشر عام ١٩٢٤) ، وكروفوت ومس كينون فى السامرة ، وشيبتون Shipton وآخرون فى مجدو (١٩٢٥) الخ . ويجب أن نؤكد هنا تأريخ المجموعات الفخارية ذات الصفات المتجانسة تجانسا كافيا من عصر الحديد ، فيما بين القرن الثانى عشر والقرن السابع ، قد ثبت الان داخل حدود ضيقة . وسنصف فيما يلى النقط الرئيسية لهذا التأريخ التتابعى . وفى نفس الوقت أود أن أوجه الانظار الى عدم جدوى العمل الاثرى فى فلسطين نسبيا ، ما لم تتم أولا دراسة التأريخ التتابعى لفخار كل عصر العهد القديم (التوراة) . وليس بغريب تحت هذه الظروف ، أن معظم علماء تاريخ الكتاب المقدس من الجيل السابق لجيلنا ، قد كفوا عن القيام بأى محاولة لاستخدام أى معلومات أثرية فى تأريخاتهم ، اللهم الا فى حالات وجود وثائق مكتوبة أو آثار معمارية غير عادية أو قطع آثار متحفية .

وبينما كان التأريخ التتابعى للفخار فى طريق الاستقرار ، نشأ ارتباك جديد فى التأريخ الاثرى لعصر الحديد بسبب التضارب والتناقض فى التسمية ، ففي سنة ١٩٢١ ، رتبت مدارس الاثار الرسمية الثلاثة (الانجليزية والفرنسية والامريكية) فى القدس ، بالاشتراك مع مصلحة الآثار الفلسطينية ، العصور التاريخية لفلسطين فى نظام قسم فيه عصر الحديد الى الاقسام الاتية : -

١ - عصر الحديد المبكر (الفلسطينى) ، ١٢٠٠ - ٦٠٠ ق م .

(ا) فلسطينى Philistine (ب) اسرائيلى Israelite .

٢ - عصر الحديد المتوسط (الفلسطينى) ، ٦٠٠ - ١٠٠ ق م .

(ا) يهودى Jeish (ب) هيلنستى Hellenistic .

وقد تقيد المؤلف بهذا التقسيم فى تنقيباته الاولى ، وقسم عصر الحديد المبكر الى عصر الحديد المبكر الاول (١٢٠٠ - ٩٠٠ ق م) وعصر الحديد المبكر الثانى (٩٠٠ - ٦٠٠ ق م) غير أنه اضاف اليهما بعد ذلك « الحديد المبكر الثالث » ليستوعب الفترتين البابلية والفارسية . ثم حدث بعد ذلك أن استبدل كلارنس فيشر هذا التقسيم الاصلى الرسمى بتقسيم آخر هو « الحديد المبكر » (١٢٠٠ - ٩٠٠) والحديد المتوسط (٩٠٠ - ٦٠٠) والحديد المتأخر (٦٠٠ - ٣٠٠) وترتب على هذا التغيير والتبديل أن كان المنقبون فى مجدو مثلايستخدمون الاصطلاح « عصر الحديد المبكر الثانى » للتعبير عن المدة بين ١٠٥٠ و ٩٠٠ ق م ، بينما كان المؤلف يستخدم نفس الاصطلاح للتعبير عن كل المدة بين حوالى ٩٠٠ و ٦٠٠ ق م . ولم يكن هذا الخلط ليوذى الا الى حالة من الارتباك ما لم تستخدم القرون عوضا عن العصور . ولهذا السبب كف المؤلف تماما عن استخدام التسميات « المبكر ، والمتوسط ، والمتأخر » واستبدالها بالتسميات « الاول ، والثانى ، والثالث » . وفى هذا الباب ستستخدم التسميات الاتية للمراحل المتعاقبة لعصر الحديد قبل العصور الهيلنستية .

العصور	التاريخ	التاريخ المقابل في التوراه
الحديد الأول	يشمل القرون ١٢ — ١٠	عصر القضاة وعصر الملكية المتحدة
الحديد الثاني	من القرن التاسع الى اوائل السادس	عصر الملكية المنقسمة
الحديد الثالث	حوالي ٥٥٠ م. — ٣٣٠ ق. م.	فترة السبي الى بابل والعودة الى اورشليم

عصر الحديد الاول

اول القرن الثانى عشر - آخر القرن العاشر

ذكرنا بايجاز فى نهاية الباب السابق دلائل التتابع الزمنى التى حصلنا عليها من مناسيب التدمير التى فصلت بين آخر عمران كنعانى وأول عمران اسرائيلى فى المواقع المختلفة بفلسطين . ويبدو أن شغل الاسرائيليين لهذه المواقع كان فى أول الامر بطيئاً (مثل ما حدث فى أريحا) ثم جرى بسرعة تدريجياً (بعد فجوة عمرانية طويلة فى بيت أيل ، لكن بعد فترة قصيرة او منعومة فى تل بيت مرسيم) . وفى حوالى نهاية القرن الثالث عشر ، كان الاسرائيليون ، على ما يبدو فى مرحلة الاستقرار فى كل المناطق الجبلية ، على جانبى نهر الاردن ، غير أنهم لم يكونوا قادرين على التغلب على العربات الحربية الكنعانية حتى يعصفوا بالمدن المحصنة تحصيناً قوياً فى السهول ووديان النهر ، اذ نعلم من الحفائر فى مجدو وبيسان أن هاتين المدينتين قد قاومتا بنى اسرائيل لعدة أجيال . ومن جهة اخرى تزايد عدد السكان الاسرائيليين بسرعة فى المناطق الجبلية . وبفضل الانتشار السريع لفن اقامة صهاريج للمياه وتبطينها من الداخل ببطانة من ملاط الجير الغير منفذ للماء بدلاً من ملاط المرل الجيرى او الحجر الجيرى الخام الذى كان يستعمل من قبل ، وهو فن لم يعرف الا حديثاً فى ذلك الحين ، تمكن بنو اسرائيل أن يستقروا فى أى مكان تسقط فيه الامطار ، بينما كان سابقوهم من الكنعانيين مضطرين لان تقتصر سكناهم عادة على مواقع قريبة من الينابيع أو جداول المياه الدائمة .

وفى أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، غمر سواحل فلسطين فيض من شعوب البحر من جزر شمالى البحر المتوسط وشواطئه . ويبدو أنها قد شغلت كل السهل الساحلى لفلسطين . وأشهر شعوب البحر هذه الفلسطينيون الذين قطنوا المنطقة الواقعة بين غزة وعفرون ، وشعب الثكر الذين قطنوا المنطقة الساحلية جنوبى الكرمل . وقد جلب الفلسطينيون حضارتهم الخاصة معهم ، ولكنهم سرعان ما اندمجوا وامتزجوا مع الكنعانيين الذين هزموا على أيديهم . ولما كانوا يمتلكون

أغنى قطاع من أرض فلسطين فإنه لم يمر وقت طويل الا وكانوا قد سادوا على شعوب البحر الاخرى • وفي حوالى منتصف القرن الحادى عشر هزم الفلسطينيون الاسرائيليين فى حجر المعونه (ابنازر) واستولوا على التابوت ودمروا شيلوه • وتدل معالم التدمير التى حدثت فى مدن يهوذا الاخرى فى نفس التاريخ تقريبا ، على أن الفلسطينيين خربوا كثيرا من غرب فلسطين وأخضعوا بنى اسرائيل • وقد تخلص شاول من نير حكم الفلسطينيين فى أوائل حكمه (حوالى ١٠٢٠ ق • م •) لكن بعدموته فى جبل جلبوع استولى الفلسطينيون من جديد على حكم البلاد ولم يفقدوها ثانية الا بعد عدة سنوات اثناء حكم الملك داود (فى حوالى ٩٩٠ ق • م •) ومنذ ذلك الحين لم يلعب الفلسطينيون الا دورا ثانويا فى فلسطين ، واقتصر نشاطهم غالبا على التجارة •

وكل معلوماتنا حتى الآن عن حضارة الفلسطينيين مستمدة فى معظمها من مواقع خارج السهل الفلسطينى نفسه نظرا لان الخمس مدن التى يضمها البنتابوليس استمر عمرانها فى العصور التالية ، ولان عمق الانقراض المتراكمة بها الان كبير جدا كما كشف عن ذلك جارسانج وفيتيان — آدمز فى عسقلون وغزة • وما أهدتنا به الدراسات الاثرية من معلومات عن الحضارة المادية للفلسطينيين مستمد معظمه من الحفائر التى أجريت فى السهل الفلسطينى (شفا الله) والنقب • وقد بزغ طراز من الفخار مميز جدا لهذه الحضارة فى السهل الفلسطينى خلال العشرات الاولى من القرن الثانى عشر واستمر استعماله حتى أواخر القرن الحادى عشر ، ويبدو أنه لم يستعمل بعد ذلك الا نادرا جدا • ولما كان هذا الفخار الفلسطينى موجودا بوفرة فى كل مناسيب هذا العصر ومخلفاته فى أرض فلسطين Philistia نفسها ، كما يوجد أيضا بوفرة فى المواقع المجاورة بالنقب وشفا الله فيما بين حوالى ١١٥٠ ق • م • وأواخر القرن الحادى عشر ، وفضلا عن ذلك فان تسميته بالفخار الفلسطينى تبدو تسمية بدیعة جدا فان هذا النوع من الفخار يقل نسبيا كلما ابتعدنا عن أرض فلسطين نفسها اذ يوجد قليلا فى مخلفات نفس العصر فى بيت زور وتل النصبة وبيت أيل ، وقليلا جدا فى مجدو ، غير أنه لم يعثر عليه حتى الآن فى بيسان أو تل أبو هوام مع أن العمران فى هذين الموقعين استمر طوال كل هذا العصر • ولهذا فان تسمية هذا النوع بالفخار الفلسطينى من وجهة التوزيع الجغرافى وحده تسمية صحيحة تماما •

وقد زادت معلوماتنا عن فترة ما قبل تاريخ هؤلاء الفلسطينيين المذكورين فى التوراة زيادة كبيرة بفضل التنقيبات التى أجراها فورومارك ، وشيفر ، وديكايوس ، منذ سنة ١٩٤٧ فى سندا وانكومى بشرق قبرص . وفى مرحلة لم تكن معروفة من قبل أرخت فيما بعد بين ١٢٢٥ و ١١٧٥ ق . م . وجد فورومارك فخارا مصنوعا محليا من نوع الفخار الميسينى ٣ ح - (١) يكاد يكون مطابقا تماما لاقدم فخار فلسطينى وجد بفلسطين . وهذا الفخار القبرصى يشبه الفخار الميسينى الذى وجد فى أرجوس ، ولذلك لابد وأن يكون قد جاء من اليونان . وعندما غزا فلسطين هؤلاء المستوطنون (الذين ربما كانوا من البلاسيجيين) فى حوالى ١١٧٥ ق . م ، استمروا فى صنع نفس هذا الفخار على صورة فخار « فلسطينى » . والاشكال الرئيسية لهذا الفخار أوان ذات مقبضين وأباريق ، ولونه عادة برتقالى مائل الى الصفرة طلى بعد حرقه بطلاء رمادى مصفر ثم رسمت عليه باللونين الاحمر والاسود زخارف هندسية وبجع نافش ويشه ، وأحيانا يلغى الطلاء كلية ، وأحيانا يستبدل ببطائه حقيقية ، وثمة تنوع كبير جدا فى شكل الاناء واختيار زخارفه . ولهذه الصحاف مقبضان كل منهما على شكل عروة أفقية مائلة . والزخرفة المفضلة عندهم تتألف من سلسلة من الحشوات التى تشبه الافاريز المعمارية ، وفى كل حشوة منها رسمت بدقة متناهية بجعة وهى تقوم بنفش ريشها وجناحها مرفوعان الى أعلى . وكثيرا ما صور الفنان البجعة ، وخاصة على الاوانى التى ترجع الى تاريخ متأخر نسبيا ، وهى تدفع بمنقارها الى الامام ، وفى هذه الحالة يبدو الجناح عادة وكأنه مانعة صواعق ، وكانت الأباريق مزودة عادة بمصب به مصفاة ، ومن الجلى أن هذا المصب كان مستخدما لنفس الغرض الذى استخدمت من أجله الشعوب الجبلية القديمة سلاميات البوص او الانابيب فى شرب الجعة لتصفيتها حتى لا يبتلع شاربها قشور الشعير معها . وليس من العسير علينا أن نستنتج من وجود صحاف الخمر وأباريق البيرة فى كل مكان ان الفلسطينيين كانوا مفرطين فى شرب الخمر ، وفى هذا الامر تتفق المعلومات الاثرية مع ما ورد فى التوراة ، اذ أننا نجد فى قصة شمشون أن ولائم شرب الخمر قد ورد ذكرها عدة مرات فيما يختص بالفلسطينيين ، ولو أنه ذكر بصفة مشددة عن شمشون أنه لم يشرب النبيذ أو الجعة أبدا .

وقبيل غزو الفلسطينيين لفلسطين ، كان الكنعانيون قد بدأوا فى اقتباس عادة المصريين فى دفن موتاهم فى توابيت آدمية الشكل من الفخار ، شكلت على غطائها ملامح آدمية وأحيانا بعض تفصيلات أخرى . وقد وجد تابوت من هذا النوع من القرن الثالث عشر فى لخيث ، عليه كتابة هيروغليفية غريبة جدا مكتوبة محليا . وخلال القرنين الثانى عشر والحادى عشر نجد هذه التوابيت الفخارية فى مقابر ومعها فخار فلسطينى فى تل الفرعة فى النقب ، وفى مقابر العصر الحديدي المعاصرة لها فى بيسان . ووجدت هذه التوابيت أيضا فى دلتا مصر ومعها فى الغالب فخار وأسلحة من صناعة أجنبية . وقد ظهر أحد هذه التوابيت أيضا فى جنوب شرقى عمان على حافة الصحراء السورية ، ولا بد أن يكون تاريخه أحدث قليلا من تاريخ التوابيت الأخرى . ويبدو محتملا أن انتشار هذا الأسلوب لدفن الموتى فى هذا العصر ، كان راجعا جزئيا على الأقل الى تأثير فلسطينى .

وبفضل الربط بين الأدلة الأثرية والتاريخية التى جاء ذكرها فى التوراه ، وهو ما يتبع الآن فى دراسة الآثار الفلسطينية ، أصبح من الممكن تحديد بعض التواريخ بدقة أكثر . وعلى سبيل المثال الواقعة بين باراق وسييرا ، التى جاء فى التوراة وصف حيوى لها فى أنشودة النصر التى أنشدتها دبوره « فى تعنك بالقرب من مياه مجدو » (قضاة ٥ : ١٩) ، وبمقارنة العصور التى سكنت خلالها مجدو وتعنك (وهى تقع على بعد خمسة أميال فقط الى الجنوب الشرقى من مجدو) ، ظهر أن العمران فى كل من هاتين المدينتين يميل لأن يكون مكملًا للآخر لا متعاصرا معه ، تماما كما حدث فى مدينتى عاي وبيت ايل اللتين كانتا قريبتين لدرجة لا يمكن معها أن تكونا قد ازدهرتا فى وقت واحد ، اللهم الا فى فترة وجيزة جدا . فتعنك مثلا كانت مدينة زاهرة فى العصر البرونزى المبكر الثالث والعصر البرونزى المبكر الرابع ، بينما كانت مجدو خاوية غير مسكونة ، ثم كانت تعنك أيضا عاصمة لولاية كبيرة فى منتصف القرن الخامس عشر بينما كانت مجدو محمية مصرية صغيرة . وعدم ذكر أى اشارة بالمرّة عن مجدو نفسها فى الوقت الذى أصبحت فيه تعنك عاصمة للمنطقة ليدل دلالة قاطعة على أن مجدو كانت حينئذ خرابا . والآن قد أظهر كشف هذا الموقع أنه بعد تدمير مجدو (٧) فى حوالى الربع الثالث من القرن الثانى عشر ، ظلت مجدو خرابا حتى

سكنها شعب الطبقة السادسة وقد ترك هذا الشعب ، لأول مرة منذ قرون ، أى محاولة لاعادة استخدام التحصينات القديمة ومنطقة القصر القديم ، وقام بعمل انشاءات تعتمد على تخطيط جديد تماما . ويشير الفخار الى اتجاه مماثل اذ أن أنواع الفخار التى وجدت فى مجدو (٦) تطابق حقيقة تلك التى وجدت بالمناطق الجبلية الاسرائيلية . وفى مجدو (٥) نجد استمرارا لنظم البناء التى اتبعت فى مجدو (٦) وأنواعا جديدة من الفخار تنتج فى توزيعها الجغرافى نحو الشاطئ أكثر مما تنتج نحو المناطق الجبلية . ومن ثم يمكن تأريخ انشودة دبورى عن طريق الدراسة الاثرية بحوالى ١١٢٥ ق.م . ، وهو تاريخ يتفق تماما مع ما جاء فى محتويات هذه الانشودة من متطلبات أدبية وظروف سياسية .

مثال آخر لايضاح الكيفية التى يكمل بها التأريخ بالفخار والتأريخ بالكتابة بعضهما بعضا ، نراه فى انتشار أنواع مختلفة لحواف أوعية التخزين فى المناطق الجبلية الوسطى بفلسطين خلال القرن الحادى عشر . وفى المراحل الثلاثة الاولى لعصر الحديد فى بيت ايل كان الاناء الغالب وعاء تخزين كبير Pithos يتميز بحافة مرتفعة كالطوق وجسم جرس . ويوجد نفس هذا الاناء بوفرة فى عاى وتل النصبة المعاصرتين لبيت ايل ، وفى جبعة (تل الفول) كذلك خلال فترة الاستيطان الاسرائيلى الاول لها ، وفى بيت زور فى الجنوب ، وفى شكيم فى الشمال . ويظهر هذا الاناء أيضا فى تل بيت مرسيم وبيت شمس فى شفا الله ، غير انه لم يكن شائعا . ويظهر نفس الاناء احيانا فى مجدو (٧) ، وكان شائعا جدا فى مجدو (٦) ، وهو ما أظهرته حفائر المؤلف بالموقع ، ولكنه لم يظهر مطلقا فى مجدو (٥) . ومن ثم فان هذا الطراز من الفخار الذى ظهر لأول مرة خلال النصف الاول من القرن الثانى عشر ، استمر استعماله الى ما بعد تدمير الفلسطينيين لشيلوه فى حوالى ١٠٥٠ ق.م ، اذ أن أوعية التخزين التى وجدها شميدت وكجاير Schmidt and Kjaer فى الطبقات السابقة للحريق يظهر بها نفس الشكل والحافة المرتفعة . وفى عهد شاول فى جبعة ، حل طراز جديد من حواف الاواني محل الحافة المرتفعة التى بطل استعمالها هناك قبل ١٠٠٠ ق.م . (وهو أدنى تاريخ ممكن لموت شاول) بوقت غير قليل . وتظهر نفس هذه الحافة الجديدة فى بيت ايل وتل النصبة وبعض مواقع أخرى فى المرحلة التالية لاستعمال الحافة

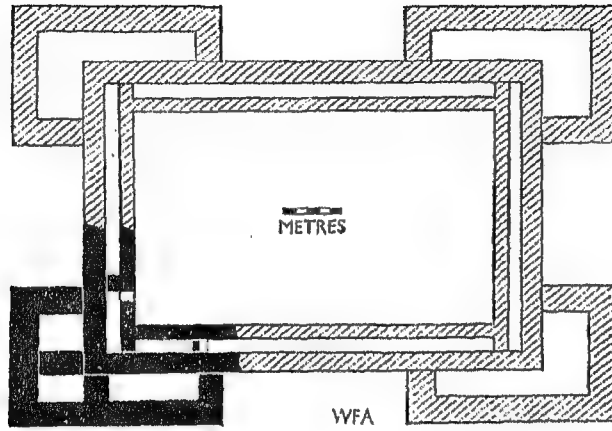
المرتفعة ، وبذلك تكون هذه الحافة الجديدة قد انتشرت انتشارا واسعا وأبطلت استعمال الحافة المرتفعة فيما بين ١٠٥٠ و ١٠٠٠ ق م . ويرجح أن يكون ذلك في الربع الثالث من القرن الحادى عشر . ومن هذا يتضح أن التغير في طراز حواف أوانى التخزين قرينة قيمة للتأريخ في فترة دقيقة من تاريخ بنى اسرائيل . وكلما تقدمت معلوماتنا كلما أمكنت اكتشاف قرائن كثيرة مماثلة مما سيمكن الباحث في نهاية الامر من ان يعطوا تواريخ دقيقة بدرجة فائقة لمحتويات المنازل أو المدافن المتماثلة ، غير أنه مما لاشك فيه أنه لايجتمل أن نتوصل الى نتائج تمكننا من تأريخ الشقف العادى بدقة أكثر من حدود قرنين أو ثلاثة قرون ، ولكن ومن المؤكد أنه ستبقى دائما بعض قطع أخرى من الشقف متحدية أى محاولات لتأريخها .

واذا استعرضنا عصر القضاة من الوجهة الاثرية ، فلا مناص من أن نصدم بالبساطة المتناهية والافتقار الى المظاهر الحضارية البراقة ، في القرن الثانى عشر وأوائل القرن الحادى عشر . ويندر أن يكون ثمة تباين أبلغ من ذلك الذى نجده بين مظاهر الحضارة لدى الكنعانيين في القرن الثالث عشر حيث توجد اساسات قوية للمبانى ونظم للصرف بديعة التصميم ، وبين الحضارة التى حلت محلها في القرن الثانى عشر ، وعلى الاخص في بيت ايل حيث أضحت المنازل أكواما غير رتيبة من الحجر دون استفادة بأى نظام للصرف . وكان لهذا التدهور فى مظاهر فنون الحياة سببان ، السبب الاول ان رجال القبائل الاسرائيلية الغازية كانوا من القبائل الهمجية الرحالة النصف بدوية التى اختلفت أساسيا عن القبائل البدوية الصحراوية الأخرى فى السرعة التى استقرت بها فى البلاد التى غزتها . والسبب الثانى أن الاسرائيليين كانوا فى طور النظام العشائرى الشبه ديمقراطى الذى ضاق فيه كثيرا الفرق السابق بين الشريف والفلاح والنصف حر بعد انتصارهم على كنعان . فعندما سكنوا شى منزل شريف كنعانى، كما حدث فى بيت ايل وتل بيت مرسيم، احتفظوا بنفس التخطيط الارضى القديم للمنزل كما هو مع تغيير طفيف ، غير أن طريقة البناء وتفاصيل المبنى أصبحت مختلفة عن ذى قبل تماما بقدر اختلاف محتويات المنزل . هذا ومن الواضح أن العائلة الاسرائيلية التى سكنت المنزل المهدم عاشت عادة فى الطابق الارضى ، بدلا مما اتبعه الكنعانيون من قبل من استخدام هذا

الطابق كمخازن وكحجرات لاقامة الخدم ، بينما أقاموا هم أنفسهم فى الطابق العلوى • وقد أبقي الاسرائيليون على السور السميك الحصن مع ترميمه فى اماكن قليلة ،

ولم يكشف عن أى معابد اسرائيلية من هذا العصر، غير أنه عثر منه على تماثم قليلة جدا ، وأهم هذه التماثم لوحات (بلاكات) طينية مطبوع عليها بالضغط بواسطة قوالب ، صور تمثل امرأة عارية بطنها منتفخة وتضغط بكلتا يديها على بطنها بشدة وارتعاص ، ومن الواضح أنها تدل على حالة ولادة والطفل على وشك النزول • ومن الغريب أن يلاحظ انها لا تلبس شعارا لاي الالهات على خلاف ما يلاحظ فى اللوحات والتماثيل الصغيرة الكنعانية ، القديم منها والمعاصر ، والا نستطيع الحكم حتى الان هل حدث هذا عن طريق الصدفة ام أن لهذه الحقيقة علاقة بتحريم عبادة الاوثان عند بنى اسرائيل • ومن جهة أخرى فان الطبقتين السادسة والخامسة فى بيسان غير الاسرائيليتين واللتي يرجع تاريخهما الى ما بين القرن الثانى عشر والقرن الحادى عشر ، تظهر بهما مجموعة غنية جدا ومتنوعة من أثاث العبادة الدينية من الطين والحجر • بل أننا نعلم الكثير عن الاثاث من الطبقات الغير اسرائيلية المعاصرة لها فى مجدو وهى الطبقات السابعة والسادسة والخامسة • فقد عثر فى المعابد الكنعانية من عصر الحديد فى بيسان على عدد كبير جدا من قواعد المباخر أو أصص الزهور (ويبدو أن كلا الاحتمالين صحيح من جهة التقاليد الدينية) الكاملة والمكسورة ، عليها طبع بارز يمثل حية أو حيات ، كما كشف عن عدد من المقاصير المكسورة المكونة أصلا من عدة طوابق ، ويظهر على احداها • « أشخاص الرواية » الذين يقومون بتمثيل احدى الاساطير الكنعانية ، ويشتملون على الهة عارية ومعها بعض الحمام ، ورجلين مشتبكين فى قتال ، وحية ، وأسد • وقد أصبح من السهل تصور مبلغ الفجور والوحشية الدموية التى كانت تصورها هذه الاسطورة بعد الكشف عن جزء كبير من الميثولوجيا (علم الاساطير) الكنعانية فى أوجاريت ودراستها وتفسيرها (انظر الباب الثامن) •

وأقدم تحصينات اسرائيلية معروفة التاريخ من عصر الحديد هى قلعة شاول على قمة تل الفول على بعد ثلاثة اميال شمالى القدس (شكل ١٦) • وقد كشف المؤلف عن بقايا هذه القلعة فى



شكل ١٦ — قلعة شاعول من تل الفول
(حوالى ١٠٠٠ قبل الميلاد)

١٩٢٢ و ١٩٣٣ • ومن جراء تتابع التدمير واعادة البناء ، لم يبق منها
فى الواقع الا جزء صغير يتكون من برج فى أحد الاركان وجزء من
الاستحكام المسقوف المجاور له ، وأمكن تأريخه بواسطة الفخار الذى
وجد به بعصر الملك شاعول (١٠٢٠-١٠٠٠ ق.م) • وسور
الاستحكام هذا مثال بديع لطراز شاع استعماله بدرجة كبيرة فى فلسطين
فى القرنين الحادى عشر والعاشر قبل الميلاد • واستمر استعماله بصفة
متقطعة حتى الجزء الاخير من عصر الحديد الثانى • وقد نشأ هذا
الطراز من الاسوار فى عصر البرونز المتأخر فى آسيا الصغرى ، وجلبه
الحثيون بعد ذلك الى سوريا ، ثم انتشر من سوريا جنوباً خلال فترة
الانتقال من عصر البرونز الى عصر الحديد • وقد تألف سور حصن
شاعول من جدارين ، بنى كل منهما بحجارة سويت سطوحها بالدق
بالشحوة وموضوعة بعضها فوق بعض على هيئة مداميك غير رتيبة •
وكان سمك الجدار الخارجى حوالى ١٥ متراً (ثلاثة أذرع) ، وسمك
الجدار الداخلى حوالى ١٢ متراً • وبين الجدارين كانت توجد مسافة
ضيقة مقسمة بواسطة حواجز عرضية الى مجموعة من الغرف المستطيلة
الضيقة ، وكانت بعض هذه الحجرات تملأ بالحجارة والأتربة ، بينما
ترك بعضها الآخر خاليا لاستعماله كمخازن لها أبواب تصلها بداخل
الحصن • وربما بلغ السمك الكلى للسور ٥٤ متراً على أكثر تقدير أو
١٥ متراً على اقل تقدير • وكانت هذه الطريقة فى التسيوير

الاستحكامى طريقة بارعة لاعطاء قدر حقيقى كبير من التحصين بأقل ما يمكن من الجهد والتكلفة ، بل وكانت أكثر براعة فى كيفية انتفاعها بكل فراغ ممكن بين جدارى سور المدينة لأغراض التخزين • وثمة أسوار أخرى من نفس النوع ولها نفس الأبعاد تقريبا، وهى أسوار شكيم التى قد يرجع تاريخها الى منتصف القرن الحادى عشر (عهدأبيمالك قضاة ٩) ، وأسوار تل بيت مرسيم وأسوار بيت شمس، التى ترجع الى حوالى بدء القرن العاشر ، أى الى اوائل عهد الملك داود ، وهى التى أقامها لتحصين يهوذا ضد اعتداء الفلسطينيين •

وبخلاف هذه الاسوار الاستحكامية ، وربما أيضا جزء مما يسمى الجدار المنحدر (اليبوسى) (※) (لمدينة داود اوفيل) ، جنوبى معبد سليمان) ، يكاد لا تكون ثمة أى بقايا لمبان أخرى يمكن ارجاعها بكل تأكيد الى عهد الملك داود • وكانت اسرائيل فى عهد شاول وداود لم تزل دولة بدائية الى حد ما تعتمد على الزراعة والرعي ، غير أنها كانت ولا بد تسير بخطوات واسعة للوصول الى مستوى عال فى الصناعة والتجارة قبل موت داود فى حوالى ٩٦٠ ق.م • ولدينا من الاسباب ما يجعلنا نعتقد ان صور وصيدا اللتين كانتا جزءا من مملكة حيرام (حوالى ٩٦٩ — ٩٣٦ ق.م •) ، صديق داود وسليمان ، قد استغلتا استغلالا كاملا تداعى امبراطورية الفلسطينيين أمام ضربات داود ، لكى تبسطا امبراطوريتهما التجارية فى غرب البحر المتوسط •

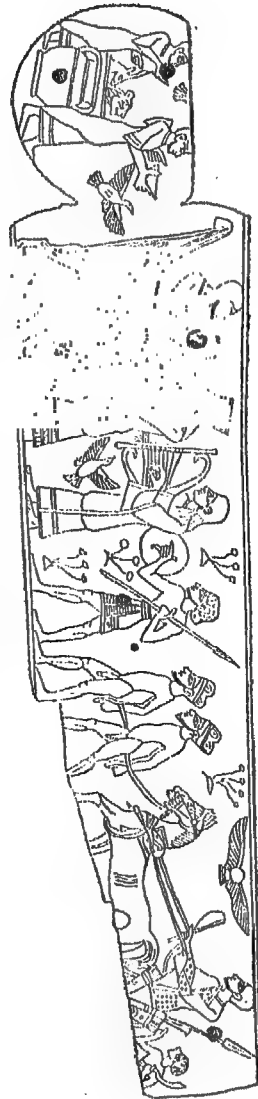
وقد أدت المكتشفات الحديثة الى زيادة احتمال الرأى القائل بأن اتساع دائرة الامبراطورية التجارية الصيدونية قد حدث فجأة فى نصف القرن التالى للانتصارات الكبيرة لداود على الفلسطينيين (فيما بين ٩٩٠ و ٩٨٠ ق.م •) • ونذكر من بين هذه المكتشفات ما نشره هنيان A. M. Honeyman (١٩٣٩) ، متضمنا العثور على نص فينيقى فى مقبرة بقبرص ، لاشك أن تاريخه يرجع الى القرن التاسع ق.م • أى قبل نص بل — لبنان بقرن من الزمان على الاقل،وقد كان النص الاخير هذا معتبرا من قبل أقدم وثيقة فينيقية وجدت فى هذه الجزيرة • وبفضل هذا الكشف امكن تفسير حجر نورا الذى وجد فى جزيرة سردينيا ، بل

(※) Jebusite نسبة الى الكنعانيين الذين تحدوا الاسرائيليين من قلاعهم على جبل صهيون • (المراجع)

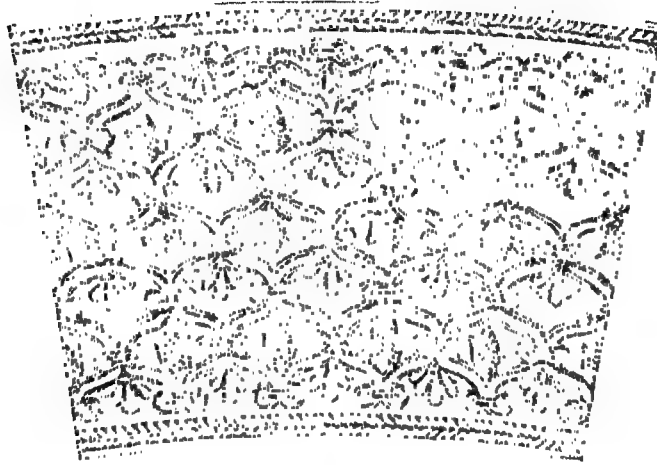
وأمكن أيضا معرفة تاريخه ، بعد أن كان هذا الحجر لغزا يتعذر حله ، وقد تبين أنه كان جزءا من أمر عال منقوش على أحجار جدار ، مثل الامر العالى الذى أصدره غورتيين فى كريت (القرن السادس ق.م) . وتدل الكتابة التى على حجر نورا وكذلك الكتابة التى على قطعتين صنيبرتين من بوسا على أن تاريخها جميعا يرجع الى القرن التاسع ، مما يثبت أن استغلال الفينقيين لجزيرة سردينيا كان قد بلغ شوطا بعيدا فى ذلك الوقت ، على نقيض ما كان يراه بيلوخ وأتباعه .

ويكاد يكون من المحقق أن يرجع تاريخ أقدم فخار ملون وجد فى منطقة جبانة تانيت بقرطاجنة الى ما قبل عصر ازدهار هذه المدينة (٨١٤ ق.م) ، اذ أنه يطابق تماما الفخار الملون الذى وجد فى مجدو (٤ ب) حوالى (٩٧٥ - ٩٢٥ ق.م) ، ولذلك يبدو أنه يرجع الى المرحلة الكامبية فى التاريخ القرطاجنى . ونذكر أخيرا ، أن أقدم عاج وجد فى قرمونة فى وادى الجوادالكويفر فى جنوب غربى أسبانيا يتشابه فى بعض الوجوه مع العاج الذى وجد فى مجدو من القرن الثانى عشر أكثر مما يتشابه مع العاج الذى يتراوح تاريخه بين القرن التاسع والقرن الثامن ق . م . من السامرة وأرسلان طاش ، ويدل هذا على أن تاريخ بعض هذا العاج قد يرجع الى القرن العاشر (أنظر شكلى ١٧ و ١٨) .

ولا ريب أن عهد الملك سليمان كان من أزهى عصور الحضارة فى تاريخ فلسطين . وبعد صمت طويل ، أيدت أخيرا الاكتشافات الاثرية أقوال التوراة بطريقة لا تقبل الشك ، ويأتى فى المقام الاول الاكتشاف الهام الذى قام به جاي P.L.O. Guy عام ١٩٢٨ ، وهو العثور على اصطبيلات فى الطبقة الرابعة فى مجدو . وقد شغلت هذه الاصطبيلات جزءا كبيرا من هذه الطبقة يتسع لما لا يقل عن ٤٥٠ حصانا فى وقت واحد . وبعد دراسة مستفيضة ظهرت بوضوح العلاقة بين المباني التى وجدت فى الطبقات (٥) و (٤) ب و «٤ ا» ، ويبدو مؤكدا أن هذه الاصطبيلات ترجع الى عصر الملك سليمان بناء على ما جاء فى ملوك الاولى ٩ : ١٥ و ١٩ الخ ، ومن المؤكد أيضا أن هذه الاصطبيلات استمر استعمالها مع اجراء ترميمات واسعة بها ، بعد غزو شيشاق لفلسطين ، حتى أواخر القرن التاسع ق.م . ، غير أنها دمرت بعد ذلك وهجرت . وكانت هذه الاصطبيلات مبنية أحسن بناء ، فقد كانت الخيول تحظى



شكل ١٧ - مذخر من تطعيم على المعاج .
مجنو ، أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد وهو يبين تأثير الفن المصري



شكل ١٨ — زخرفة متحابكة على عاج من مجدو
أوائل القرن الثاني عشر قبل الميلاد

بعناية أكبر من العناية التي حظى بها الإنسان في تلك الأيام • وكانت أرضيات هذه الاصطبلات (فيما عدا أماكن وقوف الخيول حيث كانت الأرضية من الزلط لضمان عدم ترحلقها) وأرضية الحوش المجاور لها مكسوة بطبقة من الجير المائي (*) (مصنوع من جير حي مجروش غير مطفأ من قبل) • وكانت كل وحدة بالاصطبل تتألف من ممر في الوسط يبلغ عرضه حوالي ثلاثة أمتار ، وعلى جانبي الممر صفان من الأعمدة الحجرية التي كانت تستعمل في نفس الوقت كقوائم لربط الخيول ودعامات لحمل السقف ، ويقع بعد الأعمدة جناحان للخيول عرض كل منهما ثلاثة أمتار وكانت كل من هذه الوحدات تتسع لحوالي ثلاثين حصانا •

وقد كشف في مجدو بالطبقة (٤ ب) ، وهي التي تمثل مرحلة عهد الملك سليمان ، على مبان أخرى ، منها مسكن الحاكم ، وهو محاط بسور

(*) قد يكون من الأصوب وصف هذه الأرضية بأنها من الطين الجيرى الذى يبدو أنه صنع بوضع الجير الحى المجروش على أرضية من الطين وتركهما معا بعض الوقت في الجو ، فتحول الجير الحى الى جير مطفأ واختلط في نفس الوقت مع الطين مكونا نوعا من الملاط الذى يشبه الاسمنت الى حد ما في قوة تماسكه وعدم تأثره بالماء •

[المترجمان]

مربع تقريبا يبلغ طول جانبه حوالى مائتى قدم (ستين مترا) • وتظهر بالمبانى السليمانية دلائل واضحة على أنها قد اقتبست من المبانى الفينيقية ، التى تتميز باستعمال كتل مستطيلة قليلة العرض من حجر منحوت نحتا جيدا ، مرتبة فى مجموعات من حجرين أو ثلاثة أحجار موضوعة مرة بالعرض ومرة بالطول على التبادل • وثمة خاصية أخرى تتميز بها هذه المبانى ، شاع استعمالها بصفة خاصة فى المبانى الأقل جودة نسبيا فى مجدو ، هى استخدام أحجار الناصية بوفرة فى البناء ، أى استخدام أركان وأكتاف من الحجر المنحوت نحتا جيدا ثم تملأ الفراغات التى بينها بحجارة صغيرة (دقشوم) ، وكانت هذه الطريقة فى البناء طريقة بارعة ، مثلها فى ذلك مثل الاسوار الاستحكامية ، للحصول على أقصى قوة بأقل تكاليف • وثمة بناء مشيد بنفس الطريقة تماما وجدده ماكالمستر فى جازر ونسبه الى الملك سليمان بعد دراسة مقارنة مع شوماخر الذى كان يعمل فى ذلك الوقت فى مجدو • ومبانى الاسطبلات التى وجدت فى مجدو تشبه تماما مبانى مماثلة فى تل الحسا (الطبقة الخامسة ، حوالى القرن العاشر ق.م) ، وحاصور ، وتعنك ، وكلها من نفس العصر العام •

ومن أهم ما عثر عليه فى الطبقة الرابعة فى مجدو ، عدد من تيجان أعمدة مربعة من الحجر الجيرى من طراز ما قبل الايونى proto-Ionic (ولعله يستحسن تسميتها ما قبل الايولى proto-Aeolic) • وقد انتمت هذه التيجان الى أعمدة مرتبطة بعضها ببعض كانت تبطن أصلا جدران غرفة فسيحة أو ممر متسع • وقد عثر على تيجان مماثلة فى عدد من المواقع الأخرى بفلسطين ، ويرجع تاريخها كلها الى ما بين القرن العاشر والقرن السابع ق.م • وأقدم ما عثر عليه من هذه التيجان حتى الان نموذج تاج ملون من الطبقة الخامسة فى مجدو ، ولا يمكن أن يكون تاريخه متأخرا عن أوائل القرن العاشر • ومن الغريب حقا عدم ذكر شيء حتى الان فى تقارير المنقبين عن وجود أى من هذه التيجان فى فينيقية نفسها ، حيث لا تزال المبانى الأثرية المنشورة من عصر الحديد المبكر قليلة ومتباعدة جدا بعضها عن بعض ، لكن الاغريق واليونان اقتبسوها من الفينيقيين فى حوالى القرن الثامن ق.م • ، ولدينا أمثلة كثيرة على ذلك من القرن السابع وما بعده •

ويبدو مؤكداً أن البوابة القديمة في مجدو التي ترجع إلى عصر الحديد ، كانت من عهد الملك سليمان ، وقد اشتملت على ثلاثة أزواج من أعمدة طويلة قليلة العرض ، يفصلها زوجان من الخلجان الضيقة . وقد جاء أيضاً هذا التصميم من الشمال حيث يظهر في سنجرلي وقرقيش في شمال سوريا في أواخر القرن الحادي عشر أو في القرن العاشر . وقد نشأ هذا الطراز من البوابات الذي يتكون من ستة أعمدة مرتفعة وأربعة خلجان طويلة بين الأعمدة ، عن البوابة التي يتميز بها عصر البرونز المتوسط (انظر الباب الخامس) والتي تتكون من نفس العدد من الأعمدة والخلجان إلا أنها كلها أقصر ومنظمة تنظيماً أكثر تماثلاً . ويظهر نفس هذا الطراز من البوابات أيضاً في لخيش وفي عصيون جابر على خليج العقبة حيث يكاد يكون من المؤكد أنها ترجع إلى عهد الملك سليمان .

وبالرغم من أن كشف جاي لاصطبلات مجدو كان مفاجأة غير متوقعة فإنه لم يكن ليقل عنه في عنصر المفاجأة كشف نلسون جلويك Nelson Glueck لمعامل تنقية النحاس في عصيون جابر (تل الخليفة) في الطرف الشمالي لخليج العقبة عام ١٩٣٨ . وقد اكتشف بتري في جمه معامل أصغر منها كثيراً لاستخلاص الحديد إلا أنه لم يعثر حتى الآن في أي مكان آخر في العالم القديم على أي شيء يضاهي ، ولو من بعيد ، معامل تنقية النحاس في عصيون جابر . وأفضل هذه المعامل من جهة الأعداد والبناء ما وجد منها في الطبقة (ط) التي تحوي مخلفات أقدم الخمس فترات الرئيسية لعمران هذا الموقع . وقد ثقت جدران أفران الصهر بصفين من الثقوب الواسعة على بعد أربعة أقدام (١٢٢ سنتيمتراً) تقريباً فوق قاعدة موقد الفرن ، وتتصل الثقوب العلوية بمجرى هوائي يجري داخل الجدار طولا على نفس الارتفاع ، بينما تخترق الثقوب السفلية كل سمك الجدار . وقد أحرقت نيران الفرن سطح جداره اللبن الذي صار أخضر اللون بتأثير أبخرة خامات النحاس التي صهرت بداخل الفرن . وقد عثر بالموقع على جفئات عديدة من الفخار وتبلغ سعة كل منها أربعة عشر قدماً مكعباً (حوالي نصف متر مكعب) . ولما كان قد روعي في اختيار موقع المصنع أن يكون في نقطة يكون فيها هبوب الرياح الآتية من ناحية العرب (وهي المنطقة الشمالية المكشوفة) أقوى ما يمكن ، فمن الجلي أنه كان يمكن توليد حرارة شديدة باستخدام الوقود المناسب . ولا يمكن

أن يكون ثمرة شك في أن تل الخليفة كان مركزا كبيرا لاستخلاص
النحاس ، غير أن طريقة اختزال خامات النحاس بها لا تزال سرا غامضا
لم يدركه بعد أخصائيو التعدين الذين درسوا هذه المسألة • وأنه لبعيد
الاحتمال جدا أن يؤدي اكتشاف الطرق الفينيقية لاستخلاص النحاس
الى اضافة أى معلومات تفيدنا فى تقدم هذه الصناعة فى الوقت
الحاضر ، غير أن هذه الطرق كانت على الأرجح فعالة جدا بالنسبة
لعصرها •

عصر الحديد الثانى

من القرن التاسع حتى اوائل القرن السادس قبل الميلاد

أصبح الان الثبوت التاريخى لعصر الحديد الثانى واضح التفاصيل لعلماء الآثار الذين كانوا يعملون فى مواقع تتكون من طبقات متعاقبة من هذا العصر ، وان كانت بعض الكتب فى الواقع ، حتى الحديث منها ، تحتاج الى تصحيحات كثيرة فى التفاصيل قبل ان نتقبل الصورة التى نعرضها . ومن أهم مواقع هذا العصر السامرة ، حيث قام كل من ريزنر وكروفوت ومساعدتهم بجهد مشكور فى التنقيب . ولما كان عمرى والد اخاب قد أسس السامرة حوالى ٨٧٠ قبل الميلاد كان كل ما عثر عليه من فخار يرجع فى الواقع الى تاريخ متأخر عن التاريخ السابق الذكر . وفخار عصر الاستيطان الاول ، الذى يمتاز بأنه كان دائماً فخاراً مصقولاً ومصنوعاً على الدولاب وذا رسومات حمراء على طينة ذات لون برتقالى مصفر^(١) ، ينتمى كلية الى الفترة بين الربع الثانى من القرن التاسع حتى نهاية الربع الثالث من القرن الثامن قبل الميلاد ، وعندما تنشر كاثلين كنيون Kenyon دراساتها التى ينتظرها المتخصصون منذ أمد طويل عن طبقات البيوت الخاصة وفخارها من عصر الحديد الثانى ، سيكون لدينا أساس متين لتقدم مضطرد فى الثبوت التاريخى . وفى ذات الوقت أمكن لبعثة كروفوت أن تبين أن الثبوت التاريخى الذى وضعه ريزنر به لخطاء فى بعض من المسائل ذات الاهمية القصوى (قارن الفصل الثانى) ، فقد ميز ريزنر ثلاث مراحل رئيسية للمبانى من عهد بنى اسرائيل ، كما أرخ بعض الابراج المستديرة فى جدار القلعة الجبلية من عصر يربعام الثانى ، بالقرن الثامن قبل الميلاد ، على حين أن بن دور I. Ben-Dor كشف عن شقف من العصر الهلينى فى مواد البناء التى كانت تملؤها . ويتضح من هذا الكشف ، الذى أيد صحة بعض ملاحظات

(١) هذا تعبير غير دقيق . الواقع أن اللون البرتقالى المصفر هو الطلاء الذى يغطى به كل سطح الانية ثم بعد ذلك ينقش بازالة اجزاء من هذا الطلاء ليظهر من تحته الفخار الحقيقى . وتبدو الزخرفة بعد ذلك كأنها اضافة جديدة باللون الاحمر . المترجمان

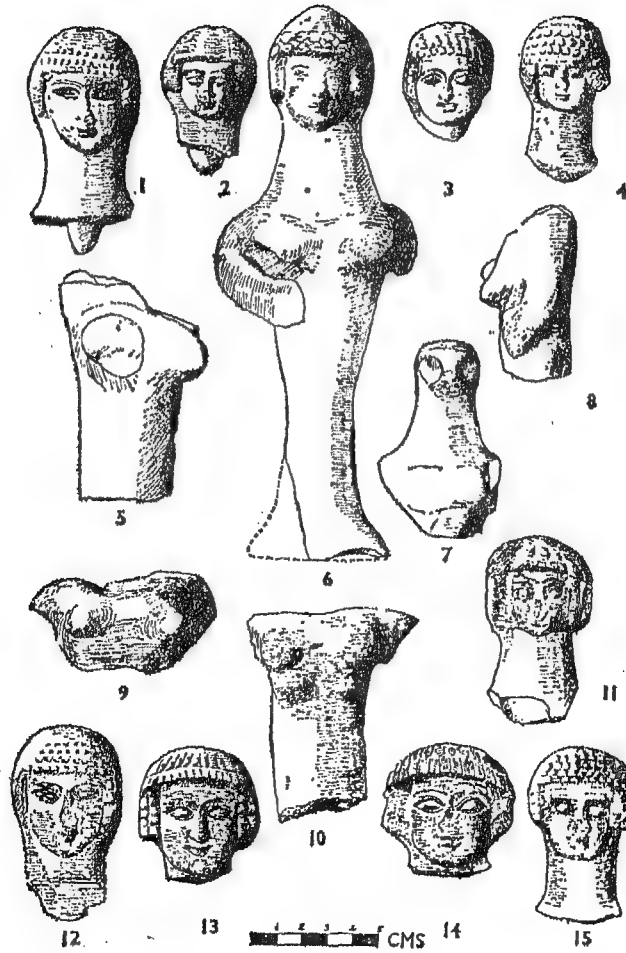
كروفت الأخرى ، انه لم يكن هنالك إلا مرحلتان رئيسيتان فقط للسراى الملكى الاسرائيلى ، احدهما من عصر عمرى ، والثانية من عهد اسرة ياهو ، يكاد يكون بالتأكد من عصر ملكهم يربعام الثانى • والشقف المكتوب الذى عثر عليه ريزنيرجىج أيضا الى عصر يربعام الثانى ، بدلا من تأريخها بعصر آخاب وهو يسبقه بقرن من الزمان تقريبا ، وهذا التصحيح قد أزاح عقبة كانت كأداء فى توضيح الثبوت التاريخى للنقوش الاسرائيلية •

وللثبوت التاريخى للنصف الثانى من عصر الحديد الثانى يوجد لدينا أدلة قيمة من مجدو وخاصة من تل بيت مرسيم • وقد ارتكب المستكشفون فى تاريخ الطبقتين الثانية والثالثة فى مجدو بعض الأخطاء التى ربما كان لا يمكن تحاشيها نظرا لانهم كانوا يعملون فى مجموعات من الجدران والترميمات المتشابهة التى كان تركيبها المتداخل سببا فى صعوبة نسبة مواضع معينة وما بها من محتويات الى طبقة معينة • ثم ارتكبوا خطأ ثانيا لاهمالهم الأدلة الدامغة المستمدة من المصادر المكتوبة التى يتضح منها أن مجدو كانت تقع فى المنطقة التى دمرتها القوات الاشورية لتجالات بالاسر فى ٧٣٣ ، واتخذت حينذاك عاصمة للمقاطعة الاشورية الجديدة ، وقد ذكر اسما اثنين من حكامها فى النقوش الاشورية • ومعنى هذا ان مجدو دمرت بالتأكيد فى ٧٣٣ ثم اعيد بناؤها بعد ذلك بوقت قصير • وعلى هذا تكون محتويات الطبقة الثالثة من العصر الاسرائيلى وليس الاشورى ، ومن ناحية أخرى تكون الطبقة الثانية آشورية ، وليست اسرائيلية ، ومن المحتمل انها دمرت فى ٦٠٩ بعد هزيمة يوشيا على يدنكاو (نخو) فى معركة مجدو • وتل بيت مرسيم هو احد عشرات البلاد اليهودية الصغيرة والكبيرة التى دمرها الكلدانيون فى ٥٩٧ و ٥٨٧ قبل الميلاد ، وصارت الارض بعد ذلك بلقعا ، لا يستقر بها أحد من الناس الا فيما ندر حتى أواخر القرن السادس ، وبقيت الطبقة العليا من تل بيت مرسيم لحسن الحظ فى حالة جيدة • وقد وجدت البيوت التى تنتمى الى العقود الأخيرة قبل الغزو الكلدانى مليئة بالفخار وغير ذلك من الأشياء التى لم ينقل الا القليل منها قبل أن تأتى على المدينة النيران التى أشعلها المنتصرون ، ولما كان جزء كبير من الحجر الجيرى قد تكلس من الحريق ، كما لم يسكن التل بعد ذلك اطلاقا فليس من العجيب إذن ، وقد بللت أمطار الشتاء على

مدى ٢٥٠٠ سنة كل شيء ترك مكتشوفاً ، الا يكسى كل قدر وكل شقفة تقريباً بقشرة صلبة من الرواسب الجيرية ، وقد كان ذلك سبباً في استحالة الحصول فعلاً أعلى أية استراكا تركها معاصرو ارميا في تل بيت مرسيم . وعلى أية حال ، فالكمية العظيمة من الفخار المؤرخ تأريخاً دقيقاً من العقد او العقدتين الاخيرين للهيكلا الاول ، والتي نشرت نشرت كاملاً بالصور والرسومات (شكل ٣٦) قد ثبتت بدقة التثبيت التأريخي الفخاري لهذه الفترة . ويوجد بين سقوط السامرة الاسرائيلية والمرحلة الاخيرة من تل بيت مرسيم فترة غير مؤكدة عند نهاية القرن الثاني وبداية السابع ، ولكن المكتشفات الاثرية من الاماكن المختلفة تثبت تدريجياً تأريخنا لفخارها أيضاً .

ومعلوماتنا عن الحضارة المادية لعصر الحديد الثاني هي أيضاً أضخم كثيراً مما كانت عليه منذ عقدين مضياً . وهنا أيضاً نستمد معلوماتنا بصفة خاصة من السامرة ومجدو ، ولاكيش (لخيث) وتل بيت مرسيم وتل النصبة ، وان كانت ثمة اكتشافات قيمة وأدلة معززة جاءت من حوالي عشرين موقعا كبيراً وصغيراً وتحتوى على آثار من عصر الحديد (شكل ١٩) .

واهم الاكتشافات المثيرة من عصر الحديد الثاني ربما كانت النقوش ، اذ هي كقاعدة عامة ، تلقى ضوءاً مباشراً على التوراة ، افضل من أى نوع من الاكتشافات . وسنذكر بعض الاكتشافات الخطية الباقية ، وان كنا سنترك التفاصيل للفصل الثامن . وأهم نقش اسرائيلي هو تقويم جازر ، وهو عبارة عن لوح تلميذ مصنوع من الحجر الجيري المهش ، وقد دون عليه بخط ردىء نص قول مأثور يبين ترتيب العمليات الزراعية الرئيسية خلال السنة . وهى تؤرخ من أواخر القرن العاشر ، اذا اعتمدنا فى حكمنا على الاتفاق بين الادلة المستمدة من أشكال الحروف فى بيلوس المعاصرة وبين نوع خط المتن الذى وجد ضمنه هذا اللوح ، وهى بناء على ذلك تسبق عصر الحديد الثاني بوقت قصير . والى الربع الثالث من القرن التاسع (حوالى ٨٢٥ ق م) ينتمى لوح ميشع الحجرى وقد نقش هذا اللوح نقشاً بديعاً لتسجيل انتصار ميشع ملك موآب (ملوك الثاني ٣ : ٤) على اسرائيل بعد سقوط اسرة عمرى ، وقد كشف هذا اللوح فى ١٨٦٨ وقد نقله كلير مونت جانو الى متحف اللوفر وحتى هذا التاريخ لم يعثر على لوح



شكل ١٩ — تماثيل تمثل الالهة الام من تل بيت مرسيم
(معظمها من القرن السابع قبل الميلاد)

اسرائيلي واحد ، وان كان قد عثر في السامرة على قطعة من لوح عليها كلمة عبرية واحدة نقشت بعناية ويأتى بعد ذلك في الترتيب الزمني ، سبعون جذاذة من السامرة ، هي عبارة عن تأسييرات ادارية ، وان كانت قد اُلقت ضوءا لم يكن متوقعا على تاريخ اسرائيل في بداية القرن الثامن قبل الميلاد (انظر اعلاه) والى نهاية القرن الثامن ينتمي نقش منحوتنا نحشا جميلا في الصخر عند مدخل نفق سلوام الذي قطعه حزقيا في الثل تحت مدينة القدس القديمة ، (وجد ١٨٨٠) وهو مكتوب بالخط العبري الكلاسيكي الانيق ويصف اتمام العمل في النفق بنجاح .

ولكن هذه المكتشفات ومئات من الكتابات القصيرة على الاختتام وغيرها من الاشياء ، تتضاعل أهميتها بجانب الكشف المثير عن جذاذات لخيش في ١٩٣٥ و ١٩٣٨ • وهذه الوثائق الاحدى والعشرون المكتوبة بالحبر على جذاذات الفخار ينتمى معظمها الى الاشهر الاخيرة التى تسبق استيلاء الكلدانيين على لخيش فى ٥٨٩ و ٥٨٨ ق • م • وحيث أن اللغة والمحتويات لها علاقة وثيقة بالفقرات النثرية فى أرميا فهى ليست ذات أهمية تاريخية جوهرية فحسب ، بل أنها تلقى ضوءا شديدا على التوراة • فكل الوثائق تقريبا ماهى الا رسائل فيما عدا بعض قوائم أسماء أو سجلات أعمال • حوالى ست رسائل منها يمكن قراءتها بأكملها أما باقى الرسائل فلا قيمة لها فى الواقع حتى يهتم بها شخص له دراية فى النسخ المصغر وعنده من الصبر ما لا حد له •

وبعد النقوش فى الاهمية العامة يمكننا أن نضع كميات من ترصيع العاج كشف عنها فى السامرة كروفوت وسوكينك Sukenik فى ١٩٣٢ -- ١٩٣٣ • وهذه الاشياء العاجية تتفق مع الصورة المعروفة لنا جيدا من الآثار التى وجدت فى مجدو (١٩٣٧) والتى ينتمى معظمها الى النصف الاول من القرن الثانى عشر ، وكذلك من مكتشفات مشابهة فى نمرود (كالح فى التوراة) وأغلبها من أوائل القرن التاسع ، ومن أرسلان تاش شرق كركميش قبيل نهاية نفس القرن • كما وجدت أيضا جذاذات فى كريت وفى أنحاء مختلفة من شرق البحر الابيض المتوسط ، بينما قد كشف عن عدد كبير منذ أكثر من نصف قرن فى قرمونة فى جنوب غرب أسبانيا (أنظر أعلاه) وبالرغم من أنه لم يوجد فى الواقع أى نماذج فى فينيقية نفسها ، إلا أنه مما لا شك فيه أن أغلبها قد جاء من ورش فينيقية أما النماذج الاشورية فقد جاء أغلبها من دمشق وشمال سورية وكان التأثير المصرى غالبا ، من السهل أن نبين أن فن مجدو قد نشأ تحت تأثير الأعمال الفنية الكنعانية المنقولة عن أصول مصرية من عصر الرعامسة • وعاجيات السامرة تنتمى الى مجموعتين : يمكن تأريخها فى الوقت الحالى من القرنين الثامن والتاسع على التوالى ، وان كانت بعض الأدلة تشير الى أنهما من عصر واحد ، وتتكون المجموعة الاولى من عاجيات نحنت نحنا بارزا رقيقا جدا مع الافراط فى استعمال رقائق الذهب للتغشية ، واللازود فى الترصيع ، وزجاج ملون ، وعجينة ملونة (بودرة زجاج) الخ • •

والوحدات الزخرفية مصرية بحثة فى الالهام ، وتشمل أشكالا خرافية مثل حورس الطفل على زهرة اللوتس ، وازيس ونفتيس تقديسان عمود - التجد ، وحورس ممسكا برمز الحق • وقد صنعت هذه المجموعة بالتأكد فى فينيقية ، ربما فى القرن الثامن • والمجموعة الثانية التى تشبه ثبها شديدا عاجيات أرسلان تاش (أواخر القرن التاسع) فنقشها أكثر بروزا ، وترصيعها بسيط أو منعدم ، وتتكون خاصة من تماثيل على صورة أبو الهول ، والسيدة فى النافذة ، وبلاطات صغيرة نقش بصور الاسد أو الثور ، الخ ، وربما جاء جزء من هذه المجموعة من منطقة دمشق ، مثل نماذج أرسلان تاش • والقطع الفردية التى وجدت فى أرسلان تاش كانت مستعملة لترصيع سرير الطقوس ، وعلى احدى القطع نقش يذكر اسم حزائيل ملك دمشق فى زمن ياهو الاسرائيلى • وقد استعملت العاجيات بصفة عامة كترصيع لتزيين الاثاث الخشبى الثمين •

وثمة عدد كبير من أطلال التحصينات التى كشف عنها من عصر الحديد الثانى ولكن نظرا لصغر حجم الكتاب سنقتصر على بعض نماذج قليلة • وتحصينات السامرة تمثل عصرين رئيسين ، أحدهما الاسرة العمرية بين ٨٧٠ و ٨٤٢ ق.م • ، والثانية أسرة ياهو ٨٤٢ - ٧٤٤ • وأبنية المرحلة الاولى ، كل من التحصينات والمبانى كانت بلا شك أحسن ، من ناحية التنفيذ ، من أبنية المرحلة الثانية • وجدار الحصن الجبلى من عصر آخاب هى بناء به غرف للمدافعين ، وفى الشمال كانت غرف المدافعين طويلة وضيقة ، ومحاورها عمودية على الحائط ، بينما فى الجنوب والغرب كانوا من نفس الطراز الشائع فى أوائل عصر الحديد • وسهك القطاع الاسبق لجدار الحصر الجبلى كان حوالى عشرة أمتار ، أما فى القطاع الثانى فكان يبلغ حوالى خمسة أمتار • والبناء فى هذا العصر يشبه بناء مجمو السلیمانية وان كانت تمتاز بجودتها فى كل أجزائها • وتظهر فى بعض الاساسات عقد خشنة ، وان كانت على ما يحتمل تخفى بعيدا عن الانظار تحت سطح الارض •

واطلال بوابة توجد عندهما يجب أن يكون النهاية الجنوبية للسامرة الاسرائيلية تختلف اختلافا جوهريا عن البوابات الاولى ، ويبدو أنها تعكس مرحلة أولية من طراز البوابات التى تؤدى الى الداخل بطريق غير مباشر والتى نجدها فى تل بيت مرسيم فى القرن السابع وأوائل

القرن السادس • وآخر بوابة في لخيش تبين تصميمها مماثلاً • وإذا كان هذا هو الأمر في السامرة أيضاً ، إذن لدينا هنا من القرن الثامن على ما يحتمل أول مثل فلسطيني معروف لنا من هذا الطراز من البوابات ، وقد عرف لنا أيضاً من بوابة دمشق في القدس • وبين هذين التاريخين تقع بوابة تل النصبة وبوابة مجدو الثالثة • بوابة تل النصبة يبدو أنها تنتمي إلى القرن التاسع قبل الميلاد وهي نموذج جميل من طرازها ، ولها زوجان من الارصفة على الجانبين ، بدلا من ثلاثة أزواج التي كانت توجد عادة في البوابات من حوالي القرن العاشر •

بوابة مجدو من القرن الثاني لها أيضاً زوجان من الارصفة على الجانبين ، والبوابة الشرقية الاقدم في تل بيت مرسيم تشبه بوابة تل النصبة أشد الشبه في تصميمها ، وربما يرجع تاريخها أيضاً إلى القرن التاسع قبل الميلاد • وهذا الطراز الذي تحت البحث كان شائعاً في سوريا أيضاً حوالي نفس الوقت ، ولا يمكننا القول أي الاقليمين كان الاسبق في ادخاله • ومن مميزات بوابة تل النصبة الهامة وجود ذلك حجرية في الجزء المحاط جزئياً بسور والذي يقع خارج البوابة مباشرة ، حيث يمكن أن نتصور بسهولة شيوخ المدينة وهم جالسون ينجزون أعمالهم في أمسيات الصيف الرطب • وعند البوابة الغربية لتل بيت مرسيم كشفنا أن الجزء الشمالي من برج البوابة يحتوي على فناء مستطيل يؤدي إليه من داخل البلد مدخل واسع • وهذا الفناء المكشوف والمبلط بالحجر الجيري يؤدي إلى ست حجرات مبلطة ، زود كل منها بباب قوى يمكن غلقه بمزلاج لحماية الشخص الذي يشغله ليلاً • ودواليب في الحائط ، وحوض مبنى للغسل ، وغيرها من وسائل الراحة توحى على الفور بأن هذا المكان كان قصراً رسمياً للضيافة للبلد اليهودية في فترة ما قبل النفي ، ويبدو أن الكشف عن الاوزان القانونية فيها يدل على أنه كان من بين الضيوف تجار ، وجامعو الضرائب ، أو كلاهما •

وتل مرسيم لا تزال المدينة الوحيدة من عصر المملكة المنقسمة المتأخرة التي نقيب فيها تنقيبا كافيا كشف عن مساحات شاسعة من البيوت الخاصة في حالة جيدة من الحفظ • وهذا جعل في الامكان رسم صورة دقيقة عن الطريقة التي عاش بها الناس في بلدة صغيرة من عصر أرميا •

لقد ادعى دائما نقاد تاريخ التوراة المتعصبون بأنه لم يكن ثمة انقطاع عنيف فى استمرار الحياة فى يهوذا نتيجة للغزو الكلدانى • وقد أنكر س • س • تورى C.C. Torrey على الاخص صحة تاريخ قصة الاسر فى الملوك وحزقيال وعزرا • اذ كان يعتقد أنه بعد صدمه الغزو البابلى ، كان الاهالى قد عادوا من مخابثهم المؤقتة الى بيوتهم القديمة التى أعيد بناؤها اذا كانت قد هدمت • واذا كان هؤلاء العلماء صادقين فى زعمهم ، فلم يقع فى الاسر اذن الا عدد قليل من النبلاء ، وحتى القدس قد أعيد سكانها سريعا كما أعيد بناؤها • وقصة التجديد فى عزرا ، حسب رأى تورى ، لا صحة لها اطلاقا • وان كنا لن نحاول هنا الدخول فى التفاصيل ، الا أنه يكفى فيما يختص بهذا الموضوع أن نقول أن عددا كافيا من البلدان والحصون فى يهوذا قد تم الان التفتيش فيها كلها أو فى جزء منها ، كما درست مواقع أخرى كثيرة دراسة دقيقة بغرض تحديد التاريخ التقريبي الذى دمروا فيه آخر مرة ، وكانت النتيجة واحدة وقاطعة • فعدد من البلدان قد تم تدميره فى أوائل القرن السادس (١) قبل الميلاد ولم تسكن بعد ذلك اطلاقا ، والبعض دمر فى نفس الوقت ثم عاد اليها العمار جزئيا بعد فترة ، أما البعض الآخر فقد دمر ولم يعد العمار اليه الا بعد فترة طويلة من الهجر تتميز بتغير ملحوظ فى الطبقة وبأدلة خارجية تثبت استعمالها لأغراض غير مدنية • ولا تعرف حالة واحدة كانت فيها بلدة من يهوذا الاصلية مسكونة بصفة مستمرة خلال فترة النفى • والبلد التى تدل على نقيض ذلك فقط ، هى بيت ايل ، التى تقع خارج حدود يهوذا الشمالية مباشرة فى فترة قبل النفى ، فلم تدمر فى ذلك الوقت بل استمرت آهلة بالسكان حتى الجزء الاخير من القرن السادس •

(١) هذا نهاية تاريخ المدنية الاسرائيلية فى فلسطين • المترجم •

عصر الحديد الثالث

٥٥٠ - ٣٣٠ ق م

حتى وقت قريب لم يعرف الا القليل عن فخار عصر الحديد الثالث. (العصرين البابلي والفارسي) ، وقد أدى الغموض الاثرى لهذا العصر الى عدة أخطاء فى التأريخ ، ومن ثم أرخ ماكاليستر Macalister وواتزنجر Watzinger وتبعهم فى ذلك كثيرون غيرهم ، معظم الفخار المميز من عصر ما قبل النفى فى جنوب فلسطين من العصرين الفارسي وأوائل الهيلنستي . وعندما نقل هذا الفخار الى مكانه المضبوط من التاريخ قبل ٥٨٧ قبل الميلاد ، ترك خلفه فراغا . ومنذ ذلك الوقت فان أعمال التنقيب فى تلك المواقع التى من أوائل عصر ما قبل النفى مثل بيت زور ، وتل النصبة وبيت ايل (كنيسة الملاحين) ، قد ساعدت ماديا على توضيح الصورة التى أمكن تكوينها من السامرة وجازر . كما أن جبانات العصر الفارسي فى تل الفرعة فى النقب وعتليت جنوبى الكرمل تد أسهمت بتوضيحاتها ، كذلك لدينا الآن فكرة واضحة معقولة عن مميزات فخار القرن الرابع . وعلى أية حال ، فلا يزال من غير المؤكد اين توجد الفجوة بالضبط بين فخار عصر الحديد الثالث من بيت ايل فى القرن السادس وبين الفخار الفارسي نفسه . وترجع أهمية هذا التساؤل على الاخص بالنسبة الى تاريخ سكى المنطقة ، وليس الى تاريخ الابنية أو الاثار الفنية الذى يمكن اثباته ، كقاعدة عامة ، بطرق أخرى . أضف الى ذلك أن النقود قديدت فى الظهور فى القرن الخامس ، وفى القرن الثالث قبل الميلاد أصبحت متوفرة فى المواقع التى نقب فيها .

وتدل نتائج التنقيبات على أن إعادة استيطان يهوذا كان عملا بطيئا ، وعلى أن الاقليم لم يستعد كثافة فى السكان تضارع كثافة سكانه القديمة قبل القرن الثالث قبل الميلاد . وقد سمحت السلطات الفارسية لاهالى فلسطين بدرجة كبيرة من الاستقلال الذاتى . فمثلا منح عظام تساوسة يهوذا مثل ما منح عظام القساوسة المعاصرين من اترجاتيس Atargatis فى هيرابوليس Hierapolis (١) فى شمال سوريا نصريحا

(١) هيرابوليس هى منبع الحالية ، مايوج القديمة .

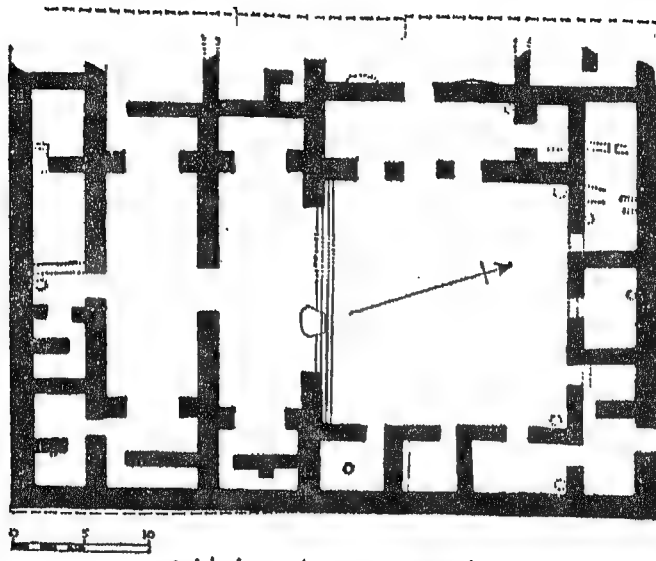
لسك نقودهم ولجمع مكوس معابدهم الخاصة بهم • وقد عثر على نقود فضية في كميات كبيرة ، سكت تقليدا لدراخمة اتيكا ، ولكن عليها النقش العبرى أو الارامى « يهود » ، كما تحمل اختتام الزلع من العصرين الفارسي وأوائل الهيلنستي الكلمتين « يهود » ، و « أورشليم » وبعضها عليه نقش غامض م • تسمى — هـ : التي لم يعرف لها تفسير حتى الان ، وربما كانت نوعا من الاصطلاحات المختصرة •

وقد ازداد النفوذ الاغريقى خلال هذا العصر ، وفي القرن السادس قبل الميلاد نشأت مراكز تجارية اغريقية عديدة على شواطئ مصر وفلسطين وسوريا ، وقد كشفت أعمال التنقيب فى هذه المواقع عن كميات من الفخار الايونى والاتيكي Attic ذى رسومات سوداء • كما كشف فى تل النصبة عن نموذج بديع لفخار كلازوميناى Clazomenae ولكنه مهشم لسوء الحظ ، من أواخر القرن السادس • وبعد بداية القرن الخامس حل فخار اتيكا ذو الرسومات الحمراء محل الفخار الايونى والفخار ذى الرسومات السوداء ، وسرعان ما صار من أكثر السلع المستوردة رواجاً فى الاقليم ، وتظهر الاوانى والجذاذات فى كل موقع من هذا العصر يجرى فيه التنقيب • وقد أشرنا فيما سبق الى أهمية عملة اتيكا التى صارت العملة الرسمية فى التعامل فى فلسطين منذ أكثر من قرن وربع قبل الغزو المقدونى • وقد قلدت نقود اتيكا محليا فى النصف الثانى من القرن الخامس ، وفى القرن التالى نجد كل أنواع التحويرات البربرية للأشكال التى كانت موجودة على الدراخمة ، وقد ظل الاحتفاظ ببومة أثينا حتى صارت الى حالة لا يمكن التعرف فيها عليها •

ونماء الصلات التجارية الاغريقية مع فلسطين يقابله ويكملة تطور مماثل فى تجارة الجنوب العربى • والصلات مع الجنوب العربى يوضحها توضيحا جيدا الاكتشافات فى أماكن مثل جمّة فى النقب ، وجازر على سهل شارون الساحلى • وقد عثر فى كل هذه الأماكن على طبقة متميزة من الأشياء ، خلال العصرين البابلى والفارسي ، تكونت من مذابح البخور وهى مكعبة الشكل مصنوعة من الحجر الجيرى ولها أربع قوائم قصيرة ، وفوق سطحها حوض غير عميق • وقد زينت جوانبها بحقنة بنقوش الحفر الغائر مكونة من وحدات هندسية ورسومات

خشنة لحيوان الصحراء ونباتها ، يشمل على الاخص أشجار النخيل والجمال والماعز البرى ، والوعول والحمار البرى •• وفى حريضة فى حضرموت عند النهاية القصوى للجنوب العربى ، كشفت مس كاتون تومسون Caton Thompson منذ وقت قريب عن معبد لاله القمر من العصر الفارسى • وقد عثر به على مجموعة من هذه المذابح ، تشبه أشد التشبه تلك التى من جملة ، وقد زال أى شك عن مهمتها بما كشفتته من آثار مادة راتنجية ذكية الرائحة على احداها • وقد وجدت قبل ذلك مذابح أقدم قليلا من السابقة ، كانت للبخور ولها نفس الشكل العام وعليها نقوش باللغة العربية الجنوبية دون عليها أنواع البخور المختلفة منها البلسم والناردين (أو سنبله الطيب) التى يجب استعمالها • وفى ذلك الوقت كان العرب البدو قد استولوا على معظم جنوب شرق الاردن والنقب فى فلسطين ، والتجارة المعينية كانت فى ذروتها ، ومحطات القوافل المعينية كانت منتشرة على الطريق الممتد مسافة ١٥٠٠ ميل من بلاد التوابل الى فلسطين ومصر • وكان اسم الزعيم العربى السائد فى جنوب فلسطين فى عصر نحشيا هو جشم العربى (نحشيا ٦ : ١ ، ٦) • وقد كشف عنه حديثا فى النقوش اللحيانية والارامية حيث كان يدعى ملك قيذار : •

ولم ينقب الا فى بعض أبدية قليلة من هذا العصر ، والمبنى الوحيد الذى يستحق ذكرا خاصا هو فيلا فارسية على قمة جبل لخيش (شكل ٤٧) وهذا المبنى من أواخر القرن الخامس ، أو أوائل الرابع قبل الميلاد يذكركنا بقوة ، من حيث التصميم والتفاصيل ، بتلك المباني الفرثية المبكرة مثال تلك السراى الصغيرة فى نبور فى بلاد بابل (بابلونيا) حيث نجد استعمالا مماثلا للساحات والاعمدة • وان كان من الطبيعى أن توجد أيضا اختلافات يمكن تفسيرها فى الواقع تفسيراً جزئياً على أنها نتيجة لاختلاف الزمن • كذلك يعرف الان عدد كبير من المقابر الفارسية ، وهى تختلف اختلافا كبيرا فى الشكل ، ولكن يحدد تاريخها محتويات الدفنات الخاصة بتلك المقابر ، وهى عادة كثيرة الغنى • فمثلا كشف بترى فى تل الفرعة فى النقب عن مقبرة تحتوى على سرير وكرسى من البرونز فى حالة جيدة من الحفظ ، وآنية فضية مضلعة جميلة ، ومغرفة لها يد نحتت على هيئة فتاة عارية ملفوفة القوام • وكالعادة أعطى لها بترى تاريخا مرتفعا قديما ، ولكن عندما نظفت أجزاء السرير



شكل ٢٠ - قصر فارسي في لخيش
(حوالي ٤٠٠ ق. م)

وجد أنها منقوشة بعدد من الحروف الارامية من العصر الفارسي • وقد أثبتت الدراسة المقارنة التي قام بها ج • ه • اليفي J. H. Diffe هذا التاريخ بصفة قاطعة ، كما أثبتت في نفس الوقت تاريخا معاصرا من العصر الفارسي لبعض المقابر الصخرية في جازر التي أطلق عليها ماكاليستر « فلسطينية » • مثل تلك المقارنات الطبوغرافية ، حينما تجرى طبقا لنظام وبدقة ، تعطى نتائج سليمة تماما مثل علم طبقات الارض •

الفصل السابع

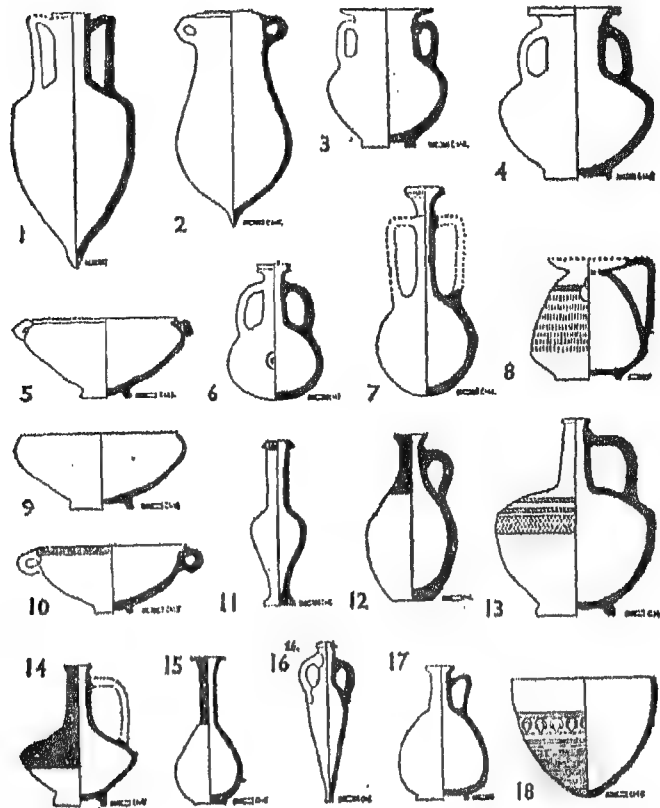
فلسطين في العصر اليوناني الروماني

سنلخص في هذا الفصل الحالة الراهنة لمعلوماتنا عن آثار فلسطين منذ أن فتحها الاسكندر في ٣٣٢ ق • م • حتى انتصار المسيحية ، في أوائل القرن الرابع الميلادي ، وسندرس هنا تاريخا لم ينس كل النسيان اطلاقا • اذ تصف مئات المجلدات التي عاشت في اليونانية ، واللاتينية ، والعبرية ، والارامية تاريخ وحضارة تلك القرون الست التي شاركت فيها فلسطين مشاركة تامة بصفتها مقاطعة صغيرة في الامبراطوريتين المقدونية والرومانية • وبفضل يوسيفوس وأبوكريفا^(١) Apocrypha ، والعهد الجديد ، وأيضا ميشنا Mishnah وجيمارا الفلستيني ، وغيرها من المؤلفات العبرية والارامية ، لدينا معلومات تاريخية كثيرة عن الاحوال في فلسطين • وان كانت لا تزال توجد فجوات غامضة عديدة في هذا التاريخ تحتاج الى توضيح • وقد أمدتنا أوراق البردي اليونانية بمعلومات كثيرة عن حالة فلسطين تحت حكم أسرة لاغوس Lagides (البطالمة) من القرن الثالث ق • م • كما أثارَت النقوش النبطية الحالة السياسية لشرق الاردن وحضارته منذ قبل هذه الفترة حتى بعد انتهائها • كما ألقت الكتابات الارامية واليونانية ضوءا على تاريخ اليهود • وقد ساعدت النقوش اليونانية واللاتينية الموجودة على النقود والمباني على تأريخ الكثير من الابنية وعلى تتبع مجرى الحياة العامة التي لم تعرف تفاصيلها في غير ذلك من المصادر •

ونظرا لان عددا كبيرا من الابنية التي سنتناولها بالبحث في هذا الفصل قد ظلت قائمة على الدوام ، اعتقد البعض عن سذاجة أنها ليست بحاجة الى فحص جديد • ولكن هذا ليس صحيحا البتة ، اذ يحتاج

(١) قصص كتبه جماعة من المؤرخين المعاصرين للعصور المسيحية الاولى ، واعتبره البعض من ضمن الاناجيل ، ولكنها لا تدخل ضمن الاناجيل المقدسة التي كتبها الرسل • المترجم •

عدد كبير منها الى الكثير من أعمال التنظيف قبل أن يميّط اللثام عن أسرارها الى علماء الآثار . وفضلا عن ذلك ، فإن أبنية عديدة قد أرخت ، بل لا يزال بعضها يؤرخ تأريخا خاطئا ، وأنه لفي نصف القرن الماضي فقط حين تعلم العلماء الاكفاء أن يميزوا بوضوح بين مباني هرودس Herod والمباني الاقدم منها أو المتأخرة عنها . وكل حفائر جديدة تجرى في موقع يوناني — روماني تحتم اجراء بعض التعديل في التأريخ المعماري . وبينما في هذا العصر تحل بصفة عامة النقوش ، وخاصة النقود ، محل الفخار . وتوجد حالات عديدة في كل تنقيب ثمندنا فيها الجذاذات المتواضعة بمعلومات دامغة بخصوص تاريخ الابنية اليونانية الرومانية (شكل ٢١)



شكل ٢١ — فخار هيلينستي في متحف فلسطين

وعندما يقارن المرء بين قلة الاثار المعمارية المعروف أنها تنتمي الى خلفاء الاسكندر في فلسطين وسوريا وبين كثرة تلك الاثار في مصر وآسيا الصغرى ، فان المرء ليبأس من وجود صورة أثرية مناسبة للعصر الهيلنستى . ولكن الحالة لا تدعو الى اليأس الشديد . اذ نظرا للاتصال المستمر بين جميع أنحاء العالم الهيلنستى وخاصة تلك العلاقات السياسية والثقافية الوثيقة بين مصر وفلسطين من ناحية ، وبين سوريا وآسيا الصغرى من ناحية أخرى ، فان بعض الاثار المعمارية القليلة في فلسطين وسوريا تحظى بأهمية لا تتناسب مع الواقع . فهذه الامثلة القليلة تمدنا بالدليل الملموس الذى نستطيع منه أن نعيد تكوين صورة كاملة عن طريق المقارنة ، على أساس المبدأ المشهور *ex ugue eonem* وهو إعادة تكوين شيئا ما من جذاذة وذلك بمقارنتها بقطعة أخرى من نفس النوع .

وبينما تثبت الادلة المستمدة من النقود والفخار على أن عددا كبيرا من المواقع التى تم التنقيب فيها كانت مسكونة خلال الفترة التى حكم فيها بطالمة مصر فلسطين (٣٢٣ - ٢٠٠ ق م) ، فان الاثار الوحيدة الهامة التى عثر عليها من هذا العصر في فلسطين هي المقابر الملونة في مريسة^(١) (السندحنة) ، من النصف الثانى من القرن الثالث ق م . وهذه المقابر التى كشف عنها حوالى ١٩٠٢ ، وقام بنشرها تباعا ج . ب . بيترز Peters وهـ . ثيرش H. Thiersch ، قد نحتت في صخر جبل من الحجر الجيرى الرخو ، وزينت لرؤساء جالية صيداوية كان قد أسسها في هذا المكان أحد أتباع أبوللو حوالى منتصف القرن الثالث قبل الميلاد . وقد زينت جدران المقابر بعناية بأشكال ومناظر ملونة ، كما ملئت الاماكن الخالية بالنقوش والكتابات اليونانية . وعندما فتحت المقابر لأول مرة كانت ألوانها زاهية بدرجة غير عادية ، أما الان فقد اختفت ألوانها أو تلفت الى درجة كبيرة ولم يبق منها ما يمكن رؤيته الا القليل . ومحتويات الرسوم والنقوش ذات قيمة تاريخية كبيرة فهي تساعدنا على وصف احدى مراحل الاغارقة بشيء من التفصيل . ولما كانت مريسة تقع في أدوم ، فهذه الكتابات تساعدنا أيضا على رسم صورة للحياة والدين في

(١) هي مريسة الوارد ذكرها في التوراة . يشوع ١٥ : ٤٤ ، وموقعها الان تل السندحنة على بعد ميل تقريبا جنوبى بيت جبرين . المترجمان .

المستمرة الادومية جنوبى يهوذا • وأهم الصور الملونة أفريز يمثل صفا طويلا من الحيوان البرى ، فى الغالب نقل من كتاب يصور الحياة البرية رسمت مناظره فى حديقة الحيوان المشهورة بالاسكندرية وان كان الفنان لم ير كل الحيوانات عيانا اذا كان بعضها محض خرافة • وهذه المقابر غنية جدا بالمادة العلمية حتى أن المؤلفين المكلفين رسميا بالنشر غات عليهم أن يكتشفوا أو يسجلوا بعض الموضوعات البالغة الاهمية ، وكان ضمن ذلك نقش أرامى طويل نوعا ما وشمعدان كانا يلقيان ضوءا أخذا على العمودين القائمين أمام واجهة هيكل سليمان •

وأهم ما يعبر عن العصر السلوقى التالى هى الاثار ، وان كان العصر المكابى الذى يتداخل فيه جزئيا (١٦٥ - ٣٧ ق • م) يتفوق عليه فى آثاره • وأهم الاثار جميعا من عصر السيطرة السلوقية نصريح عائلة طوبيا (الذى أسسه طوبيا العمونى) (نحميا ٢ : ١٩ : الخ) فى عرق الامير فى وسط شرق الاردن حيث نجد بعض المقابر الصخرية ، التى تحمل احداها اسم طوبيا الذى حفر حفرا عميقا فى الصخر بحروف أرامية من القرن الثالث قبل الميلاد • وطوبيا هذا من سلالة عدو نحميا ومن المحتمل أنه هو نفسه طوبياس المذكور فى برديات زينو Zeno التى عثر عليها فى جرزة بالفيوم ، وكان طوبياس حاكما على عمون مثما كان سلفه منذ قرنين مضيا • وعلى مسافة من هذه المقبرة يوجد بناء مستقل ، مبنى بكتل ضخمة من الحجر ، لها أفريز على الاسلوب الهيلنستى المبكر القوى وصور أسفل الكورنيش أسدان أجيد نحتهما • ويتقدم الاسدان عن الشمال ليقابلا أسدين آخرين آتئين عن اليمين • ويبدو أن تفاصيل التيجان الكورنثية لا تسمح بتأريخه من القرن الثالث بل تربط هذا البناء مع هركانوس Hyrcanus ، آخر عائلة طوبيا ، الذى وصف يوسيفوس ما قام به من أعمال البناء : ومن ثم يمكن تأريخ المبنى حوالى ١٧٥ ق • م أى قبل بداية العصر المكابى مباشرة •

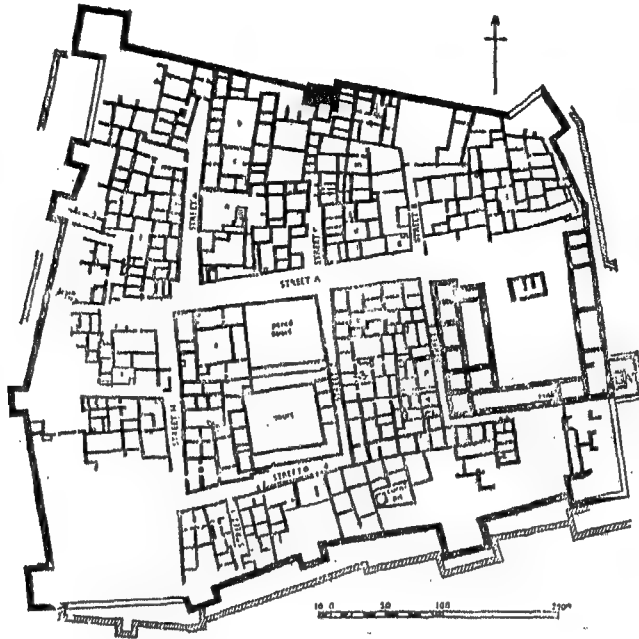
وقد كشفت أعمال التنقيب فى السامرة عن تحصينات هيلينستية أرحها كروفوت بدقة فى أحدث مؤلفاته • وأقدم هذه البانى هى سلسلة من الابراج المستديرة التى بنيت بازاء خط جدار غرف المدافعين التى من عصر بنى اسرائيل • وقد بنيت هذه الابراج بعناية فائقة ، وقد اعتقد ريزنر أنها تنتمى الى القرن الثانى ق • م ، ولكن

كروفت وبندور قد نجحا فى تحديد تاريخها الهيلنستى المبكر ، تقريبا بين ٣٢٣ و ٣٢١ ق م ، عندما أعاد برديكاس Perdicas بناء السامرة حسب قول يوسيبوس Eusebios . وربما بعد قرن ونصف قرن ، أثناء الحرب بين السلوقيين وبين المكابيين حين شيدت قلعة ضخمة لها جدران يبلغ سمكها أربعة أمتار تقريبا ، وقد أרךها ريزنر خطأ من القرن السادس ق م .

وأهم أطلال المكابيين التى وجدت حتى الان فى فلسطين هى فى بيت زور التى تسيطر على الطريق الشمالى - الجنوبى الممتد من بيت المقدس الى حبرون على الحدود بين اقليمى اليهودية وأدوم . وعندما نقب فيها سيلرس O. R. Sellers بمساعدة المؤلف (١٩٣١) ، عثر بها على أطلال واسعة جدا تنتمى الى هذا العصر . ويوجد على القمة أساسات قلعة كبيرة ، تبين ثلاث عصور مختلفة من المبانى ، قد تهدمت جميعها لسوء الحظ حتى أصبحت تحت مستوى الارضية ، مما يجعل من الصعب تأريخها تأريخا دقيقا . ولكن لحسن الحظ عثر على حوالى ٣٠٠ قطعة من النقود أثناء أعمال التنقيب ، منها ١٢٦ تحمل أسماء أنطيوخوس ابيفانيس Epiphanes (١٧٥ - ١٦٤ ق م) وابنه أنطيوخوس يوباتور Eupator (١٦٤ - ١٦٢ ق م) والادلة المستمدة من النقود تتوازى بصورة مذهلة مع أدلة الكتاب الاول للمكابيين التى تذكر فيه عادة بيت زور فى موضوع الحرب بين السوريين والمكابيين . وقد أرجع المستكشفون القلعة الثانية الى القائد المقدونى باكيديس Bacchides الذى حصن بيت زور حوالى ١٦١ ق م . (المكابيون الاول ٩ : ٥٢) ، ولكن واترنجر Watzinger لفت الانظار الى الروح الشرقى لتصميمه ، وهى تختلف اختلافا بينا عن التصميم الهيلنستى للقلعة الثالثة الاخيرة . وهو محق فى الغالب فى نسبة القلعة الثالثة الى باكيديس . وفى هذه الحالة لابد أن الذى بنى القلعة الثانية هو يوداس مكابىوس بين ١٦٥ و ١٦٣ ق م . ، كما قرر ذلك بصراحة عدة مرات فى سفر المكابيين الاول (١) . اذن تنتمى القلعة الاولى التى لم يبق منها الا بعض أطلال ، الى العصر الفارسى عندما تازمت العلاقات بين يهوذا وأدومية .

(١) أسفار المكابيين من الأسفار المحذوفة من الكتاب المقدس العهد القديم لأنها لا تتفق فى أسلوبها ولا فى حوادثها مع الكتاب المقدس .
[المترجم]

وتعرض بيت زور وجازر ومريسه جميعا آثارا هامة من هذا العصر . وقد عثر في بيت زور على بيوت ودكاكين وحصون وخزانات ، وقد كشف في جازر عن أطلال قلعة سيمون المكابى ، أما مريسة فقد عثر بها على مدينة كاملة من هذا العصر ، بشوارعها وبيوتها المبنية حسب القواعد الهيلنستية ، أى أن شوارعها تجرى متقاطعة متعامدة ، بما يناسب الحياة العملية بقدر الامكان ، مكونة ربوعا (أى بلوكات من البيوت) (شكل ٢٢) . ومن أهم ما عثر عليه من القطع الصغيرة ، خلفا للنقود ، في بيت زور عشرات من أيادي الجرار المختومة باسم رودس ، وكل منها يحمل اسم صانع الفخار أو اسم الحاكم في تلك السنة . وأيادي الجرار هذه جاءت من جرار النبيذ التى كانت تصدرها رودس وغيرها من مراكز النبيذ الايجية في أنحاء عالم البحر الابيض المتوسط ، وهى دليل على وجود حامية اغريقية فى القصر المكابى . وقد عثر على ما يقرب من ٢٠٠٠ يد جرة تحمل أختام رودس وغيرها من المدن الاغريقية فى السامرة التى كانت بديها مدينة متأخرة . والانسنة فرجينا ، جريس عاكفة الان فى اعداد قائمة بالاختتام



شكل ٢٢ - تخطيط لبلدة مريسة الهيلينستية
(القرن الثانى قبل الميلاد)

مستمدة من عشرات الالوف من أيادي الجرار التي أمكن الحصول عليها حتى الان من المواقع الاثرية في جميع أنحاء العالم القديم ، فاذا استطاعت أن تحدد تواريخها بدقة كافية لصارت هذه الايدي لا تقل أهمية عن النقود في استعمالها للتأريخ . وبهذه المناسبة فمن المهم أن ندرك أن النقود قد تلقى ضوءا على مراحل متعددة من التاريخ القديم مثال ذلك في البلاد الثلاثة التي ذكرت في أول هذه الفقرة انتهت سلسلة النقود اليهودية حوالي ١٠٠ قبل الميلاد . وهذه الحقيقة تثبت أن هذه المدن الثلاثة سرعان ما هجرت بعد أن فتح الكسندر يوحنا (حكم حوالي ١٠٤ — ٧٨ ق م) كل فلسطين وانعدم الدافع للاحتفاظ بحاميات في هذه المراكز ، وقد أيدت أدلة الفخار أدلة النقود . وعدم العثور على قطعة واحدة من النقود البرونزية المنسوبة لسيمون المكابي (١٤٣ — ١٣٥ ق م) في أي من المدن الثلاثة يؤيد تأييدا قاطعا رأى العلماء الذين أرجعوها الى نهاية الثورة الاولى .

في ٣٧ قبل الميلاد خلفت المكابيين أسرة هرودس وكان أول ملوكها هرودس العظيم ٣٧ — ٤ ق م . بناء كبيرا ومحبا للثقافة اليونانية . وفي عصر هرودس نجد أن العمارة الهيلنستية قد بلغت أزهى مراحلها في فلسطين في بداية القرن الاخير للهيكل الثاني . وكانت عاصمته اورشليم ، التي حصنها وشيّد فيها أعظم منشآته المعمارية . وقد محت أبنيته محوا تاما كل أثر للمباني السابقة لها لدرجة لم يستطع معها الاثريون حتى الان من العثور على أية معالم مؤكدة من هيكل سليمان أو أي تحصينات قديمة (باستثناء تلك التي على تل الاكمة (Ophel) ويرجع الفضل الى أعمال صندوق تمويل حفائر فلسطين (انظر الفصل الثاني) التي استمرت على أسس علمية أفضل بواسطة س . ن . جونسون وغيره من موظفي مصلحة الآثار الفلسطينية ، فقد أمكن الان مطابقة الوصف الدقيق الذي كتبه يوسيفوس على الاكتشافات الفعلية . كما أصبح في الامكان تقريبا ترسم الطول الكلي للجدار الاول لهرودس والتعرف على أطلال أبنيته . وأجمل نموذج لعمارة هرودس التي تزدان بخط مستقيم بارز مصاد لحافة الكتل الحجرية ، خلاف الحائط الساند لسور الهيكل ، يظهر فيما يعرف باسم برج داود في بوابة يافا . والجزء الاسفل من هذه البوابة يمثل اما هيبيكوس Hippicus واما فزائيل ، وفي الاغلب

يمثل الاخير * ومشكلة الجدار الثانى لهرودس ، التى كانت تحمى الجزء الشمالى المكشوف من المدينة لم تحل بعد ، ويعتبر معظم العلماء خط الجدار هذا من ضمن آثار هرودس التى يبدو أنها كانت تشغل مساحة تمتد من شارع داود حتى الضريح المقدس ، وبذلك يكون الضريح واقعا خارج السور * وان كان لازال من المحتمل أيضا ان حجارة هرودس التى بنيت فى الخط الهادريانى للجدار ، المثل الان فى الجدار الشمالى من القدس التركية ، تنتمى الى نظام التحصينات التى تجرى حذاء الخط الاخير (أى الجدار الشمالى) ، وعلى ذلك فهى تمثل الجدار الثانى ، محتفظة بالضريح المقدس داخل الحائط *

والبنية البديعة للحائط الساند الكبير لساحة الهيكل اعتقد انه سليمانى عندما قام شارلز وارن ' Warren بالكشف عنه لأول مرة جزئيا حتى وصل الى الصخر * وحتى الان يأخذ بعض الكتاب هذا كقضية مسلم بها ، كما لا يزال بعض المتخصصين يعتقدون أن وارن قد كشف عن بعض أجزاء من المبنى السليمانى * وفى رأى المؤلف ان هذا لا يمكن أن يكون ، فبناء هرودس قد نزلوا حتى الصخر انطبيعى ليكون لهم الاساس الذى كان عليه أن يتحمل ثقلا جبارا ناتجا من وزن المبنى الثقيل ومن الحشو الموجود فى باطن الحوائط الساندة * وحتى اذا فرضنا ان مهندسى سليمان كانوا يستطيعون تصميم وبناء مثل هذا المبنى الضخم ، فليس هناك ثمة داع لمثل هذا المشروع العظيم فى ذلك الحين * ومن المؤكد ان الهيكل الاول لم يصمم ليكون مركزا لحج حشود من الناس ، كما كان الحال فى عصر هرودس ، ومن المؤسف حقا انه لم تبق لنا حتى قطعة واحدة من هيكل هرودس نفسه * واكتشافان فقط هما اللذان يمكن الإشارة إليهما عن ثقة * احدهما نموذج كامل من نص اغريقى والثانى جزء من نفس النص ، يحذران السادة من دخول ارباض الهيكل وحتى هذين النصين ينتميان ، حسبما نفترض ، الى الاجيال الاخيرة من الهيكل الثانى وليس الى بداية عصرنا *

واذا أمكن ازالة الرديم من تحت مدينة القدس الجديدة ازالة تامة فمما لاشك فيه اننا سنعلم الشيء الكثير عن أبنية هرودس التى كانت لاتزال قائمة حتى زمن السيد المسيح * والمشكلة المحيرة لموقع برايتوريوم لبيوطى قد حلت الان بتفصيل برج انطونيا الذى قام الاب

فنسنت Vincent حديثا باعادة عمل رسومات له من الاثار التى عثر عليها فى التنقيبات المختلفة بجوار الزاوية الشمالية الغربية من سور الهيكل على الموقع الثانى بالقرب من بوابة يافا وسراى هرودس المجاورة التى تقع تحت الحديقة الارمينية (التى لم تحفر بعد) • ولكن نظرا لفقر النتائج التى أمكن الحصول عليها من أعمال تنقيب كابتن روموند فايل Raymond Weill وماكاليستر Macalister على الاكمة فى التل الغربى (صهيون التقليدى) فلا يبدو محتملا أن حفائر القدس سوف تسفر عن نتائج عديدة ذات أهمية تاريخية كبيرة • والمجسات والتنظيفات التى أجريت بالوسائل العلمية مثل تلك التى أجراها س • ن • جونز و ر • هاميلتون حول خطوط الحيطان القديمة وداخل مجمعات المباني ، تعطينا نتائج أحسن بكثير نظرا لتحديد الاهداف تحديدا واضحا كما يمكن الحصول عليها بالوسائل العلمية الحديثة •

وهرودس وان كان قد اعتنق الديانة اليهودية فقد كان من أصل أدومى وعندما أجبر جون هركانوس الادوميين على قبول الختان واعتناق العقيدة الموسوية ، قبل ذلك بثلاث أجيال ، كان يعامل أقواما تعتبر نفسها انها مشتركة مع اسرائيل فى الجدين ابراهيم واسحق كأصل عام للشعبيين ، وسرعان ما صار الادوميون أشد تطرفا من جميع الطوائف اليهودية • وليس من المستغرب إذن أن يهتم هرودس بمثل تلك الاماكن المقدسة كحبرون (مكفيلة) وممرا (بلوطة ابراهيم) التى كانت مقدسة منذ وقت طويل عند الشعبين • والدليل المستمد من مباني هرودس التى يزين حافة أحجارها خط مستقيم بارز والموجودة بالحرم الاكبر فى حبرون والتى لا يوجد أى شك فى صحة تأريخها ، وكذلك وجود العديد من حجارة هرودس فى الجدران الرومانية فى حرم رامة الخليل على بعد ميلين شمال حبرون ، كافيا لاثبات أصلهم الهرودسى ، على الرغم من عدم وجود أى دليل كتابى مباشر • زد على ذلك انه توجد أدلة طبقية قاطعة لرحلة مباني هرودس فى المكان الاخير •

ويقص علينا يوسيفوس باسهاب ، اعمال هرودس البنائية فى السامرة •

وان كانت الابحاث التى قام بها كروفوت قد خفضت كثيرا من عدد الابنية القائمة التى يمكن نسبتها الى عصر هرودس ، ولكن ما تبقى لا

بأس به من حيث الكم وقيم فى الكيف • وعلى العموم فمعظم مباني هرودس فى السامرة نقلت عن المستويات الرفيعة التى نجدها فى القدس وحبرون • وإلى هرودس يرجع معظم جدار سيباستى من المدينة الرومانية والقاعدة التى أقيم عليها معبد أغسطس وربما الاستاد الدورى (الذى قد يكون أقدم بعدة أجيال) • ومعظم أطلال المباني المبكرة التى لا تزال قائمة حتى الآن فوق الأرض تنتمى الى فترة تقع بين ١٢٠ و ٢٣٠ م • انظر فيما بعد •

وينتمى عدد من أفخم المقابر التى تقع خارج سور أورشليم الى عصر هرودس العظيم • ويذكر نقش أرامى مكتوب على ما يعرف باسم « القديس يعقوب » عددا من أعضاء هيئة القساوسة فى بنى حيزير (أخبار الايام الاول ٢٤ : ١٥) ويبدو أن ثلاثة منهم كانوا من كبار الاساقفة فى عصر هرودس • وهم زكريا المجاور يكون حينئذ أثرا لهم ، كما أن مقبرة ابشالوم هى النصب الجنائزى الذى يرجع لمقبرة يهوذاشافاط وتشير كل من الحلية المعمارية وخط النقش الى عصر هرودس •

وفى ١٩٥٠ — ١٩٥١ نقيب ج • ل • كلسو Kelso وج • ب • برتشارد Pritchard فى أطلال مباني هرودس المطلة على وادى الكلت جنوب أريحا الحديثة • وهنا قام كياسو بتنظيم الابنية المعقدة التى تنتمى الى قصر المشتى لهرودس والتى تثبت أنها تشبه من حيث العمارة والفن الاعمال الاوغسطية فى ايطاليا •

وقلاع هرودس ومبانيه متناثرة فى فلسطين ، عادة فى أصعب الاماكن التى لا يمكن الوصول اليها مثال ذلك قصوره على قمة جبل مسده المطل على البحر الميت من الغرب • وأسهل من تلك فى الوصول اليها قلعة مآخورس Mochaerus على الجانب الشرقى من البحر الميت ، والاسكندريوم Alexandrium على قمة قرن صرطبة فى وسط وادى الاردن • وأشهر مبنى معروف عند العامة هى قمة جبل فرانك النائية جنوب شرقى بيت لحم • ولم يجز التنقيب فى أى من هذه القلاع ، فتكاليف الحفائر لن تتناسب مطلقا مع ضآلة الفوائد • وخرائب قصر مسده قد قام بمسحها أدولف شولتن Schulten فى

١٩٣٢ • وان المرء ليتساءل ، وهو ليس خاليا من التأثير ، عما اذا كان ضمير هرودس هو الذى دفعه الى أن يبحث عن ملجأ فى معاقل لا يمكن الوصول اليها هربا من اثباح هؤلاء الذين قتلهم بوحشية وكذلك خوفا من المنتقمين الاحياء أقارب الاموات •

وبعد موت الطاغية انقضت ٧٣ عاما قبل أن تحل الكارثة النهائية •
والى هذا العصر تنتمى خاصة الحائط الثالث لاورشليم والمقابر المتأخرة • والحائط الثالث كان قد بدأها هرودس اجريبا Herod Agrippa ثم أتمها اليهود خلال الثورة الاولى ٦٦-٧٠ ميلاديا • وفى ١٨٣٨ لاحظ ادوارد روبنسون آثار جدار ضخيم يبعد بعض الشيء الى الشمال من الحائط الشمالى للمدينة التركية ، وفى ١٨٤١ نشر اكتشافه للحائط الثالث ، وفى نفس العام قام الدرسون Alderson معتمدا على نفسه بعمل خريطة أكثر دقة لنفس هذه الآثار • وقد احتدمت المناقشة أجيالا عديدة حول خط روبنسون والدرسون الذى دافع عنه بعض العلماء الامريكان من أمثال صالح مريل Selah Merrill ولويس ب • باتون Paton ولكن رفضها كل الاخصائيين الاكفاء تقريبا ومنها أسماء لها قيمتها منهم ج • أ • سمث وجوستاف دلمان وعلى الاخص من ل • ل • سوكنيك ول • أ • ماير أدت حدثت بين سنة ١٩٢٥ و ١٩٤٠ سلسلة من الاكتشافات الطارئة التى تلتها حفائر منظمة تحت اشراف أ • ل • سوكنيك ول • أ • ماير أدت الى استعادة كل الخط الشمالى لهذا الحائط ، ولم يتبق الا بعض فجوات عند الطرفين لم يمكن ملؤها الا جزئيا • والبناء غير مذهب على الاطلاق ، فهو يتفاوت بين قطع من الحجارة الفاخرة التى زينت حوافها بالخطوط البارزة من أجمل صناعة من عصر هرودس الى قطع كبيرة غير مهذبة كبست بقطع من الحجارة الصغيرة • ومكان الحائط ومجراها يتفقان تماما مع وصف يوسيفوس الدقيق ، وقد بين م • سولوميك M. Solomiac أن وصف روبنسون ورفع الدرسون يطابقان الصورة مطابقة تامة حتى أن الشك لا يمكن الا أن يكون ضئيلا فى أنه قد وضح لدينا الان تقريبا الطول الكلى للحائط الثالث •

ويوجد حول اورشليم عدد كبير من مقابر اليهود من ذلك العصر ، كما تظهر من وقت لآخر مقابر جديدة • وبعض هذه المقابر ما هى الا نصب معمارية مثل ضريح الملكة هيلينا ملكة اديابيني Adiabene ، التى قام

بنتظيها ف • دى سولسى F. de Saulcy في ١٨٥٠ و ١٨٦٣ (انظر الفصل الثانى) ، ومقابر القضاة ، وتؤرخ كل هذه المقابر من العقود الاخيرة للهيكل الثانى • والكثير منها لا أهمية له فى حد ذاته ، ولكنها تمدنا بعناصر تكون فصلا كاملا فى العمارة والفن يستحق الكتابة • وأهم ما وجد فى المقابر التى لم يسبق فتحها هى صناديق من الحجر الجيري جمعت فيها عظام الشخص المتوفى بعد أن تحلل لحمه • وكثير من هذه الصناديق يحمل نقوشا قصيرة باللغتين الاغريقية والارامية التى تعطينا اسم المتوفى ، وفى بعض الاحيان تفاصيل مقتضبة عنه أو عنها ، و • أ • ل • سوكنيك قد جعل نفسه العالم المبرز فى مقابر اليهود وصناديق الدفن فى اورشليم الذى ضاعف عددها بحفائره وأبحاثه • ولنقوش صناديق الدفن التى يبلغ عددها الان المئات ، قيمة تاريخية هامة عند طلاب العهد الجديد على الرغم من كونها مختصرة •

والمقتطف القصصى التالى عن تاريخ هذا الفرع من الابحاث الاثرية سيعطينا صورة عن طبيعتها ونتائجها أفضل من عدة فقرات من الوصف • فى عام ١٩٢٦ قام دكتور ل • أ • ماير (وكان حينذاك يعمل بمصلحة الآثار) بتنظيف مقبرة يهودية جنوب غربى القدس ، فوجد عددا من الصناديق الحجرية الخاصة بعظام الموتى وعليها نقوش أرامية ، نشرها فى ١٩٢٨ دكتور سوكنيك الذى قرأ النص الذى جاء على أحد الصناديق وترجمته : « دوسيئوس والدنا ولارملته » • ومهما كان الامر ، فلكى يحصل المراء على القراءة « ولارملته » التى هى فى حد ذاتها غير منطقية وشاذة فى هذا المتن كان عليه أن يقرأ الكلمة العبرية « الماناه » بدلا من الكلمة الارامية « أرملتا » • واختلاط اللغات أمر غير مألوف على الاطلاق • وفى ديسمبر من نفس السنة قدم الاب سافنيك Savignac من مدرسة الدومنيكان للتوراة فى القدس ، بحثا عند اجتماع الجمعية الشرقية الفلسطينية ناقش فيه خط هذا النقش واقترح قراءة أخرى للكلمة الاخيرة ، وقد اضطر الى قراءة حرفين قراءة مخالفة كى يحصل على هذه القراءة • وعلى الرغم من أن القراءة كانت من ناحية الكتابة أفضل من قراءة سوكنيك كما اتضح فيما بعد صحتها ، الا أن الاسم العلم الذى قرأه سافنيك لم يكن معروفا فى غير هذا الموضع • ولكن سوكنيك دافع عن تفسيره بقوة ، مبينا غرابة مثل هذا الاسم • ولكن بعد ذلك مباشرة اقترح أمينوم يليين

Avinoam Yellin اتباع قراءة الاب سافينيكا على أن تقرأ الحروف كعبارة آرامية «و • لا - لى - مفتاح » أى « لا تفتح » ومن الواضح أن هذه القراءة صحيحة ، وفى الحال قبلها جميع علماء فقه اللغة الذين كانوا حاضرين • ولكن سوكينيك لم يقتنع إلا بعد فترة طويلة • فقد عثر فيما بعد على أمثلة عديدة من نفس العبارة ضمن نقوش المقابر وقد عثر سوكينيك على اثنين منها •

وفى ١٩٣١ عندما كان سوكينيك يدرس المجموعة التى جمعت منذ عدة سنوات فى متحف الآثار الروسى على جبل الزيتون ، عثر على قطعة حجر من المرمر منحوتة نحتا بديعا ، وعليها نقش آرامى ، وكان الاثر موجودا فى الغالب قبل عام ١٨٩٤ ، أى عندما توفى العالم الذى جمع معظم هذه الآثار • وقد ترجم النص ، بمساعدة أ • ن • ابشتين I. N. Epstein (من أبرز علماء فقه اللغة الارامية فى أيامنا) هنا أحضرت عظام عزيزا ، ملك يهوذا - لا تفتح » • وقد اعترض أحد المثقاة الممتازين على النقش لاسباب مختلفة ، ولكن لا صحة لاي من اعتراضاته • زد على ذلك ، كيف يستطيع مزيف أن يرى الطريق المعقد الذى أثبت قراءة العبارة النهائية بعد ذلك بعدة سنوات •

والى جانب الاطلاع الموجودة فى غرب فلسطين التى تنتمى الى عصر هرودس وما يتفرع عنه من فترات ، فان أهم آثار فلسطين الكبرى تأتى من مملكة الانباط فى شرق الاردن ، وخاصة من عاصمتها البتراء (أو البتراء أو بطرة) فمنذ أن اكتشفت بورخارد Burchhardt البتراء فى ١٨١٢ وهذه المدينة تحظى باهتمام بالغ ليس فقط من العلماء بل أيضا من السياح عامة • وكانت صعوبة الوصول اليها حتى فيما بعد الحرب العالمية الاولى سببا فى تحديد عدد الزائرين ، وان كان هذا زاد فى نفس الوقت من سحرها الشعاعى • وقد يسر مجيء السيارة زيارتها الى درجة لا تقارن • ومنذ ١٩٢٩ أجريت عدة تنقيبات فى هذه المنطقة تحت اشراف جورج هورسفيلد واجنس كونرى (التى أصبحت فيما بعد تعرف باسم مسز كونوى) ومرجريت مرى •

وقد وصف سترابو البتراء وصفا صحيحا قبيل نهاية القرن الاول قبل الميلاد • حين قال « مدينة تقع فى واد •••• تحده الصخور الشاهقة

من كل جانب » • يؤدى اليها طريق دائرى بين الصخور الشامخة يدعى الزق ويبلغ طول الزق كيلو مترين ، أما عرضه فنادرًا ما يزيد عن عشرة أمتار ، ويبلغ أقصى ارتفاع للصخور التى تحيط به مائة متر • والصخور الرملية الحمراء والبنية اللون التى عشتت بينها البطراء قد صفت على جانبيها المقابر ، والكثير منها عبارة عن نصب تذكارية بكل معنى الكلمة • ومن بين هذه الاضرحة يبرز ضريحان بما لهما من رونق ، هما الخزنة وقصر فرعون ، وكلاهما يمكن تأريخه من عصر أعظم ملوك الانباط جميعا (أو بعده مباشرة) وهو الحارث الرابع (حارثه ، اريثاس) فيلووديموس Aritas Philodemos (٩ ق م • — ٤٠ ق م) الذى لعب فى تجديد البطراء وتجميلها نفس الدور الذى قام به معاصره الأكبر ، هرودس العظيم بالنسبة لاورشليم • وقد أثبتت أبحاث علماء تاريخ العمارة الممتازين أمثال ويجاند Wiegand وفولترنجر Wulzinger وهورسفيلد ثبوتًا قاطعًا أن هذه النصب الهامة المحفورة فى الصخر ذات الواجهات المعمارية ما هى الا مقابر كرسيت لذكرى الموتى وطقوسهم ، ولا يوجد أى أساس متين للتفسير الشائع القائل بأن هذه العمائر كانت معابد ، وان كان من الطبيعى أن يحتوى بعضها على مقاصير لعبادة الالهة •

وقد أثبتت حفائر هورسفيلد أن هناك ثلاث مراحل من العمران بالبطراء قبل العصر البيزنطى : المرحلة النبطية الاولى من القرن الرابع قبل الميلاد ، الى القرن الاول قبل الميلاد ، المرحلة النبطية الكلاسيكية من القرن الاول قبل الميلاد حتى الاحتلال الرومانى فى ١٠٦ ميلادية ثم المرحلة الرومانية فى القرنين الثانى والثالث الميلاديين وتتميز المرحلتان الثانية وأوائل الثالثة ، أى من حوالى ٥٠ قبل الميلاد الى حوالى ٢٠٠ ميلادية ، بوجود فخار نبطى رفيع جميل اللون ، وكان يعثر عليه فى جميع مساكن هذه الفترة فى جنوب شرق الاردن • والى المرحلة الاولى ينتمى عدد من المقابر التى لها صرح ذات دخلات وخارجات (ولها واجهات تشبه واجهات الصروح المصرية ويعلوها سقف هرمى مدرج وهى خليط من الشكل المصرى والشكل الفارسى — العراقى • وفى المرحلة الثانية كانت تزدان الصروح البسيطة بالجمالون والحلية والكورنيش الهيلنستى • والى جانب هذه المقابر والاضرحة حفرت أيضا فى الحجر الرملى الناعم البيوت الخاصة والهيكل وهى تشتمل على

الأقل على معبد رئيسى واحد (الدير) • وعلى منزل واحد ملون بزق البريد يتضح من أسلوب الرسومات التى على حيطانه أنه ينتمى الى منتصف القرن الاول ق.م • أو بعد ذلك بقليل •

وتتفرد البطراء بوجود عدد من الاماكن العالية التى تميزها ، وهذه معابد مكشوفه كرسيت للالهة ، وتنتمى كلها الى الفترة المبكرة من تاريخ البطراء • وأقدم مكان عال مؤرخ قام المؤلف الحالى بالتنقيب فيه عام ١٩٣٤ ، ويطلق عليه « مكان كونوى العالى » نسبة الى مكتشفه • وهو فى جوهره عبارة عن طريق دائرى خاص بالاحتفالات الدينية حول صخرة مقدسة • وهذا المكان العالى يقع على أعلى نقطة داخل مدينة البطراء المسورة ، ويدل الفخار والنقود على أن هذا المكان كان مستعملا منذ القرن الاول قبل الميلاد ان لم يكن قبل ذلك ، حتى الازمنة المسيحية ، حين دمر • ولما كان الانباط قبيطة عربية ، فليس من المستغرب اذن أن نجد أمثلة عربية شمالية وجنوبية عديدة من طرق الاحتفالات الدينية ، حول أشياء مقدسة • كما توجد طبقة أخرى من الاماكن المرتفعة وهى أقدم نشأة • وربما استمر فيها القيام بطقوس الاماكن العالية اليهودية القديمة بدقة أكثر عن أى جهاز آخر •

وقد كشف جورج روبنسون عن أول مثل من هذا الطراز فى عام ١٩٠٠ ومنذ ذلك الوقت تم الكشف عن عدد آخر • ويقع هذا « المكان العالى العظيم » المعروف باسم « روبنسون » (عند الغربيين) على أعلى قمة فى جبال زيبب عطوف Zibb 'Atuf النجر غربى الخزنة وجنوبى المسرح الرومانى • والمعالم الرئيسية للمكان العالى هى فناء مستطيل محفور فى المسطح الصخرى لعمق نصف متر ويبلغ طوله ١٥ مترا تقريبا • ويوجد غرب الفناء مباشرة مذبحان أحدهما مربع والثانى مستدير ، وقد نحست كل منهما من الصخر الطبيعى ، ويؤدى من الطبقة السفلى سلمان محفوران فى الصخر الى الفناء (شكل ٢٣) • وكما هى العادة فى الاماكن العالية فى التوراة كان الغرض من هذه الاماكن على الاخص هو الاحتفال بالاعياد التى تقام تكريما للالهة فى أوقات معلومة وخاصة فى الصيف • وعلى مقربة من « المكان العالى العظيم » • توجد مسلتان تحتتا بعناية من الصخر المحيط الذى كان مستعملا لأغراض البناء عند الانباط سكان البطراء ولما كان قطع وابرار هاتين المسلتين من جميع الجهات يستلزم ازالة طبقة صخرية عمقها ست أمتار على الأقل ،

فمن الواضح أنهما لا يمكن أن يكونا أقدم من القرن الاول قبل الميلاد عندما بدأ عصر المباني العظيم . وعلى كل حال ، فنوع العمود المقدس الذي وجدناه في زيبب عطوف هو انعكاس لاصل قديم جدا كان منتشرا في شرق الاردن ، ويرجع على الاقل الى القرون الاخيرة من الالف الثالثة (قارن الفصل الرابع) .

وقد بينت أبحاث نلسون جلوك Glueck مقدار كثافة الانباط الذين استقروا بالبلاد التي كانت يوما ما عامرة بالادوميين والموآبيين ، ومدى نشاطهم في فلاحه الارض . . . وقد نقب جلوك أيضا في المعبد النبطي القائم على قمة التل المنفرد الشامخ ، جبل التتور جنوب شرق النهاية الجنوبية للبحر الميت سنة ١٩٣٧ ، وقد أظهر جلوك شبيها كبيرا بين مباني هذه المجموعة وبين « المكان العالي العظيم » في البطراء التي توحى بأن المعبد كان مكانا مكشوبا مثل هذا الأخير . وكما نجد في المكان العالي في البطراء . كان البنائون المتعاقبون حريصين على كسوة المباني السابقة أو تكبيرها دون هدمها واقدام هيك في التتور أرخه جلوك تأريخا صحيحا عند بداية القرن الميلادي الاول ، فأدلة الفخار والأدلة غير المباشرة للنقش النبطي يبدو أنها قاطعة . والهيكلان الثاني والثالث كانا أكثر تعقيدا وهما مزدانان بعدد وافر من صور الاشخاص والزخارف المنحوتة والكثير منها له أهمية بالغة في تاريخ التصوير الوثني في سوريا في القرن الثاني وخاصة في القرن الثالث الميلادي الذي يجب أن يؤرخ الهيكلان منه . وكما رأى جلوك وكان رأيه صحيحا على الرغم من تأريخه المبكر للهيكلين الثاني والثالث ان الالهين اللذين قدسا في هذا المكان هما زيوس — هدد واتركاتيس السوريين — وليس دوسارس (ذو الشرى) النبطي وزوجه اللات وان كان يخلط بين الزوجين الالهيين في الحياة العملية .

واقدم مبنى روماني لازل باقيا في فلسطين من بعد نهاية الاستقلال اليهودي في سنة ٧٠ م . هو المعسكر الروماني والحائط الدفاعي في مسده على الجانب الغربي من البحر الميت « حيث قاوم بعض اليهود المتعصبين حتى سنة ٧٣ ميلادية وقد قامت البعثة الالمانية المهتمة باطلال المباني الحربية الرومانية بالتنقيب في هذه المنطقة بدقة في عام ١٩٣٢ . وقد سبق للبراخت الكشف عن جدار دفاعي مماثل في بثير (بيت العربة) وهو آخر موقع صمد فيه باركوخفا ، قائد

الثورة اليهودية الثانية حول ١٣٥ ، وبهذه المناسبة يمكننا القول بأن التعرف على هذا المكان قد ظل فترة طويلة محل جدل ، على الرغم من وحدة الاسم ، وكان سبب ذلك على الاخص ضالة حجم قلعة باركوخفا ، خربة اليهود ، وعلى العموم نظرا لان معظم نقود الثورة الثانية التى كان اقليمها معروفا قد أمكن تتبعها الى بتير وبالإضافة الى وجود الجدار الدفاعى الرومانى فهذا يزيل كل أثر للشك فى تحقيق موقع المدينة .

وقد صمم الامبراطور هديران على القضاء قضاء تاما على العقيدة اليهودية وكانت اولى خطواته فى هذا السبيل اعادة بناء اورشليم كمستعمرة رومانية ، تحت اسم ايليا كابيتولينا Aelia Capitolina ولم يسمح لاي يهودى بالاستيطان فى ايليا الذى بقى اسما للمدينة حتى الفتح العربى . وهذه الحقيقة تؤكد للآثريين ان كل المقابر اليهودية القديمة تسبق سقوط الهيكل الثانى فى سنة ٧٠ ميلاديا . ولما كان تخطيط ايليا قد بقى على حاله دون تغيير قرونا عديدة فيما عدا بعض اضافات للبنىات والمسكن العسكرية التى تقع خارج السور ، فقد وجد ان من اليسير اعادة عمل تصميم لها . وقد فرض ان ايليا لم يكن لها سور ، وهذا أولا وقبل كل شئ غير محتمل ، نظرا لانعدام الامان فى تلك الازمان ، وقد ثبت عدم صحة هذا الرأى من مجسات ر . و . روبنسون فلم تكن ايليا فقط مسورة ، بل لم يحدث سوى تعديلات طفيفة فى خط سور المدينة منذ الازمنة الرومانية ، والحائط التركى من اوائل القرن السادس عشر لم تخرج فى معظمها عن كونها ترميمات للجدران السابقة او مبنية بحذاء حائط ايليا القديم . ولا يعنى هذا أنه لم يحدث أى تعديل فى نظام التحصينات فمثلا قيل ان الامبراطورة البيزنطية يودوكيا قد بنت حائطا لحماية الاماكن المقدسة . وقد ظن بليس Bliss انه قد تعرف على خط الحائط اليهودكى فوق أساسات جدار هرودس العظيم جنوب تلل أوفيل وصهيون ، ولا يمكننا القول حتى الان عما اذا كان مصييا أو مخطئا ، والمجسات التى قام بها هاميلتون عند الحائط الشمالى من المدينة القديمة فى اورشليم قد أقنعتنه بان ترميما قد حدث فى هذه الحائط فى أوائل القرن الرابع الميلادى قبل عصر يودوكيا .

وبفضل الاوصاف واعمال التنقيب قد أصبح فى الامكان الان اعادة تصميم ايليا كابيتولينا بصورة ادق مما يمكن عمله لاورشليم هرودوس ،

على الرغم من وصف يوسيفوس الكامل (وان كان عادة غامضا) كان يوجد بها شارعان رئيسيان ذوا بواك ومتعامدان • وأهمهما هو شارع دمشق الحالى ، الذى يؤدى من بوابة دمشق حتى ساحة الهيكل ، وكان على محور المدينة الشمالى - الجنوبى • وقد رسم هذا الشارع بوضوح فى خريطة اورشليم المرسومة على فسيفساء مأدبا من القرن السادس الميلادى • وكان يوجد على موقع الهيكل معبدا للاله جوبيتر كاييتولينوس حامى المدينة ، والى الشمال الغربى منه كان يوجد معبد فينوس ، الذى حل محله فيما بعد بازيليك (كنيسة انستاسيوس) الضريح المقدس ولم يعثر على أى أثر لهذين المعبدين ولا بد أن المسيحيين قد دموهما تدميرا تاما • ويوجد فى معظم حفائر القدس بلاطا مختوما باسم الفرقة العاشرة *legio decima Fretensis* التى عسكرت هنا فترة طويلة كحامية للمدينة •

ورغم ان المدن الهيلنستية لاتحاد ديكابوليس (١) شرقى الاردن ، كانت قائمة منذ القرن الاول أو الثانى بعد غزوة الاسكندر ، الا أن توسع هذه المدن لم يبدأ بهمة ونشاط الا بعد أن ضم تراجان دولة الانباط وأنشأ مقاطعة ارابيا • والمدينة الوحيدة التى نقب فيها حتى الان (فيما عدا بعض تنظيفات بسيطة فى عمان ، فيلادلفيا الاغريقية) هى جراسا (جرش الجديدة) التى كشف عن جزء منها فى السنوات من ١٩٢٥ - ١٩٣٤ هورسفيلد واعضاء بعثة التنقيب الانجلو امريكان تحت رئاسة كروفوت ، وفيشر ، وماكون على التوالى • وكان يقسم المدينة من الشمال الى الجنوب شارع ذو بواك ممتد على طول المحور وقد تم تنظيف الرصيف ، الذى كان لا يزال فى حالة جيدة من الحفظ ، بطول الطريق كله •

وعند النهاية الشمالية توجد البوابة الشمالية الضخمة التى بناها تراجان عام ١١٥ ميلاديا وعند النهاية الجنوبية القصوى خارج البوابة الجنوبية بنى هديران قوس النصر (شكل ٢٤) فى سنة ١٣٠ ميلاديا • وكان من المنتظر ادخال هذا البنيان ضمن خط حائط جديد

(١) ديكابوليس كان اتحادا مكونا اسميا من عشرة مدن اغريقية كان منها فيلادلفيا - جراسا - جدارا - ودمشق - ومدينة واحدة بيسان (بيت - شان) - فى غرب الاردن •

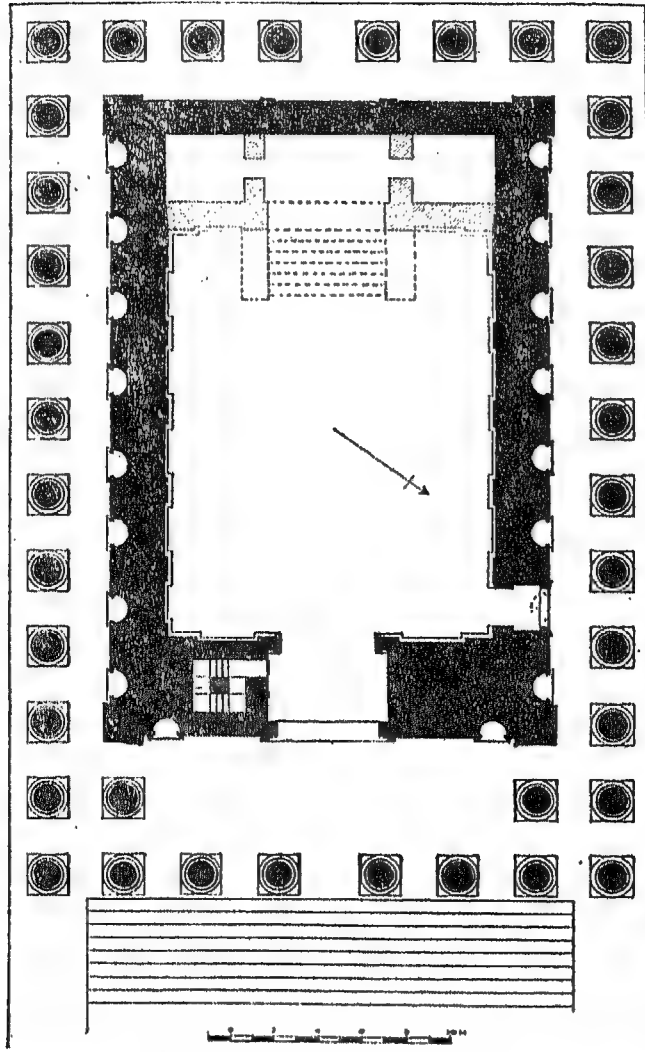


شكل ٢٤ — قوس النصر في جرش ، الواجهة الجنوبية

يحتوى حيا جديدا ، ولكن هذا لم يتم . وأهم مبنى رئيسى فى المدينة كان معبد ارتيميس Artemis الفاخر الذى أقيم تكريما للالهة الحامية لمدينة جراسا . ولابد ان العمل فيه قد استغرق اجيالا عديدة قبل عام ١٥٠ ميلاديا وبعدها عندما كرسى بوابات المعبد الضخمة . ويلى معبد ارتيميس فى الاهمية معبد زيوس الرائع الذى بنى حوالى عام ١٦٣ م . (شكل ٢٥) والفترة الانطونية التى بنيت فى أثنائها هذه المعابد البديعة ، كانت من أزهى العصور فى نواح متعددة فى كل من سورية وفلسطين الوثنيين ، ولكن نظرا لضيق المكان سنضطر الى ترك الحديث عن ميدان السباق أو المسارح والمباني الأخرى فى جراسا التى من القرنين الثانى والثالث الميلادى .

وتحتوى بقية مدن الديكابوليس على أبنية رومانية عديدة ، ولكن القليل مما لازل قائما فوق سطح الأرض يضارع فى حجمه مباني جراسا . وخارج الديكابوليس نجد فى السامرة سلسلة من مشروعات المباني العظيمة من أواخر الفترة الانطونية وفترة سيفيروس من ١٨٠ — ٢٣٠ م . حسب كروفوت . وإلى هذه الفترة ينتمى شارع البواكى الشرقى — الغربى — والفسيفساء الرومانية والاستناد الكورنثى . وقد بنيت جميعا من نفس المادة وب نفس الاسلوب المعماري وقد ثبت من تفاصيل التيجان الكورنثية انها تنتمى الى العصر الذى نتحدث عنه . وتدل النقوش على أن السامرة قد صارت سيياستى تحت حكم سيفيروس ، وهذه الحقيقة هى التى تفسر هذا النشاط الفجائى فى البناء ، وهذا التغيير فى المنزل كان مفضلا فى الواقع عند الامبراطور الرومانى ، وقد صرفت التكاليف من خزينة الامبراطورية .

وخلال القرنين الثانى والثالث ميلاديا ، بدأ عهد بناء المجامع بعد ما حاق بها من دمار على أثر الثورتين اليهوديتين . وقبل ظهور مؤلفات كول وواتزنجر Watzinger وحدث منها كتاب سوكينيك الذى يعد بسهولة الاول فى الميدان . كان عدد كبير من العلماء يعتقدون أن المجامع التى دمرت فى الجليل كانت تنتمى الى عصر السيد المسيح قبل الثورة الاولى ، ولا يوجد الآن أدنى شك فى عدم صواب هذا الرأى ، وانه يستحيل تأريخ أى بناء قبل الفترة الانطونية على أكثر تقدير . ومجامع فلسطين التى كشف عنها وتم تنظيفها حتى الآن تنتمى الى مرحلتين



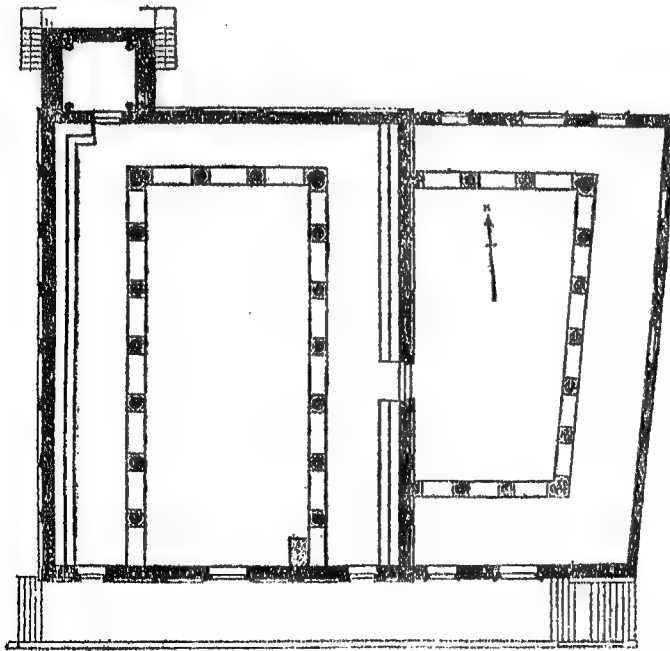
شكل ٢٥ — معبد زيوس في جرش

رئيسيتين ، الثانية منهما تبدأ في النصف الأول من القرن الرابع عندما أعطى ربونى (الحاخام) ابون اذنا رسميا بالسماح بادخال فسيفساء تمثل كائنات حية فى بناء المجمع . ومن الجدير بالملاحظة ان هذا القرار كان قد فقد من تلمود اورشليم حتى ١٩٣١ ، عندما نشر . ن . ابشتين مخطوطا قديما محفوظا بلنجراد يحتوى على هذا القرار .

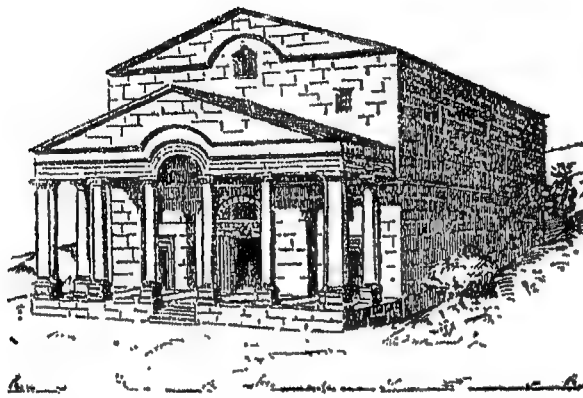
ويمكن تتبع نظام الجامع من المكتشفات الاثرية فى مصر وديولس Delos حتى القرن الثالث قبل الميلاد ، ومن المؤكد انه كانت توجد مجامع

فى فلسطين حتى قبل ذلك التاريخ • واقدام أثر عن مجمع فى فلسطين هو نقش فى القدس • نشره مكتشفه ريموند فايل عام ١٩٢٠ وهو يذكر بناء مجمع بمعرفة ثيودوتوس بن فيثينوس ، قس ورئيس المجمع • ولما كان ثيودوتوس قد أخذ اسمه كما هو واضح ، عن عائلة فيثيني الرومانية gens Vettana فلا بد أنه هو أو أحد أسلافه كان عتيقا من ايطاليا • ولذلك فهناك سبب قوى لربط هذا المجمع مع مجمع العتقاء ، المذكور فى أعمال الرسل ٦ - ٩ - أقوى أنصار الارثوذكسية كما نعرف ذلك من دورا وغيرها من المدن أما فلسطين فيوجد بها فقط الطراز المتأخر الرسمى للمجمع ، وفيه يحتوى البهو الرئيسى على صحن فى الوسط وممشيين جانبيين يفصلهما صفان من الاعمدة •

وكما ذكرنا سابقا ، لا يوجد بين المجمع القائمة فى الجليل ما يسبق الفترة الانطونية الاولى او حتى فترة سيفيروس أى حوالى نهاية القرن الثانى الميلادى • وينتمى الى هذه المرحلة الاولى على الاخص مجمع كهرناحوم وكورازين وكفر برعيم • ولما كانت المدينتان الاوليان تبرزان بقوة فى الاناجيل ، فمن المؤسف حقا الا يكشف عن آثار أقدم من تلك ، وليس من المستبعد البتة وجود أساسات مجمع أقدم تحت اطلال مجمع القرن الثالث فى كفر ناحوم ، ولكن ليس من المنطق أن نهدم هذا البنيان البديع على أمل أن نجد تحته آثارا أقل قيمة منه • وقد بدأ بالتنقيب فى مجمع كفر ناحوم اثنان من الاثريين الالمان هما : كول وواترنجر فى ١٩٠٥ واتم عملهما فى ١٩٢٦ ، الالباء الفرنسيسكان الذين يملكون المكان ، وقد رمم جزئيا وهو من أجمل المناطق التى تستحق الزيارة فى فلسطين (شكل ٢٦ و ٢٧) وقد بنى المجمع بالحجر الجبرى الابيض وهو يتباين تباينا حيويا مع اللابة السوداء التى بنيت بها البيوت المحيطة به • والبهو الرئيسى مستطيل ويبلغ طوله ٢٥ مترا وعرضه ثلاثة أرباع ذلك ، والى الشرق منه يوجد فناء ذو أعمدة • وقد زين المبنى بعناية بزخارف من الحجر المنحوت ، وربما كسيت حيطانه فى الاصل برسومات ملونة على نمط حيطان مجمع دورا المعاصر له تقريبا الذى بنى فى سنة ٢٤٤ ميلاديا • وقد كان كاملا تقريبا عندما عثرت عليه البعثة الفرنسية الامريكية التى قامت بالتنقيب فى ١٩٣٢ ، وحيطانه الغنية بألوانه قد أمدت مؤرخى الفنون بثروة غزيرة من المادة العلمية • ومجمع دورا بمعاونة الحقائق المستمدة من المقابر المنحوتة



شكل ٢٦ — مجمع من القرن الثالث الميلادى فى كفر ناحوم



شكل ٢٧ — مجمع كفر برعيم (شكل تصويرى)

فى السراڊيب الجنازية بروما وجبانة القرنين الثالث والرابع فى بيت
شاريم (شيخ يىرق) فى فلسطين ، قد دلت على مدى اعتماد
الفن المسيحى المبكر على الفن اليهودى فى العصر الرومانى ولما يكن هذا
متوقعا من قبل . وهنا أيضا أثبتت الآثار صحة المثل الفلسفى
القديم « *natura non facit saltum* » « ان ثمة استمرارا فى كل
انقطاع ظاهرى فى التاريخ » . وثمة فرق شائع بين الفن الغسولى وبين
فن مجامع الجليل الا أن مفتاح اريادنى يجرى خلال المتاهة وواجب
الاثرى أن يجد هذا المفتاح ..

الفصل الثامن

السكان واللغات والكتابة والاداب في فلسطين القديمة

لما كانت فلسطين معبرا بين القارات ، كان اهلها دائما خليطا ، ولا يحتمل البته وجود فترة ما منذ بداية العصر الحجري القديم الا مثلت فيها بفلسطين فصائل مختلفة من النماذج البشرية واللغات المتنوعة . ومن ثم فان تحديد الروابط القومية والثقافية على أساس الاجناس البشرية أشد صعوبة في فلسطين عنه في اى منطقة أخرى من العالم .

ومن المؤكد اننا نجد بعض النماذج البشرية سائدة في فترة ما ثم نجد أنواعا أخرى تسود في الفترة التالية . فأصحاب الرعوس الطويلة *dalichocephalic* الذين أخذوا في الصعود في عصر البرونز المبكر في مجدو حل محلهم في عصر البرنز الوسيط أصحاب الرؤوس العريضة *brachycely* الذين أخذوا في الانتشار . وعلى كل حال فربما كانت الحالة تختلف باختلاف انحاء القطر ، ومن ثم لا يمكن التحدث دون الوقوع في الخطأ عن نوع واحد معين على انه نموذج عام .

اما الحالة اللغوية فهي اكثر بساطة ، فمنذ ان كانت اللغة دائما دليلا اساسيا على الانتماء لحضارة قومية معينة ، في حين أن شكل الجمجمة ولون الشعر عادة عديما الجدوى في هذا الخصوص . والدليل على لغة عصر ما يستمد من مصادر مختلفة . وليس من الضروري ان تكون اللغة المستعملة فعلا في الكلام هي نفسها لغة الوثائق الرسمية المكتوبة ولذا لا يمكن أن نفترض دائما ان لغة الكلام كانت هي نفسها لغة الكتابة التي وجدت في اى منطقة معينة او عصر معين ، فمثلا حوالي ١٤٠٠ ق . م . كانت اللغة البابلية المسمارية هي لغة الوثائق الرسمية في فلسطين . وعلى الرغم من ذلك فمن المؤكد (انظر فيما بعد) ان الناس كانوا لا يتكلمون البابلية . وفي الاقليم النبطي في عصر السيد اسيح كانت المخطوطات مكتوبة بالارامية الفصحى ، ولكن نظرا لان

الاسماء الشخصية والقبيلية التي وجدت بها كانت عربية ، فمن المؤكد ان الانباط كانوا يتكلمون العربية • وفى الواقع لا يكاد يوجد اية مخطوطات ارامية فى فلسطين وسوريا من القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد (انظر فيما بعد) وان كنا نعلم من عدة أدلة صريحة ان الناس كانوا يتكلمون الارامية ، التي تغلبت عدة لهجات منها على الاغريقية عند نهاية عصر التوسع الاغريقى •

والدليل المستمد من اسماء الاماكن واسماء الاشخاص هو من الاهمية القصوى فى تحديد اللغات التي كانت مستعملة فى الكلام فى العهود المختلفة • وتحتوى فلسطين على تسلسل طبقي فى اسماء الاماكن • فكل مرحلة من المراحل التي سادت فيها لغة بعينها ممثلة فيها حتى الوقت الحاضر • • ولما كانت أسماء الاماكن شديدة البقاء ، كما اكتشف ذلك ادوارد روبنسون منذ أكثر من قرن مضى (انظر الفصل الثانى) • فمن المحتمل ان كل عصر من عصور العمران قد ترك عددا ضخما من اسماء الاماكن ، وكقاعدة ، فان أقدم الاسماء هي اسماء الانهار والجبال • وفى فلسطين كانت الاسماء التي اطلقت عليها فى أقدم الروايات التاريخية اسماء عربية سامية واضحة او محتملة — ولكنها من الانواع العتيقة التي لا يسهل دائما تفسيرها لغويا ، ومن الاسماء السامية ^(١) لبنان وشريان Sharyan (أو سريون ، لبنان الشرقى ، انتيلييانوس) والكرمل ، ومن المحتمل تابور وجلبوع وجلعاد • ومن الاسماء السامية أيضا الاردن واليرموك ، ويبيوق وارنون ، حقيقة ان اسم تابور قد ارتبط باسم جبل اتابيريون Atabyrion فى رودس وان اسم الاردن يشابه اسم الترع المزعومة التي تسمى ياردانوس Iardanos فى الياذة والودسا ولكن الفقرات المذكورة شديدة الغموض ، والترع المزعومة لم يمكن التعرف عليها باى حال من الاحوال ، وان كان قد امكن اثبات وجود أمير أسسطورى يحمل نفس الاسم • أضف الى ذلك ، ان اسم الاردن له صيغة وأصل ساميان صحيحان تماما •

(١) كلمة سامية مستعملة هذا للدلالة على اللغات او اللهجات العربية القديمة . (المترجم) .

وإذا عدنا الى أسماء البلاد ، نجد ان جميع الاسماء التى حفظت لنا للبقاع الفلسطينية التى عمرت فى الالفين الرابعة والثالثة قبل الميلاد كانت سامية على الأقل فى الظاهر ولا يصبح من السهل التمييز بين أسماء الاماكن السامية وغير السامية المبكرة إلا عندما ينتقل المرء الى شمال سوريا ثم تأتى الاسماء الكنعانية والامورية من الالف الثانية وأغلبها أسماء قبيليه قديمة من أصل سام فيما يظهر ، وإلى هذه المرحلة تنتمى مثلا الاسماء التى تنتهى بـ غم (عامو) « ناس » مثال ذلك ابلعم ويوكتيغم . وكلا الالفين تشتركان فى أسماء البلاد التى سميت بأسماء الهياكل القائمة بها « بيت شيمس (الشمس) وبيت يرح (القمر) بيت داجون ، بيت عنات ، بيت حورون وبيت لحم وبيت ايل » . وفى الأزمنة الاسرائيلية نجد ان أسماء الاماكن قد أخذت من أسماء العشائر والعائلات ، بينما أخذت بعض أسماء الاماكن الأخرى من المميزات المحلية مثل الأشجار والنباتات ، وهى هذه الحالة الأخيرة يستحيل عادة تحديد الوقت الذى استعمل فيه الاسم لأول مرة . وبعد العبرية جاءت الآرامية كلسان عام لفلسطين ، وقد استمر أهل فلسطين يتكلمون لغة السيد المسيح لأكثر من ألف عام . ثم جاءت اللغة العربية فحلت محل اللغة الآرامية تدريجيا ، حتى توفى آخر من كانوا يتكلمون الآرامية فى شمال الجليل منذ أقل من خمسة قرون تقريبا . وفى بعض الأحيان بقى الاسم على مدى آلاف السنين ، وان كانت صيغته تتغير لتناسب احتياجات اللغة الجديدة فى النطق ، والقواعد والمعنى ، مثال ذلك اسم بيت لحم فرغم ان نطقه لم يتغير لمدة ٣٥٠٠ سنة على الأقل فقد كان معناه على التعاقب « بيت الآلهة لآخمو فى الكنعانية » ، وبيت « الخبز » فى العبرية والآرامية و « بيت لحم » فى العربية .

وكما سبق ان اوضحنا فى الفصل الثالث ان الهيكل العظمى وشكل الجمجمة السائدان لانقى القبائل الحامية والسامية المعروفة الحالية كانا قد ظهرا فى العصر الحجري الوسيط فى فلسطين ، أى منذ عشرة آلاف سنة تقريبا . ودون الحاجة الى انكار لما كان هناك من تحركات عديدة لأقوام غير سامية عبر الاراضى الفلسطينية بين ذلك التاريخ وبين الالف الثالثة قبل الميلاد ، فالفرق الوحيد الذى يبدو معقولا هو ان العصر السامى العربى قد بقى سائدا فى التكوين الجيسى فى فلسطين

منذ ذلك الوقت • والساميون ، كما تدل على ذلك لغتهم ، كانوا شعبة من الاصل السامي الحامي واهم اللغات السامية القديمة هي الاكادية (الاشورية البابلية) السامية الغربية ، والسامية الجنوبية ، ويمكن تقسيم السامية الجنوبية الى العربية الشمالية والعربية الجنوبية والمعينية والسبئية والاثيوبية وعدد آخر من اللهجات القديمة والحديثة • مثل هذا التقسيم الفرعى هو لمجرد التسهيل فقط ، ولكنه يقل كثيرا من حيث دلالاته الوراثة عن التقسيمات الماثلة فى اللغات الهندية - اوروبية التى وضعت نتيجة للابحاث اللغوية فى القرن والنصف الماضى • والالسن السامية القديمة ، عدا الاكادى كانت وثيقة الصلة بعضها ببعض فى القواعد والنطق ، بل ان كل لهجة كان يوجد بينها وبين جميع جيرانها كثير من الاصول المشتركة ، كما كان التحول من لهجة الى أخرى يحدث تدريجيا عادة بنفس السرعة التى تحدث بها التغييرات اللهجية الحالية فى فرنسا والمانيا • وعند بداية عصر آل يعقوب (او عصر الالباء) فى أوائل الالف الثانية كانت الاختلافات بين اللهجات السامية المختلفة نادرا ما تزيد عن الاختلافات الموجودة حاليا بين اللهجات العربية الرئيسية ، وحتى الاكادية كانت لا تختلف عن السامية الغربية أكثر من اختلاف المالطية عن العربية العراقية • ومن المؤكد ان الاختلافات بينهم فى ذلك الوقت كانت أقل كثيرا عن الاختلافات القائمة بين اللغات الرومانية الرئيسية فى الوقت الحاضر • واللغة الحامية تشمل اللغات واللهجات المصرية القديمة (١) والليبية (بربر) وفى الالسن الكوشية فى اعلى حوض النيل • ونظرا لكون اللغة المصرية قريبة من السامية جغرافيا وتاريخيا ، لذا فهى اقرب اللغات الحامية الى السامية • وفى اقدم النقوش المصرية من بداية الالف الثالثة ، نجد لغة تختلف اختلافا بينا عن السامية • ويمكن لعلماء فقه اللغة المتخصصين ربط هذه اللغة مع السامية بنفس الدرجة تقريبا (لا تماما) التى يمكن بها ارجاع الحثية الى اللغات الهندية - اوروبية التى كانت معروفة من قبل ، ولكن لا يمكن للشخص السامى الغربى من فهم اللغة المصرية دون دراستها ولن يكون ذلك أسهل عليه من تعلم اللغة الانجليزية (٢) • وان كان تصنيف الضمائر

(١) فى رأى بعض العلماء ان اللغة المصرية القديمة تتبع شعبة اللغات الحامية ولكن الادلة على ذلك ضعيفة .

(٢) حرفيا : من اللغة الروسية للرجل الانجليزى . [المترجم]

والانفعال وقوائم طويلة من الكلمات وعناصر أساسية فى النطق والنحو مشتركة فى اللغتين ولكن اللغتين تختلفان كل الاختلاف بل ويزداد هذا الاختلاف عند المتحدثين بها (١) •

وفى منتصف الالف الثانية قبل الميلاد فقدت كل اللغات السامية الشمالية نهاية الاسم غير المعروف التى كانت « م » • مثال ذلك : كلب طيب « كانت تكتب » كالطوم طابوم « فصارت « كالطومابو » • وان كانت لا تزال تحتفظ بثلاثة نهايات للاسم من حيث موقعه من الاعراب (المبتدأ كلب والمضاف اليه كلب والمفعول به كلب كما هو الحال فى العربية الفصحى (٢) وفقدان الميمية ربما كان أهم اختلاف بين لغة آل يعقوب (الاباء) ولغة موسى (٣) • وثبتت الدراسات الدقيقة للنصوص المكتشفة حديثا وهى من القرنين الخامس عشر والرابع عشر قبل الميلاد ان نهايات الاسم من حيث موقعه من الاعراب لا تزال توضع بعناية بواسطة الكتاب الذين دونوا الواح العمارنة ، ومؤلفى شعار أوغاريت ، والكتعانيين الذين سجل اسماءهم المصريين • وتدل الكتابات المصرية من القرنين الثالث عشر والثانى عشر على ان الكتعانيين كانوا يسقطون نهايات الاسم • وثبتت دراسة أقدم شعر عبرانى ان هذا التغيير قد بدأ يحدث اثناء القرن الثالث عشر واكتمل فى اواخر القرن الثانى عشر (انشودة دبورة) وفى نفس الوقت اخذت اللغة العبرانية للعهد القديم فى التكوين وقد استكملت عناصر تطورها فى القرن العاشر ، وقد بدأنا نكتب خطوات تطوراتها التالية بمساعدة

(١) التشابه بين اللغة المصرية القديمة واللغات السامية الحامية ضئيل جدا وربما ترجع اللغة المصرية الى اصول أقدم ومن الثابت ان الأقدمين قد هاجروا الى مصر ، فى عصور ما قبل التاريخ من جهات نائية متفرقة وكل من هذه الشعوب قد أتى معه بلغة ساهمت بقدر ما فى تكوين اللغة المصرية الفرعونية •

[المترجم]

(٢) الواقع ان اللغة العربية الفصحى لا تزال تحتفظ بالتونين فى الاسم غير المعروف كلب ، كلب ، وكلبا ، أما الاسم المعروف فقد التونين فيقال الكلب ، الكلب ، الكلب •

(المترجم)

(٣) لم تصلنا لغة عبرانية من عصر آل يعقوب أو عصر موسى نفسه ، اذ لم يكن لها وجود فى ذلك الوقت • (المترجم) •

النقوش ، والعبرانية الكلاسيكية تشترك مع الفينيقية والارامية فى فقدان نهاية الاسم وكذلك فى نقل النبرة الى نهاية الكلمة . وهذه اللهجات الثلاث وكذلك بعض اللهجات الاخرى الاقل اهمية ، مثل الموابية ، طورت ضمير الاشارة « ها » الى اداة بالضبط كما فعلت اللغات الرومانية ، بالضمير اللاتينى القديم « ille » ، واللغة العبرانية والفينيقية ضمتا الاداة لمقدمة الاسم كما فعلت اللسان الرومانية الغربية ، أما الآرامية فقد الحقته بنهاية الكلمة كما تفعل لغة رومانيا . وهذا الانحراف قد ادى بالتالى الى اختلاف اكبر فى النطق ، ففي العبرانية يقال « همليخ » « ملك » بينما فى الآرامية « ملكا » « ملك » ، ثانيا فى حين ان ترتيب الكلمات فى العبرانى يتجه الى اتباع نفس الاسلوب الموجود عند اللسان السامية الغربية الاخرى مثل العربى ، اتبع اللسان الارامى الاسلوب المستعمل فى الاشورى البابلى (التى كان قد وقع تحت تأثير اللغة السومرية السابقة لها ، وتساعد هذه الامثلة على توضيح كيف ان مثل هذا الاختلاف البسيط فى الاساس قد ادى الى انحراف ظاهرى كبير بين العبرانية والارامية المتأخرتين . اصف الى هذه الاختلافات النحوية ما حدث من ازدياد الاختلاف بين مفردات اللغتين العبرانية والارامية . وعندئذ يصبح من الميسور فهم كيف ان لغتين شقيقتين قد اختلفتا عن بعضهما اختلافا بينا فى مدة لا تقل كثيرا عن ألف عام .

وطوال العصور التاريخية اخذت اجناس مختلفة غير سامية تستقر فى فلسطين وحوالى القرن السابع عشر قبل الميلاد ، خلال عصر الهكسوس المضطرب (الفصل الخامس) اكتسحت البلاد حشود من الشمال ومن الشمال الشرقى ، وأسست فئة جديدة من النبلاء غالبيتها من عناصر غير سامية ، وقد حافظت على تقاليدھا القديمة ، وحولت السكان الاصليين الى عبيد ، وبفضل اللوح المسماة التى عثر عليها فى فلسطين (الفصل السادس) لدينا الآن عدد كبير من اسماء الاشخاص التى يرجع تاريخها الى القرنين الخامس عشر والرابع عشر . وثلاثا الاسماء تقريبا غير المصرية الموجودة فيها والتى لاشخاص من مواليد فلسطين سامية ، أما الاسماء الباقية فكلھا تقريبا (وهى ثلث المجموع الكلى) يمكن الآن التعرف عليها دون تردد بأنها هندية - ارية . وهؤلاء الهنود الاريون هم جزء من الهجرات العظيمة التى اتجهت جنوبا

والتي جاءت بالاقوام الهندية - فادية الى الجنوب الشرقى فى البنجاب ، وبطلائع الميتانيين الى الجنوب الغربى فى شمال بلاد الرافدين . وقد عثر على اكثر من مائة اسم شخص منهم على الألواح المسمارية من بلاد الرافدين ، وآسيا الصغرى وسوريا ، وفلسطين ، وكلها تؤرخ فى السنوات بين ١٦٠٠ الى ١٢٥٠ ق.م . وكما يبين ب.ا. دومونت Dumont حوالى ربع هذه الاسماء تقريبا ، مثل انتارودا وهو اسم أمير اكشابا فى ألواح العمارنة ، تطابق نفس الاسماء الواردة فى المخطوطات الهندية القديمة Vedas وغيرها من أدب السانسكرت المبكر او تطابق القاب سانسكرتية أصلية ، وتتكون بقية الاسماء من كلمات سانسكرتية مشهورة ، طبقا لقواعد ثابتة فى تكوين الاسماء .

وتعدنا الاسماء بالادلة على ان بعض الالهة الهندية امثال اندرا (اله العاصفة) ويامين ، وسوريا Surya اله الشمس عبت يوما ما فى فلسطين لفترة قصيرة . وقد اثبتت الادلة التى سبق العثور عليها فى بوغاز كوى عاصمة الحثيين ان هؤلاء الهنود الاريين قد قدسوا أيضا المعبودات السانسكرتية المشهورة وهى مترا (مترا) وفارونا ، والزوج اشون . ويبدو أنه كان اراؤنا Arauna اليبوسى الذى قيل ان داود اشترى منه موقع الهيكل له نفس الاسم مثل اراوانا أو أريوانا ، أمير داماسين فى أوائل القرن الرابع عشر قبل الميلاد .

ولا يظهر من الاسماء الخورية الا بضعة اسماء على الألواح المسمارية من عصر البرونز المتأخر فى فلسطين ، ورغم ما يبدو من أن الكتلة الرئيسية من الهجرة الخورية قد توقفت فى اواسط سورية ، فيمكن ان يعزى عدم وجود اسماء خورية اكثر من ذلك فى فلسطين الى ان ألواح العمارنة نادرا ما تذكر اسما لشخص ما الا اذا كان من رؤساء العشائر . ورؤساء العشائر الخوريون جميعهم تقريبا من الهنود الاريين . ولم يكن الخوريون معروفين البتة لدى العلماء حتى عام ١٨٨٩ حين نشر لوح كبير من العمارنة يحتوى على رسالة كان توشراتا ، ملك ميتانى قد كتبها بالخورية . وفى سنة ١٩١٥ كشف الاسم « خورى » على لوح فى بوغاز كوى ، ومنذ ١٩٢٠ حدث تقدم سريع فى استعادة وثائق خورية

جديدة من أنحاء مختلفة من العالم القديم • وفى سنة ١٩٤١ نشر أ. سبايزر E.A. Speiser نحواً للغة الخورية وضع الموضوع على أسس علمية سليمة • واللغة الخورية هى لسان لسقى معقد agglutinate (أى تكوين كلمة مركبة من بضع كلمات بسيطة رصت الى جانب بعضها) وهى اقرب شبيها الى اللغتين السومرية والتركية منها الى السامية أو الهندية - أوربية ، ولكنها لا تنتمى الى اى منها • ويبدو أن الخوريين كانوا اقواماً جبليّة ذوى رؤوس عريضة ، هاجروا الى سهول شمال بلاد الرافدين فى الثلث الاخير من الالف الثالثة ، ولكنهم لم يفقدوا البتة اصلهم بموطنهم الجبلى • وقد اتضح الان انهم كانوا احدى سبل الاتصال الهامة بين الحضارة السومرية - الاكدية فى بلاد الرافدين وبين الغرب • ولاكثر من الف سنة (٢٣٠٠ - ١٢٠٠) قبل الميلاد قامت تلك الاقوام بدور رئيسى فى جنوب غربى اسيا ، ثم اخذوا فى الاختفاء تدريجياً • وفى التوراة العبرانية يظهر الخوريون فى ادوم ، ولكن فى التوراة اليونانية هم أيضاً الفئة الجنسية الغالبة فى شكيم وجبعون (وقد حرف الاسم الى Hivite فى التوراة العبرانية نظراً لشدة التشابه بين r و w فى الخط العبرى المربع • ونعرف ان علاقة تكافلية قد وجدت بين الخوريين والهنود - الاربيين ، كان الخوريون فيها فى رتبة أدنى على حين كان الهنود - الاربيون هم سادتهم وذلك كلما وجدنا ما يكفى من الوثائق للحكم • ولما كانت الكتابات الحثية لا تميز من الناحية الجنسية بين عنصرى المملكة الخورية ، فيمكننا ان نفترض بأمان بان الاسرائيليين لم يفعلوا ذلك ايضاً • وبعبارة اخرى فان الاصطلاح «خورى» المستعمل فى التوراة اليونانية كان يطلق على كل من النبلاء الخوريين وعلى رؤسائهم الهنود - الاربيين • ومن الجدير بالملاحظة ان عبد - خيبة امير اورشليم فى عصر العمارنة ، كان يحمل اسماً مكوناً من اسم الالهة الخورية الرئيسية خيبة •

وفى اوائل القرن الثانى عشر (الفصل السادس) استقرت اقوام جديدة من جزر وسواحل شمال البحر الابيض المتوسط على ساحل فلسطين ، ونعرف عن الفلسطينيين اكثر مما نعرف عن غيرهم من شعوب البحار ، كما يسميهم المصريون • ولا يعرف شئ أكيد عن لغتهم وحضارتهم الا القليل ، حتى انه من العبث حالياً التكهن عن

احدهما • ولما يعرف أى أثر عن الخط أو اللغة الفلسطينية ، اللهم
الابعض أسماء شخصية كتبت فى المصرية والعبرانية والمسمارية • والدليل
الذى قدمه ج • برارد J. Berard وجورجيف V. Georgiev فى
سنة ١٩٥٠-١٩٥١ على ان الاسم « فلسطين » Philistine هو
نفسه « فلاسجيان » Pelasgian يؤيد دليل الفخار على انهم
جاءوا من البحر الايجى • وفك رموز الكتابة الميسينية (١) الخطوطية
فى عام ١٩٥٣ التى ظهرت على حوالى ٢٥٠٠ لوح وجدت فى
كنفوسوس بكريت وفى بايلوس Pylus وميسينا باليونان يجب أن يمدنا
بدليل قاطع جديد عن المشكلة الفلسطينية • ونظرا للكشف عن اجزاء
الواح مكتوبة بالكارية Carian والقبرصية فلا يستبعد العثور على
الواح فلسطينية فى اسفل طبقات مدنهم •

وعندما نعود الى موضوع الخطوط ، تمدنا فلسطين بمجموعة متنوعة
تذهلنا مثلما تذهلنا ندرة الاشياء المكتوبة عامة • ومن المحتمل حاليا ، فيما
يبدو ، ان ثمة محاولات للكتابة التصويرية فى فلسطين وسورية كانت
قد حدثت قبل نهاية الالف الرابعة ، وهى لا تتأخر كثيرا عن بداية
الكتابة التصويرية فى مصر وبلاد الرافدين • وقد صار هذا محتملا
بعدما كشف دوناند عن حوالى ثلاثين طبعة لاختتام على ايدى الاوانى
الفخارية فى جبانة من اواخر عصر بداية استعمال المعادن فى
بييلوس (جبيل) ، ولا يجب خلط هذه مع نفس العدد من طبقات
الاختتام المستديرة المتأخرة الموجودة على الفخار التى سبق ذكرها فى
الفصل الرابع • وتحتوى بعض الطبقات على حوالى اثنى عشر رمزا أو
اكثر من الكتابة التصويرية مرتبة طبقا لنظام ثابت • وهى تذكر المرء
فى الظاهر بالكتابة التصويرية المايوية Mayan ، والمستقبل وحده هو
الذى يستطيع ان يخبرنا عما اذا كان هذا نوعا من الخط ام لا •

وفى الجزء الاخير من الالف الثالث يظهر لدينا خط جديد (أو خطوط)
يتكون من رموز ذات مقاطع هجائية فى سورية وفلسطين • وفى
بييلوس عثر دوناند على حوالى اثنى عشر نقشا مكتوبة بخط مكون من
مقاطع هجائية • • لم يكن معروفا من قبل وقد أطلق عليه « شبيه
الهيروغليفية » وهى تظهر على أجزاء من ألواح حجرية ، وعلى ألواح

(١) أو الميكنية •

وسكاكين برونزية • الخ • وقد ظهر أحد هذه النقوش على قاعدة تمثال مصرى ، يؤرخ جوالى القرن الثانى عشر قبل الميلاد • ولما كانت معظم هذه الوثائق قد وجدت فى رديم مختلط أو أعيد استعماله فى حيطان متأخرة فان تاريخها ليس مؤكداً ، ويبدو أنها تمتد ، من حوالى القرن الثامن عشر الى حوالى الخامس عشر قبل الميلاد • ولكن الاكتشافات المقبلة قد تدعو الى تعديل هذه التواريخ • ومما لا ريب فيه أن الخط قد تأثر الى حد ما فى شكله بالخط الهيروغليفى المصرى ، بينما توحى رموزه ذات المقاطع الهجائية بأنه قد تأثر بالخط المسمارى ، وقد أمكن حتى الان تمييز حوالى ١١٤ رمزا مختلفا ، ويمكن للمرء أن يقدر بامان العدد الاصلى للرموز بأنها كانت تتراوح بين ١٢٥ و ١٥٠ — وهو رقم مناسب جدا للتكوينات المختلفة وهى بين ثمانية وعشرين الى ٣٠ من الحروف الساكنة الكنعانية المبكرة وثلاث حروف علة (أ ، ي ، و) توضع قبل كل حرف ساكن وبعده : مثال ذلك : با ، بى ، بو ، أب ، يب ، وب « وبما أن بعض هذه التكوينات ، فيما يحتمل ، لم تستعمل على الاطلاق ، فلن نكون مخطئين اذا قدرنا أن عدد الرموز الحقيقى كان أقل كثيرا من المجموع الكلى المحتمل • وقد نشر العالم اللغوى الفرنسى الممتاز ادوارد دورم E. Dhorme ترجمة لهذه النصوص (١٩٤٧) ، ولكن نظرا لان جهوده لم تؤدى الى نتائج قاطعة فمن الافضل أن نمتنع عن اصدار حكما الى حين استكمال دراسة الموضوع •

ومن المحتمل أن وثيقة واحدة مكتوبة بهذا الخط قد عرفت أيضا من فلسطين • والجزء العلوى من لوحة ستيل بالالوعة التى كشف عنها فى مواب (١٩٣٠) يبين عددا من هذه الخصائص ، رغم أن العوامل الجوية قد أثرت عليها لدرجة شديدة تدعو الى الصذر فى موضوع التعرف على الخط • وثمة أسباب قوية تجعلنا نعتبر المنظر المحفور الذى يشغل الان معظم اللوح متأخرا كثيرا عن الكتابة المنقوشة فى أعلى اللوح ، التى حفرت فى أسلوب يختلف اختلافا تاما ، كما تأكلت بفعل عوامل التعرية بدرجة أكبر من المنظر السفلى • كما يجب أن نضم الى البراهين التى أقنعت معظم العلماء ان الذين فحسوا الحجر فيما بعد ، الشكل الغثيق للوح ، الذى لا يوجد ما يماثله من الالف الثانى أو ما بعده ، ولكن يوجد له أشباه قوية فى لوح النصر لفرام سن من حوالى ٢٢٠٠ ق • م • وكذلك فى لوح قديم جدا من قلعة الروم فى شمال

سوريا • وقد أרך برزيفورسكى Przeworski هذا اللوح الاخير
تأريخا صحيحا من الالف الثالث ق • م • حسب مثيلاته في بلاد
الرافدين • وقد أثبتت أعمال التنقيب أن البالوعة نفسها وغيرها من
الاماكن كانت عامرة في القرون الاخيرة من الالف الثالث حتى بداية
الالف الثانى (أنظر الفصلين الرابع والخامس) •

وهناك خطان آخران من المعروف انهما نشأ في فلسطين وسورية:
وهما أبجدية أوغاريت (١) المسمارية (رأس شمرا) والابجدية
الفينيقية الخطوطية (أى المكونة من خطوط مستقيمة) ولم يكن يعرف
شئ عن أبجدية أوغاريت حتى ١٩٢٩ عندما كشف س • ف • أ • شيفر
Shaeffer عن اللوح الاولى وأشياء غيرها كتبت برموز تشبه
المسمار ، فى رأس شمرا والميناء البيضاء على الساحل الشمالى
لسورية • ومنذ ذلك الوقت عثر على مئات من اللوح التى تحمل
كتابات بهذا الخط فى اوغاريت • أما فى فلسطين فقد عثر حتى الان
على نقشين قصيرين بهذه الرموز أحدهما مدون حول حافة لوح طينى
طويل وغير عريض من عصر البرونز المتأخر فى بيت شمس ، حوالى
القرن الرابع عشر ، ق • م • والنقش الثانى على يد سكين من النحاس
بالقرب من جبل تابور يرجع تاريخه الى نفس العصر أو بعده
بوقت قصير • ومما يدعو للدهشة حقا أن كلا المثلين الفلسطينيين قد
كتبنا بنوع من الخط يختلف اختلافا بسيطا فى الشكل عن الخط
الاوغاريتى العادى • • أضف الى ذلك أن أحد ألواح اوغاريت قد كتبت
بالنوع الفلسطينى من الخط ويشبه المثلين الفلسطينيين فى أنه يجرى من
اليمين الى الشمال بدلا من الشمال الى اليمين كما هو الحال فى جميع
النقوش الاوغاريتية العادية • ولهذا لا يوجد أدنى شك فى أن هذا
الخط كان واسع الانتشار فى المكان والزمان • وتنتمى جميع النصوص
المؤرخة فى أوغاريت الى الثلث الاول من القرن الرابع عشر ق • م • ولكن
لا بد أن الخط كان أقدم من ذلك حيث قد سبق تعديله تعديلا طفيفا
ليلائم الكتابة الخورية •

وليس هناك أدنى شك فى أن مخترع هذا الخط كان يعرف شيئا عن

(١) أوغاريت •

الخط المسماري الاكدي نظرا لانه نقل استعمال اللوح والقلم عن بلاد الرافدين ، والكتابة من الشمال الى اليمين طبقا لاسلوب الاكدي الشائع كما كان على علم أيضا بالابجدية المصرية أو بأبجدية سامية ذات الحروف الساكنة المعتمدة على قواعد مصرية ، نظرا لان كل الحروف ساكنة باستثناء ثلاثة حروف ، فبدلا من وضع رمز واحد لما يعرف باسم الهمزة المحققة ذات النغمة الثلاثية (وهى الالف السامية الموجودة فى الانجليزية فى مثل هذه العبارات مثل : «her ['] aunt» فقد اخترع ثلاثة رموز ، رمز لكل من الصوت اللين أ ، ي ، و ، مع الهمزة المحققة . وقد كان يظن أن مخترع الابجدية المسمارية قد قلد رموز الحروف القديمة فى السامية الغربية أو مجموعة منتقاة من الرموز المسمارية ولكن كل ما عمل من مقارنات حتى الآن غير محتمل أصلا . ولكن أفضل الاحتمالات أن المخترع قد انتقى كل ما يمكن من سلسلة الرموز البسيطة للمسامير الافقية والرأسية والمائلة وكون منها مجموعات ، أعطى لها قيما صوتية حسب ما ارتأى . فمثلا ، المسمار الافقى يعبر عن (ت) ، مسماران أفقيان على خط واحد ينطقان (أ) ، ثلاث مسامير على خط واحد تكون (ن) . وبالمثل مسمار رأسى يعبر عن (ج) ، ومسماران رأسيان على خط واحد ينطقان (ز) وثلاثة على خط واحد (خ) ومسماران متوازيان فى وضع أفقى ينطقان (ف) (ب P) وثلاثة تكون ب ، ومسماران فى وضع رأسى ينطقان (ش) (تس) ، وثلاثة تكون « ل » . وهذا يظهر كاختراع بارع ، وليس مجرد نقل أو تقليد .

والخط الفلسطينى الثانى الذى اخترع فى هذا العصر العام هو الابجدية الخطوطية (أى التى تتكون من خطوط مستقيمة) التى انحدرت عنها الخطوط العبرانية والسريانية والعربية ، والامهرية ، وغيرها من الخطوط الشرقية ، الى جانب الاغريقية واللاتينية وجميع الخطوط الاوربية المأخوذة عنها . وتاريخ أقدم النماذج من هذا الخط كان يرفع تدريجيا . ففى ١٨٦٨ دفع الكشف عن حجر ميشع التاريخ الى الوراء حتى منتصف القرن التاسع ، والاكتشافات التالية نقلت تاريخ أقدم النقوش المكتوبة فى صورة قديمة (أرثوذكسية) لنفس الخط ، وواضحة كلها ، الى حوالى ١٠٠٠ ق.م . أو أقدم من ذلك بقليل

تابوت احيرام ، كشف عنه مونتبييه في ١٩٢٣) • ثم في ١٩٠٦ أعلن
 بترى عن اكتشافه لعدة نقوش في سيناء كتبت بخط لم يكن معروفا من
 قبل ، وهو يشبه الى حد ما الهيروغليفية المصرية ، ولكن لا يشتمل الا
 على عدد قليل من الرموز المختلفة • ولهذا لا يمكن الا أن يكون
 أبجديا • وبعد عشر سنوات من ذلك التاريخ أعلن عالم الآثار المصرية
 الان جاردنر أنه قد حل جزئيا رموز هذه النصوص التي كتبت ، حسبما
 يعتقد ، بخط يبدو أنه هو مصدر أبجديتنا • وكان حل الرموز يعتمد على
 مجموعة غاية في البراعة والحسن ، مكونة من أربعة أو خمسة رموز
 كررت كمجموعة عدة مرات في هذه النقوش (عضا الراعى) بيت ،
 عين ، عقافة ، وصليب ، وقرأ كلا منها على أنه رمز عبراني ، اسمه
 يدل على المعنى المرادف له ، أو بمعنى آخر ، قبل الاقتراح الذي سبق
 أن عرض منذ سنوات طويلة وهو أن الحروف العبرية قد تطورت من
 صور بسيطة لاشياء يمثل حرف الساكن الاول في كل منها القيمة
 الصوتية لنفس صورته ، ويطلق على هذه الطريقة اسم القاعدة
 الاكروفنية acrophonic وهي شائعة في الكتب الابتدائية للاطفال
 (ق) : قط ، و (ك) كلب • الخ) وهذه المجموعة المكونة من خمسة رموز
 قرئت طبقا لهذه القاعدة ، « لبعلة » • وهذه القراءة تبدو مناسبة
 لسببين فمن المعروف أن الساميين المستوطنين كانوا يعبدون آلهة
 يسميها المصريون حتحور وهو اسم كانوا يطلقونه أيضا على بعلة
 جبيل • وكان الاكتشاف الباهر لسير الان جاردنر هو الاساس الذي
 سارت على هداه كل الجهود المتأخرة الناجحة لحل هذه الرموز •
 والمجموع الكلى لنقوش سيناء الاصلية ، وأغلبها قصير جدا ،
 قد ارتفع الان الى حوالي ٢٥ بمعرفة البعثات التالية الى سراية
 الخادم في سيناء (منها ثلاثة نشرتها جامعة هارفارد) • ونظرا
 للخطاء التي ارتكبت في تاريخ وتفسير الهدف من هذه النقوش لذا لم
 يحدث الا تقدم طفيف حتى عام ١٩٤٨ عندما اكتشفت بعثة جامعة
 كاليفورنيا بعض المفاتيح التي تساعد على الحلول الناجحة • فقد ثبت
 أن تاريخ النقوش يرجع الى ١٥٠٠ ق • م • وأنها كتبت بلهجة
 كنعانية سليمة • وبهذه المناسبة فان نتائج سير الان جاردنر كانت في
 حد ذاتها صحيحة لدرجة مذهلة •

ومنذ سنة ١٩٣٠ كشف على الاقل عن ثلاثة نقوش قصيرة (كل منها
 يتكون من بضع حروف) من عصر البرونز الوسيط في فلسطين • ومن

محاسن الصدف أن تاريخها لكل من الثلاث نقوش (جازر ، وشكيم ، ولخيش) من المؤكد أنه يقع بين سنة ١٨٠٠ ، ١٥٠٠ قبل الميلاد ، وتكون جميعا ١٤ حرفا منها نص واحد فقط بالتأكيد كامل ، ولذلك لا يمكن أن يتم حل رموزها الا بعد العثور على مادة أخرى • ومن التسع أو عشر رموز ، ثلاثة منها يد ، رأس ، وبيت ، بالتأكيد نفس رموز أبجدية سيناء الأصلية • كما يتشابه عدد آخر من الحروف تشابهها قويا • بالإضافة الى ذلك يتفق الخطان في كتابتهما الرئيسية ، كقاعدة • ورموز بعض الحروف في أقدم الكتابات من فلسطين من الواضح أنها أقدم من رموز نقوش سيناء التي بدورها أقدم كثيرا من نقوش القرن الثالث عشر في فلسطين •

وعندما نصل الى القرنين الثالث عشر والثاني عشر ، يتحسن مركزنا كثيرا • فقد أمدتنا لخيش على الأقل بنصين مكتوبين بحروف أبجدية يمكن قراءتهما جزئيا ، على وثائق من نفس العصر تقريبا في بيت شمس وغيرها من المدن • كما عثر في جبيل على جذاذة واحدة من الحجر حلها جريم Grimme بمهارة • وخط هذه النقوش يقف بالضبط حيث يجب أن ننتظره اذا كان حقا حلقة وسطى بين أبجدية سيناء الأصلية والأبجدية الفينيقية المتأخرة • وطوال عشرين عاما أرخ علماء عديدون بعض نقوش جبيل المبكرة ، من مجموعة احيرام حوالى القرن الثالث عشر ، بسبب العثور على جذاذتين عليهما جزء من اسم رمسيس الثانى وألقابه (حوالى ١٣٠١ — ١٢٣٤ ق • م) في الرديم الذى كان يملا مقبرة احيرام ومدخل بئرها • وعلى العموم كان ذلك أعلى تاريخ نهائى terminus a quo يمكن وضعه للمقبرة ، ولكن تاريخها الحقيقى يمكن أن يكون أقل من ذلك كثيرا • ولكن اكتشاف نقوش عديدة أخرى بنفس الخط ، محفورة على تماثيل الفراعنة البوبستيين شيشنق وأوسركون الاول (أواخر القرن العاشر) أدى بعدد متزايد من العلماء الى تأريخ كل الوثائق المكتوبة بهذا النوع الخاص من الخط الفينيقى بين ١٠٥٠ و ٩٠٠ ق • م • (شكل ٢٨ — ٢٩) • وقد اكتشفت دوناند Dumand حديثا أن جذاذات رديم مقبرة احيرام لا يمكن أن تسبق بداية القرن العاشر ، وبذلك اضطررنا أن نخفض تاريخ المقبرة الى حوالى ١٠٠٠ ق • م • ، أو حتى بعد ذلك بقليل • وبذلك أصبح لدينا فجوة بين نقوش لخيش والنقوش الأخرى

^{١٢} ك	ك	ك	ك	ك	ك	^{١٣} ل	ل	ل	ل	ل	ل
^{١٤} س	س	س	س	س	س	^{١٥} س	س	س	س	س	س
^{١٦} ا	ا	ا	ا		ا	^{١٧} ا		(ا)	ا	ا	ا
^{١٨} د	د	(د)	د	د	د	^{١٩} د	د				د
^{٢٠} و			و	و	و	^{٢١} و	و	و	و	و	و
^{٢٢} ي	ي	ي	(ي)	ي	ي	^{٢٣} ي	ي	(ي)	ي		ي
^{٢٤} ز	ز		ز	ز	ز	^{٢٥} ز	ز	ز		ز	ز
^{٢٦} ح	ح				ح	^{٢٧} ح	ح		ح	ح	ح
^{٢٨} ط				ط	ط	^{٢٩} ط	ط	ط	ط	ط	ط
^{٣٠} ث				ث	ث	^{٣١} ث	ث	ث	ث	ث	ث
^{٣٢} ج	ج		ج	ج	ج	^{٣٣} ج	ج	(ج)	ج	ج	ج
^{٣٤} خ		خ		خ	خ	^{٣٥} خ	خ	(خ)	خ	خ	خ

شكل ٢٨ — قائمة بالخطوط الفينيقية والعبرية

SINAITIC SCRIPT	DESCRIPTION OF SIGN	CANAANITE SCRIPT OF 12th CENT. B.C.	CANAANITE SCRIPT OF c. 1000 B.C.	SOUTH ARAB SCRIPT OF IRON AGE	MODERN HEBREW SCRIPT	PHONETIC VALUE
	OX-HEAD					ʾ
	HOUSE					b
	FISH					g
	MAN PRAYING					d
						h
						w
						z
						d
	TEUCEI					b
	DOUBLE LOOP					b
						t
						y
	PALM OF HAND					k
	"OX-GOAT"					l
	WATER					m
	SERPENT					n
						s
	EYE					c
						g
	THROW STICK					p
						s
	BLOSSOM					dz
						q
	HUMAN HEAD					r
	BOW					ts
						z
	MARK OF CROSS					t

شكل ٢٩ — قائمة بخط سيناء والخطوط الكنعانية والعربية الجنوبية

التي تسبق ١٢٢٠ ق م • وبين نقوش جبيل من القرن العاشر ، وقد ملئت هذه الفجوة جزئيا بثلاث رؤوس سهام من القرن الثاني عشر من الخضر بالقرب من بيت لحم ، نشرها في ١٩٥٤ ت • مليك وف • م كروس وكذلك نشرات مختلفة •

وفي الاعوام الماضية أدى اكتشاف عدد من النقوش الجديدة في فلسطين وسورية ، بالاضافة الى تصحيح بعض التواريخ الخاطئة

القديمة الى تثبيت الثبت التاريخى للخطوط بدرجة كبيرة . فكما أن خبراء الخطوط يمكنهم تأريخ وثيقة انجليزية فى حدود أجيال قليلة حسب مميزات الخط ، فان علماء الخطوط القديمة وأوراق البردى يمكنهم تأريخ نصوص العصور الوسطى أو أوراق البردى اليونانى داخل حدود ضيقة بواسطة التحليل الدقيق لاشكال الحروف والخواص الهجائية ، الخ . وكذلك فعلماء الخطوط الذين تخصصوا فى الخطوط العبرانية والفينيقية يتعلمون تأريخ مادتهم بواسطة استعمال وسائل مماثلة . بالطبع ، لابد أن يعمل الخبير حسابا للاختلافات المحلية وأنواع الخطوط المختلفة - المحفورة على الحجر أو المكتوبة بريشة بالحبر ، ولكن الاسس تبقى واحدة .

ومن أهم القضايا التى اقتربت كثيرا من الحل بسبب التحسن المستمر فى الثبت التاريخى للكتابة ، بعد أن ظلت موضع جدال فترة طويلة هو التاريخ الذى استعار فيه الاغريق أبجديتهم عن الفينيقية . وهذا الادعاء بأنهم قد استعاروا فعلا أبجديتهم عن الفينيقية كان مثار نزاع ، وان كان الان قد أصبح مؤكدا . فالامر لا يقتصر فقط على أن الحروف الاغريقية ليس لها أى تاريخ سابق ، بل الحروف الفينيقية التى أخذت عنها الحروف الاغريقية ، لها تاريخ قديم طويل يسبق بقرون عديدة أقدم تاريخ محتمل لهذه الاستعارة . وقد دفع اكتشاف تابوت احيرام العالم الفرنسى الممتاز ، رينى دوسود Ri Dussaud الذى كان من أشد المتحمسين للنظرية الايجية فى كونها أصل الابجدية الفينيقية الى أن يغير موقفه تماما . أضف الى ذلك ، أن اسماء الحروف الاغريقية ، التى ليس لها معنى باللغة الاغريقية نفسها مأخوذة كلها تقريبا عن اسماء سامية ذات معنى ، بل أهم من ذلك أن الحروف تتبع نفس الترتيب . ومما يثبت أيضا قدم اسماء الحروف هذه أن كثيرا من الحروف الاثيوبية تحمل نفس الاسماء ، وان كل الترتيب يختلف ، ولابد أن الابجديات الاصل قد اختلفت بعضها عن بعض قبل القرن الثالث عشر قبل الميلاد على أكثر تقدير .

وأهم زعماء الجدل حول التاريخ الذى نقل فيه الاغريق الابجدية هما : برتهولد أولمان B. Ullman ورييس كاربنتر R. Carpenter فقد قام الاول بمقارنة حروف مفردة باحثا عن أمثلة لها حيثما يجد ، وقد أرخ استعارة الاغريق للابجدية الفينيقية فى وقت ما حوالى

القرن الثانى عشر ق • م • أو حتى قبل ذلك • أما الثانى فقد صمم على مقارنة الابجديات كاملة (أى أن يأخذ أشكال الحروف التى فى النقش بأكمله وبذلك يضمن تاريخا واحدا لكل حرف فيها عن أن يفحص حروفا مبعثرة • وقد قرر تاريخا قبيل نهاية القرن الثامن قبل الميلاد باعتباره أفضل الاحتمالات • وتاريخ أولمان قد صار فى الواقع مستحيلا لان الاشكال العتيقة لبعض الحروف مثل « م » و « ك » التى لا يمكن أن تكون الاصل الاول للأشكال الاغريقية ، قد بقيت فى جميع النقوش التى كشفت حتى الان فى الابجدية السامية حتى القرن التاسع قبل الميلاد ، وخلال هذا القرن حلت محلها أشكال متأخرة فى فلسطين وأيضاً فى سورية وفينيقية • وبناء على ذلك فالابجدية الاغريقية لا يمكن أن تكون قد أدخلت قبل القرن التاسع • وهذه النتيجة تتفق مع الدليل السلبى من المصادر الاغريقية ، اذ لم يعثر على أى نقش اغريقى يسبق القرن الثامن قبل الميلاد ، بالرغم من كل حفائر القرن الماضى • أما ريس كاربنتر فيفرض حجته بتخفيض ، حسبما يرى ، تاريخ أولى النقوش الاغريقية الى القرن السابع ، ويصر كاربنتر أن آخر أشكال الفخار الذى على شكل الصرح المزدوج وآخر أشكال الفخار الهندسى يجب أن تؤرخ من هذا القرن ، بالاضافة الى أنه يصمم أن الاغريق قد نقلوا خطهم عن أصل فينيقى مكتوب على الحجر ، وليس عن كتابة بالحبر ، أى من كتابة يدوية جاسئة (بالحروف المفردة) من النوع الشائع استعماله عند التجار لتدوين مبادلاتهم التجارية على شقفة أو كسرة حجر • وكما هو معروف فان النقش على الحجر اكثر تقيدا وأشد تحفظا على التقاليد القديمة من كتابة الحبر المختصرة وان كان غير سلسلة للاستعمال اليومى • وفى رأى المؤلف الذى ظل يتمسك به منذ أمد بعيد ، والذى يعتمد على مقارنة الابجديات التى وجدت فى نقوش واحدة وليست مبعثرة فى صور شتى ، فان الابجدية الاغريقية قد نقلت عن الفينيقيين أما فى أواخر القرن التاسع ق • م • بل ربما الافضل أوائل القرن الثامن قبل الميلاد •

عندما تنتقل من أساليب الكتابة الى محتويات السجلات المكتوبة ندخل فى دائرة فقه اللغة ، ودراسة الوثائق المكتوبة والمؤلفات الادبية • وهذا الحقل من البحث قد تطور الى درجة كبيرة من الكمال بفضل علماء اليونانية واللاتينية فى القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلاديا ، وقد استنهج علماء السامية سبيلهم بدقة عند دراستهم للغات السامية

المعروفة كالعربية ، والارامية ، والعبرية والاثيوبية . ومنذ قرن مضى ، عندما كان علم الآثار فى الشرق الاوسط والادنى لا يزال فى مهده كان يوجد بالفعل معاجم وكتب نحو جيدة لتلك اللغات . وقد حدث تقدم كبير نحو الهدف لوضع دراسة الاداب السامية على نفس المستوى من الدقة والمنهاج القويم الذى بلغه علم فقه اللغات الكلاسيكية (اذا قبلنا تلك الاوهام مثل التصحيحات الخاطئة لل فقرات الغامضة) وكما أن لغات النقوش التى كشفت حديثا ، والتى اندثر عدد كبير منها نهائيا ، قد فكت رموزها ، بدأ علماء فقه اللغة — وغالبيتهم من الالمان — يستعملون تلك المناهج التى وصل بها علماء الدراسات الكلاسيكية الى درجة الكمال لاستنتاج قواعد ومعاجم للالسن الجديدة : المصرى والاكادى ، والسومرى ، والحثى ، والفينيقي والعربى الجنبوى ، والعيلامى ، والخورى . واليوم قد أمكن العلماء الاكفاء من فهم اللغات التى توفرت لها أكثر الوثائق مثل المصرية ، والاكادية ، والسومرية ، وتتبع تفسيراتهم مناهج تشبه تلك التى اتبعها علماء اللغتين الاغريقية واللاتينية ، ولا تختلف الحثية كثيرا ، أما الخورية فيرجع سبب تخلفها لعدم وجود نصوص كافية ، والفينيقية والاوغاريتية فتكادان تكونان مفهومين فهما تماما كعبرية التوراة القديمة .

ومعظم النقوش تدور حول مبادلات تجارية أو وثائق رسمية ذات طبيعة دينية أو سياسية . ولدينا أدب دينى مصرى وسومرى ، أكادى ورسائل أدبية ، وقد بقى ما يكفى لاثبات أنه كان يوجد يوما ما لكل من الحثية والخورية أدب كثير ، مدون بأدق معنى الكلمة . وقد ظل الامل مفقودا مدة طويلة فى العثور على أى شئ من الادب الكنعانى الذى ضاع منذ أمد بعيد والذى كان يوما ما مزدهرا فى فلسطين وفينيقية ثم حدثت المفاجأة المدهشة — وان كانت سارة — عندما اكتشف س. ف. أ. شيفر ألواحا من الصلصال فى أوغاريت تحتوى على مقتطفات لا حصر لها من الادب الاسطورى والدينى الكنعانى منذ بداية القرن الرابع عشر قبل الميلاد وقد قام شارلز فيرولود C. Virolleaud بنشر أجزاء من أربعة ملاحم على الأقل التى عكف على دراستها عشرات من علماء السامية شيوخا وشبانا ، وثلاثة من هذه الملاحم التى تدور حول أفعال اله العاصفة بعل وأخته عنات ، وحول مآثر ومآسى الملك كرت وحول موت بن دنيال أكحات (أقهات) وبعثه ، لابد أنها كانت طويلة جدا ، ولدينا عدد من اللواح عن كل منها . ولقد ظل

بعض العلماء يعتقدون لسنوات عديدة أن هذه الملاحم قد نشأت فى جنوب فلسطين غير أنه قد صرف النظر عن هذا رأى الآن • ويدل ما بها من اشارات على أنها نشأت فى فينيقية الاصلية ، فى منطقة صور ، وصيدا ، وجبيل بالاضافة الى لبنان وسيريون (لبنان الشرقى فى الخلف) • ومعبودات هذه الملاحم هى الالهة الكنعانية فى فلسطين وفينيقية ، والنقوش الفينيقية المتأخرة ، رغم كونها رسمية ، تحتوى على آثار أدبية عديدة من الادب الاوغاريتى • أضف الى ذلك ، اننا نعرف الان أن الشعر فى التوراة العبرية ، وخاصة الجزء الاقدم منه ، مكتظ بالاشارات الى الشعر الكنعانى الذى تدل عليه الملاحم الاوغاريتية فهى مجرد نماذج له • وكما سنرى فى الفصل العاشر ، فان اكتشاف الادب الاوغاريتى قد أجبر العلماء على تغيير بعض نظرياتهم بالنسبة لتاريخ أدب التوراة العبرية تغييرا شاملا • وفى نفس الوقت ، فهو يوضح كثيرا من معانى الكلمات والفقرات الغامضة فى شعر العهد القديم • وحتى الآن ، لم يعثر على أية ألواح أدبية كنعانية فى فلسطين ، وان كان لدينا نقشان صغيران بالخط المسمارى الابجدى الخاص بالملاحم ، وفى أى لحظة — على كل حال قد يتبدد هذا السكون فجأة مثلما حدث فى أوغاريت • ولما كانت فلسطين عادة جزءا فقيرا من كنعان ومتخلفا فى حضارته عنها ، فليس لدينا أى ضمان ان مثل هذا الكشف سيتحقق • كما أنه من المحتمل أن النصوص الادبية لم يتم نسخها على لوحات مسمارية الا فى أوغاريت فقط فى أوائل القرن الرابع عشر ق • م • ولما كان هذا يبدو مستبعدا فلازلنا نأمل فى العثور على أشياء جديدة من نفس النوع •

ونظرا لصغر حجم الكتاب فسنقتصر فى حديثنا على مثل واحد من نوع الضوء الذى ألقاه علم الآثار على الآداب القديمة وان كل من الامر سيحتاج الى بعض الشرح التفصيلى • ففي ١٨٩٧ كان اكتشاف جرنفل Grenfell وهونت Hunt فى البهنسا فى الفيوم لكمية من أوراق البردى اليونانية ، ومنها عدد من النصوص الادبية ، مما ركز اهتمام العلماء على موضوع لغة العهد الجديد • وخلال النصف قرن الماضية كان علماء البردى يعملون بجد ونشاط كبيرين ، وثبت أن عددا كبيرا من الكلمات والاستعمالات النحوية التى كانت غامضة حتى ذلك الحين فى العهد الجديد ، كانت عامية (كوينى Koine) جيدة جدا ، وكوينى هى اللغة اليونانية التى استعملها الرجل العامى فى جميع أنحاء

العالم القديم حيث كانت الاغريقية لغة الكلام آنذاك ، وفى البداية دفع الحماس علماء من أمثال أودلف ديسمان Deissmann الذى صار زعيما لهذا الفرع الجديد من البحث ، الى قمة النصر ، وقد أصبح من المعتقدات الشائعة أن يونانية العهد الجديد هى اللغة الدارجة العادية للقرن الاول الميلادى وان الاختلافات القوية بينها وبين اللغة اليونانية التى استعملها مؤلفون من أمثال ديودور وبلوتارخ، أو فيلو ويوسيفوس، كان سببها ببساطة أن كتاب العهد الجديد كانوا أميين • ولكن هذا غير صحيح البتة فقد بقى اختلاف كبير قائم بين يونانية العهد الجديد ولغة الخطابات والوثائق التجارية للاغريق الاميين المقيمين بمصر • وقد كتب حديثا آرثر دربى نوك Arthur Darby Nock أحد الثقات الممتازين الذين ما زالوا عائشين : « أى شخص يعرف مؤلفيه الاغريق الكلاسيك ويقرأ العهد الجديد ثم ينظر فى البرديات يندهش من المشابهات التى يجدها • وأى شخص يعرف أولا البرديات ثم يعود الى (بول) يندهش من المفارقات فهناك مغالاة كثيرة عن عنصر العامية (كوينى) فى العهد الجديد » •

ونظرا لهذه الحال ، فليس من المستغرب اذن أن العلماء بدأوا يتراجعون • فطالما بقيت اللغة اليونانية للعهد الجديد دون مثال لها بسبب عدم وجود أى كتابات من عصر عيسى عليه الصلاة والسلام خلا بعض مؤلفات أدبية فلسفية مثل فيلو وبلوتارخ ، فمن الصعب الوصول الى أى نتائج غير متحيزة وقد أصبح واضحا الآن أنه لا بد فعلا من وجود تأثير عبرى وآرامى على لغة العهد الجديد اليونانية حتى يمكن تفسير التأثير السلمى الواضح فى العهد الجديد الذى يكون عنصرا مميزا عن العامية (كوينى) وعلى العموم فان كتاب العهد الجديد (ويكاد يكون من المؤكد أن لوقا كان منهم أيضا) كانوا يهودا ، وكانت الارامية لغتهم الاصلية • وكان يفترض عادة ان الافتقار الى الفصاحة الاغريقية الموروثة والتعليم الهيلينى هى التى جالت بين كتاب العهد الجديد وبين كتابة لغة يونانية جيدة • أما الآن فقد أخذ اقتراح آخر يزداد انتشارا وهو أن هذه اللغة اليونانية الغربية التى ليست بالادبية وليست بالعامية (كوينى) ما هى فى الواقع الا لغة آرامية مترجمة ، ويدعى علماء من أمثال س • ن • برنى C. Burney وس • س • تورى C. C. Torrey مقتفين اشارات عابرة لمن سبقهم من الدارسين ، ان الجزء الاكبر من الاصحاحات وأعمال الرسل قد ترجم عن مصادر

آرامية مدونة • وبعبارة أخرى هم يعتقدون أن التأثير العالمى لا يرجع الى نقص فى التعليم عند الكتاب الأقدمين بل كان نتيجة لتمسكهم الشديد بالاصل الارامى الذى كانوا يترجمونه • ومن ١٩١٢ الى ١٩٤١ نشر تورى سلسلة مقنعة من الكتب والابحاث ، التى حاول فيها تدعيم حجته باثبات وجود أخطاء فى ترجمة النصوص الاصلية الارامية المدونة • وفى ترجمته للاناجيل الاربعة من العهد الجديد The Four Gospels, 1933, A New Translation ترجم تورى جزءا من العهد الجديد مبدلا ما اعتبره ترجمة خاطئة للاصول المزعومة بترجمته الشخصية للارامية كما يراها هو • وليس هناك داع للقول ، بأن الكتاب قد أثار ضجة ، لان تورى عالم ثقة من الدرجة الاولى فى الارامية وفقه ممتاز فى اللغة وليس مجرد دعى من أمثال هؤلاء العلماء العديدين الذين يثيرون الضجيج يوميا فى الجرائد •

والمنهاج الاساسى كان سليما • وقد بدأ تورى بتحليل نماذج من اليونانية المترجمة التى اعترف بها جميع العلماء ، مثل الترجمة السبعينية Septuagint (وهى الترجمة اليونانية للعهد القديم ، التى تمت فى القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد) • وبعض من كتب أبو كريفنا (١) Apocrypha (وبسودابجرافا) وما يشبه Pseudepigrapha • وبمقارنة تلك الامثلة من اليونانية المترجمة مع اليونانية الادبية العامة (كوينى) لم يجد صعوبة فى تبين أن أجزاء من العهد الجديد تظهر نفس خصائص السامية ، التى يمكن ملاحظتها فى النحو وترتيب الكلمات ، واستعمال الكلمات ، الخ • أضف الى ذلك أن هذه الكتب المترجمة تظهر حالات عديدة من الترجمة الخاطئة ، حيث أساء الكاتب فهم الاصل العبرانى أو الآرامى ، بسبب قراءة الكلمة قراءة خاطئة ، أو اختيار معنى خاطئ • عندما توجد معان مختلفة ومحتملة • ولكن كلنا على علم بمثل تلك المسائل • وعلى ما أذكر فقد رأيت فى ترجمتين انجليزيتين مستقلتين لكتاب الالمانى هذه العبارة العربية أن الحلاق المصرى القديم يقضى جزءا كبيرا من وقته منتقلا لاستقصاء الاخبار • واعطاء وظيفة الصحفى الحديث الى الحلاق القديم

(١) أبو كريفنا : قصص كتبه جماعة من المؤرخين المعاصرين للعصور المسيحية الاولى والبعض اعتبره من الاناجيل ولكنها لا تدخل ضمن الاناجيل المقدسة التى كتبها الرسل • المترجم •

كان سببها أساسيا هو الخلط بين الكلمة الالمانية Kunden بمعنى « زبائن » وبين نفس الكلمة بمعنى « أخبار » ، وكل التراجم الحديثة تقريبا تعطينا أمثلة فكاهية من هذا النوع من الأخطاء . والقارىء المدقق الذى يجيد معرفة اللغتين لا يجد صعوبة فى تصيد مثل تلك الأخطاء .

ولكن لا تزال هناك صعوبة واحدة باقية وهى أننا لا نعلم تمام العلم مدى امكانيات اليونانية والهيلنستية المتأخرة المستعملة فى المقاطعات . اذ لا يوجد أية مؤلفات أدبية كتبت بالآغريقية المعاصرة عدا أسلوب الاسكندرية الخطابى المنمق وأسلوب الفصحى الخاص بأثينا ومقلدية ، كما يبدو أن استعمال العامية كان قاصرا على الحديث والكتابة اليومية عند أنصاف المتعلمين . ولكن المشكلة الأشد تعقيدا هى عدم وجود أدب آرامى معاصر . وأرامية التوراة ، وأرامية أوراق بردى الفنتين (التى كشف أغلبها بين ١٩٠٣-١٩٠٧ فى جنوب مصر) ، ولغة النقوش النبطية والتدمرية (من القرن الميلادى الاول حتى القرن الثالث الميلادى) تعكس جميعا درجات عديدة متفاوتة من اللغة الارامية الادبية الفصحى السائدة فى الامبراطورية الفارسية ، كما أوضح ذلك أ . ساشو Sachau وشيدر H. H. Schaefer وغيرهم . والارامية اليهودية كما هى موجودة فى التلمود الفلسطينى وفى أقدم تراجم للتوراة (Targums) ، تعكس لغة الكلام فى القرن الثالث الميلادى وما بعده . واذا كان هناك ثمة شك فى تاريخ الارامية اليهودية التى وجدت فى فلسطين ، فقد انتشع هذا بعد اكتشاف نقوش المجمع العديدة بين القرن الرابع حتى القرن السادس الميلادى وقد دونت كلها بهذه اللغة . ولهجة السامرة الارامية ، على الرغم من سوء حفظها فى نسخ العصور الوسطى والحديثة ، ترجع على الاقل الى عصر مركة فى القرن الرابع الميلادى . وأرامية التلمود البابلى كانت فى بيتها فى بابل خلال نفس القرن ، والمندعية هى فى الواقع نفس اللهجة فى صورة أخرى متأخرة ، والسريانية كانت لغة شمال بلاد الرافدين ، وخاصة ايدسا (الرها) فى القرنين الثانى والثالث الميلادى وما بعد ذلك . وأخيرا توجد الارامية المسيحية الفلسطينية ، ومعلوماتنا عنها تعتمد بصفة خاصة على المخطوطات التى كشفت عنها سيدتان انجليزيتان هما أجنس سميث لويس Agnes S. Lewis ومارجريت دنلوب جيسون Margaret D. Gibson فى سيناء ، ويبدو أنها كانت

مستعملة في الكلام في فلسطين في القرون : من السادس حتى التاسع
أو العاشر ميلاديا .

و ضد آراء تورى تتقف عقبتان يصعب تذليلهما : أولا ، فما من لهجة
أرامية من التي لخصناها آنفا كانت لغة الكلام في عصر السيد المسيح .
ثانيا : لا توجد أية مؤلفات أدبية أرامية من الفترة الممتدة من القرن
الثالث أو الثاني قبل الميلاد حتى القرن الثاني أو الثالث بعد الميلاد ،
وهي فترة تزيد على الثلاثمائة عام . وليس ثمة شك في أنه كان يوجد
اختفاء حقيقي للأرامية خلال عصر الامبراطورية السلوقية (٣١٢
ق . م الى أوائل القرن الاول الميلادي) ، اذ ينذر اكتشاف نقش
أرامي واحد من هذا العصر الا في شرق الاردن وفي الاجزاء المجاورة
من جزيرة العرب ، التي كانت خالية نسبيا من مؤثرات الحضارة
الاغريقية عن غرب فلسطين وسوريا الاصلية . وبعد هذا الانقطاع في
سلسلة الخطوط ، بدأت تظهر النقوش التدمرية في النصف الثاني من
القرن الاول ق . م . وقد أظهرت التنقيبات الحديثة نقشا يؤرخ من
السنة ٤٤ ق . م . وظهرت النقوش المدونة بالارامية اليهودية لأول
مرة حوالي منتصف القرن الاول قبل الميلاد ثم ازدادت — خلال عصر
هروودس العظيم ، قبل العصر المسيحي مباشرة (أنظر أعلاه) .
وهن ثم فهي تساعد على توضيح الارامية الفعلية لفلسطين في
عصر عيسى والحواريين . واذا كانت مجلة تعني أو ملفات الصوم
وهي قائمة بأيام الصيام اليهودية الرسمية مع ملاحظات تاريخية ،
تسبق فعلا السنة ٧٠ ميلادية ، كما يعتقد بعض العلماء ، فهي تنتمي
الى عصرنا ، ولكن من الافضل تأريخها في القرن الثاني الميلادي ، بما
يتفق مع محتوياتها الزمنية الحالية .

ويدهش المرء لقلة الادلة التي تشير الى وجود أساس أرامي وثني
للادب السرياني المسيحي ، الذي بدأ في أواخر القرن الثاني الميلادي
على يد يعقوب البردعي (أو البردعاني) . وبالطبع كانت توجد وثائق
سريانية وثنية ، ومن ذلك وثيقة من ٢٤٣ ميلادية عثر عليها حديثا في
دورا . والنقوش السريانية الرسمية يمكن تتبعها حتى العهد
المسيحي . ولكن المؤلف الادبي الوحيد الذي نقله المسيحيون بالتأكيد عن
مصادر وثنية هو أمثال أحيقار ، وأحيقار السرياني يمكن مقارنته الان
بدقة كبيرة مع جذاذات أرامية كثيرة من القرن الخامس الميلادي عثر
عليها في الفنتين في مصر العليا . وهاتان النسختان القديمتان تختلفان

اختلافا بينا كل عن الاخرى حتى أنه لا يمكننا فقط الا التحدث عن أصل متواتر عام ، وليس عن نقل سرياني لاحتقار الارامى من صحف مدونة • ويبدو من ذلك ، أن الادلة قد ازدادت فى الواقع ، ضد استمرار الادب الارامى المدون خلال العصور الهيلنستية ، عما كانت عليه قبل الاكتشافات الاثرية الحديثة ، وليس من المستبعد اذن ، أن الملوك السلوقيين ، فى تحمسهم للهيلنستية ، قد أمروا بحرق جميع الكتب الارامية • وملفات البحر الاسود ، التى كشف عنها منذ سنة ١٩٤٧ ، تكاد تكون جميعها مدونة بالعبرية ، والوثائق الارامية القليلة ، من أمثال كتاب لامك قد كتبت بخط متأخر ، ومن المحتمل أن تاريخها يرجع الى ما بعد العهد المسيحى • ومن الجدير جدا بالملاحظة أن الغالبية العظمى من الجذاذات التى ليست من التوراة والتى وجدت حتى الآن ، مكتوبة بالعبرية •

والدليل الاثرى كما يرى المؤلف ، لا يؤيد رأى القائل بأن الاناجيل قد كتبت بالارامية • بالاضافة الى هذا ، أنه عندما كشف عن نص طويل نسبيا مثل الاشارة الخطية الى عظام عزيزا المزعومة ، نجد أن اللغة تحتوى على عناصر غير متوقعة مثل الصورة السامرية لكلمة عظام بدلا من الصورة الارامية القديمة أو الجديدة العادية ، ونظرا لان الصورة القديمة للفعل « أحضر » (أو احضروا) لم يعرف لها سابقة الا من كتاب دنيال • ومن ثم يزداد خطر ارتكاب الاخطاء ، فى محاولة اعطاء « اعادة تكوين اللغة الارامية الاصلية » التى استعملها عيسى عليه الصلاة والسلام ، أكثر من أى وقت • كما تعزز أدلة أخرى الاحتمال بأن العنصر الارامى فى الاناجيل قد جاء نتيجة لترجمة وثائق كانت قد رويت شفويا ، أى تسجيلات أرامية متواترة لكلمات عيسى وأعماله ، وعندما نتذكر مدى ما وصلت اليه الرواية الشفوية لكلمات الربانة من تأكيد فى المدارس اليهودية المعاصرة والمتأخرة فهذه الرواية الشفوية تبدو معقولة ، وقد سبق أن أوضحنا أن ما ألقاه علم الاثار الحديثة من ضوء على الرواية الشفوية لامثال احيقار يقوى قضيتنا • ومن ثم يستطيع المسيحيون الاستمرار فى قراءة الاناجيل اليونانية دون خشية أخطاء خطيرة وقعت فى الترجمة (على الرغم من وجود الكثير من التغييرات الطفيفة فى المعنى أثناء الترجمة من الارامية الى الاغريقية) كما لا يخفى •

الفصل التاسع

الحياة اليومية في فلسطين القديمة

كما كان حجم الكتاب لا يسمح البتة في الدخول في تفاصيل ، لذا سنكتفى بمقارنة الاحوال البسيطة للبيئة في ثلاثة عصور مختلفة : عصر آل يعقوب (١) الذي سنحدده تحديدا جبريا الى حد ما حوالى ١٧٥٠ قبل الميلاد في عصر البرونز الوسيط الثانى (، وعصر ايليا) أو عصر الحديد الثانى ، حوالى ٨٥٠ قبل الميلاد وعصر العهد الجديد (وهو القرن الاخير للهيكل الثانى ، من حكم هيرودس العظيم حتى سقوط بيت المقدس في ٧٠ ميلادية) .

عصر آل يعقوب

عصر البرونز الوسيط الثانى

الافضل أن نؤرخ عصر الإبلاء الذى ينتمى اليه آل يعقوب حوالى القرن الثامن عشر أو السابع عشر قبل الميلاد والمسهولة سنؤرخه حوالى ١٧٥٠ قبل الميلاد . وهذه كانت فترة استقرار فيها سريعا الساميون الغربيون البدو (أى العرب) . انظر الفصل الخامس والتي أخذت أثناءها فلسطين في النماء بخطى واسعة بأهلها وثرواتها . وبلغت العلاقات التجارية مستوى عاليا لم يعرف في القرون السابقة وألف الناس السفر بحرية من قطر الى قطر ، كما نعرف من الواح كبادوكيا (كبادوشيا) (بين ١٨٥٠ الى ١٧٥٠ ق م ووثائق من لارسا وبابل ، وبخاصة من نصوص ماري (بعد حوالى ١٧٥٠ قبل

(١) لا يعرف العصر الذى عاش فيه آل يعقوب على وجه التحديد ولكن هذا محض إتهاد من المؤلف .

الميلاد) (١) وليس ثمة عائق لغوي جدى فى أى بقعة من الهلال الخصيب ، منذ كانت اللغة السامية الغربية مفهومة فى كل مكان كما كانت قرينتها الاكادية البابلية هى اللغة الدولية ، لغة الدبلوماسية الخارجية والتجارة ، وفوق ذلك ان العلاقات السياسية والحضارية بين مصر وفلسطين استمرت وثيقة . وكانت اللغة المصرية مفهومة فى كل المراكز الفلسطينية الهامة ، كما أن اللغة السامية الغربية كانت لغة الكلام فى أنحاء شتى من شمال مصر (٢) .

ولما تكن التحركات الهندية — أرية بلغت بلاد الرافدين بعد ، والمركبات التى تجرها الخيل كانت لا تزال جد نادرة ، وفى الغالب بطيئة اذا قورنت بسرعتها بعد قرنين أو ثلاثة قرون ، ومن ثم لم يكن هناك أى لون من ألوان الاقطاع كالذى انتشر فى الهزيع الاخير من عصر البرونز الوسيط الثانى . ولم يظهر بعد فى فلسطين أى تباين واضح بين السكان الذين استقروا استقرارا كاملا وبين السكان البدو . وقد بدأت عملية الاستقرار المتكررة مرة أخرى منذ قرن أو أكثر . وصارت فلسطين الغربية الان مليئة بالقلاع التى يسكنها رؤساء العشائر ، على حين كان معظم رعاياهم يعيشون حتما فى كفور مبنية حولها ، تتكون من مجموعات صغيرة من الاكواخ أو الخيام . وفى وقت الخطر يدخلون قلعة رئيسهم أو قلاعه . وفى فصل الشتاء كان عدد سكان القلعة بلا شك يزداد زيادة كبيرة عنه فى فصل الصيف ، حين يستطيع الناس العيش فى مأوى وقتية مصنوعة من الحجارة وافرع الشجر بلا خوف من المطر . وقد استمرت عادة العيش فى مثل تلك العشش المؤقتة فى فصل الصيف خاصة خلال موسم العنب فى الازمنة القديمة ، وهى ميزة « عيد المظال » حرفيا (العشش) ولايزال يحتفل به حتى الان بين العرب الفلاحين الذين استقروا فى فلسطين فى العصور التالية .

والقصص المتوارث عن عصر آل يعقوب كما حفظ لنا فى التكوين يصورهم أشباه بدو يوزعون وقتهم بين العناية بالقطعان من جهة ،

(١) تواريخ بلاد الرافدين التى وضعها المؤلف تقل فى المتوسط ٦٤ سنة عن تواريخ سيدنى سميث بالمتحف البريطانى .

(٢) يتضح من هذا مدى الصلة الوثيقة بين مصر وفلسطين خاصة والشام عامة منذ اقدم العصور . المترجم .

وبين النشاط الزراعى من جهة اخرى . وهم فى ذلك يشبهون الى درجة كبيرة العرب أشباه البدو فى فلسطين حتى وقت قريب والاختلاف الجوهرى فى الاسلوب الظاهرى للحياة هو أن السرب الجدد (وهم فى منتصف الطريق بين البدو الحقيقيين والفلاحين الذين استقروا استقرارا كاملا) يقيمون فى النقب (الاقليم الجنوبى) والسهل الساحلى ، ومرج بن عامر ، ووادى الاردن والصحراء الشرقية من فلسطين ، والأجزاء البرية من الجليل ، بينما القبائل القديمة صوروا وهم يجوبون تلال أواسط فلسطين وجنوبها ولا يأتون النقب الا أحيانا قليلة . ورأى النقاد المتطرفون من القرن التاسع عشر الذين ادعوا أن حياة الآباء العبرانيين هى قصة من نسج خيال كتاب عصر الملكية الاسرائيلية ، استوحوها من حياة البدو المعاصرين لهم ليس سليما فى رأى المؤلف ، وان كانت بعض التفاصيل قد أضيفت دون ريب عن طريق الرواية لتوافق بين الصورة الموروثة وحقائق الحياة فى العصور التالية . وبعد ما يقرب من ثلاثة قرون منذ عصر آل يعقوب (كما وضع هنا) تعرض علينا ألواح العمارنة صورة شبيهة فى بعض نواحيها بصورة عصر آل يعقوب (الآباء فى التكوين) . وفى هذه الوثائق كان الـ « عابيرو » (الخابيرو) أنصاف البدو يظهرون كمجموعات تجوب المناطق الجبلية ، مثلما صور آل يعقوب يفعلون فى التكوين . أما عن كون العابيرو هم أنفسهم عبريم (العبرانيين) فى التكوين فهذه مشكلة عويصة لبسنا بحاجة الى الخوض فيها فى هذا المجال . وبغض النظر تماما عن هذا التطابق بين الأسمين ، ترجع أهمية الارشادات الكتابية الى « العابيرو » الى ما تلقى من ضوء على الدور التاريخى لآل يعقوب .

وفى القرن الثامن عشر قبل الميلاد كان الحمار هو الحيوان الرئيسى للحمل . ونسمع من ألواح كبادوكيا ومارى عن قوافل الحمير ، وما سمعنا قط عن قوافل الجمال ، واقدام اشارة نشرت عن الجمل يرجع تاريخها الى القرن الحادى عشر ق . م . وفوق هذا لا تمدنا الكمية الضخمة من الأدلة الاثرية التى تحت أيدينا الان الا بصورتين او ثلاثة فقط عن الجمل ، مشكوك فى صحتها ، خلال الفترة كلها منذ بداية الالف الثالث حتى نهاية الالف الثانى ق . م . كما فشلت الجهود التى بذلت حتى الان فى نسبة المزيد من صور الجمل الى هذه الفترة الطويلة . ومن



شكل ٣٠ — تصوير مجيء الاسبيين الى بني حسن حوالي ١٨٩٢ ق. م.

البديهي الا يوجد أى شك فى أن الجمل البرى كان منتشرًا فى شمال افريقيا وجنوب غربى آسيا فى العصر الحجري الحديث وعصر بداية استعمال المعادن ، فقد عثر على صور له منحوتة على الصخور التى تحد وادى النيل وفى كلوة فى شرق الاردن ، كما ان صور تماثيل الجمل لم تكن نادرة فى أواخر عصر ما قبل التاريخ فى مصر ، ويبدو أن الجمل البرى المبكر قد أبيد تقريبا فى المناطق التى تحد الهلال الخصيب خلال الألف الثالث ، وقد استؤنس ببطء فى اقصى شبه الجزيرة العربية خلال الألف الثانى ، ثم ظهر فجأة فى قتلعان كبيرة قبيل نهايتها وليس من المحتتم أن تثبت هذه الحقائق .

ولوحة بنى حسن المشهورة المؤرخة من ١٨٩٢ قبل الميلاد ترسم لنا صورة لا تنسى عن عائلة صغيرة من البدو انصاف رحل من فلسطين فى أوائل عصر آل يعقوب^(١) (شكل ٢٩) بقيادة شيخهم الذى يحمل الاسم السامى المختصر ابشا ، سبعة وثلاثون منهم ، رجال ونساء وأطفال قيل أنهم يحضرون الكحل الاسود من شوتو فى وسط شرق الاردن الى بلاط حاكم الاقليم (فى مصر الوسطى ، شمال العمارنة) . ويلبس كل من الرجال والنساء عباءة من الصوف صنعت من قطع مستطيلة من القماش المنسوج بزخارف زاهية الالوان ، والعباءة كانت تلف حول أحد الكتفين ويترك الكتف الآخر عاريا ، والاختلاف الوحيد بين عباءة الرجل وعباءة المرأة الذى أوضحه الفنان هو أن عباءة المرأة تصل الى منتصف المسافة بين الركبة والرسغ ، بينما عباءة الرجل لا تتعدى الركبة ، وعلى العموم ، كان بعض الرجال يلبسون عباءات (من تيل) بيضاء طويلة ، بينما يلبس البعض الآخر عباءات قصيرة (ازارا) تصل من الوسط حتى الركبة . ويلبس أكثر الرجال صنادل ، بينما صورت النساء لابسة أحذية من الجلد . أما السلاح فهم يحملون أقواسا مركبة ، وعقافات ، وسهام ، كما نرى ضمن الامتعة أشياء كان يستبعد وجودها ، وهى القيثارة يحملها أحد الرجال ومنفاخان كانت تحملها الحمير مع غيرها من

(١) لا يجب ان يفهم من هذا ان هذه اللوحة لها صلة بال يعقوب او بالعبرانيين وان كانت تدل على وصول بعض العرب الساميين الى مصر ولكن لم تكن هذه هى المرة الاولى او الاخيرة او انها تمثل العبرانيين وخاصة ان تاريخ هذا العصر ملئ بالقبوض . المترجم .

الاشياء • ومن الواضح اننا نرى هنا عمال تعددين جوابين يشبهون عمال العصور المتأخرة الذين كانوا حتى ذاك الوقت شيئاً عجيباً في مصر يستحقون أن يصورهم أمير المقاطعة للأجيال المقبلة (١) وهذه المجموعة ككل ، توضح لنا توضيحاً كاملاً قصة الثوراة القديمة في سفر التكوين ٤ : ١٩ - ٢٢ حيث وصفت عائلة لامك بأنه كان من بين أفرادها من اهتم بالرعى ، أو بالعود ، أو بتعدين الحديد والنحاس (٢) ولما كان من المستبعد أن يكون قد طرأ تعديل كبير على لباس انصاف البدو الفلسطينيين لمدة قرن أو قرنين ، فاننا لا نخطئ كثيراً اذا تصورنا آل يعقوب متدثرين في نفس هذا الاسلوب من اللباس • وعلى كل حال ، فقبيل نهاية عصر البرونز الوسيط تغيرت الملابس الكنعانية تغييراً كلياً نتيجة لادخال طراز بلاد الرافدين وشمال سوريا •

(١) ليس هذا صحيحاً على الإطلاق فالتعدين معروف في مصر قبل ذلك التاريخ بألف عام على الأقل •

[المترجم]

(٢) هذا لم يكن قاصراً على هذه العائلة فقط كما يفهم من كلام المؤلف فلدينا من الدولة الوسطى نماذج تبين عائلة كانت تملك كل ما تحتاج اليه من شئون الحياة وهذا واضح من النماذج التي عثر عليها في مقابر «مسكتي» و «مكت رع» وغيرهما وقد كان هذا شائعاً منذ أوائل الدولة القديمة في مصر بل وحتى بلاد الرافدين وجميع أنحاء الشرق الاوسط • (المترجم) •

عصر ايليا - الحديد الثاني

مر ما يقرب من ألف عام بلغ فيها عصر البرونز ذروته ثم اضمحل ، ليحل محله عصر الحديد ، والشعوب السامية كانت قد تعرضت بلادها لغزوات قبائل غير سامية^(١) التي ابتلعنها - ولكن سرعان ما طردها بدورها أو ابتلعها الاسرائيليون والفلسطينيون ، وقد أعقب أيام الغزو الاسرائيلي فترة تأقلم طويلة وقاسية عانى فيها الاسرائيليون من هجمات جيرانهم المحاربين^(٢) ، ثم جاءت أيام المملكة المتحدة الزاهية التي أعقبها مرة ثانية عصر فوضى . وبعد جيلين من تقسيم المملكة (حوالي ٩٢٢ ق م) ظهرت الشخصية الفريدة للتعبي ايليا الذي أتى من بساطة الريف في جلباد الى الحضارة العالمية في السامرة . ولقد أصبحت الحياة أكثر تعقيدا في منتصف القرن التاسع قبل الميلاد عما كانت عليه منذ ألف سنة مضت وقد حل محل الحمير البقي كانت من مميزات عصر آل يعقوب قوافل الجمال التي كانت تجلب توابل الجنوب العربي ومنتجات الواحات الشمالية الى موانئ البحر المتوسط . والمركبات التي تجرها الخيل حلت محل المشاة بدرجة كبيرة ، ولكن سرعان ما حل محلها هي الاخرى فيلق الفرسان ، والاساطيل الصغيرة المكونة من فلك تهاب البحار والتي كانت تجوب مياه البحر الابيض المتوسط حتى قبرص وكريت ، حل محلها أساطيل أضخم من السفن الفينيقية العظيمة التي كانت وجهتها شطر ورش تنقية النحاس في سردينيا وثروة اسبانيا المعدنية ، كما انبثقت فنون وحرف جديدة في كل اتجاه .

ولم يعد النساء يعتمدن فقط على مياه اقرب جدول أو غدير ، بل كان لكل بيت تقريبا في القرن التاسع صهريج خاص به حيث كانت تخزن امطار الشتاء لاستعمالها طوال العام . كما ازداد الان الاهتمام بالنظافة والصحة العامة . والى جانب شريعة موسى ، التي اهتمت

(١) هي شعوب البحار التي جاء ذكرها في نصوص رمسيس الثالث

[المترجم]

(٢) هم الفلسطينيون والممالك الارامية مثل صوبة ودمشق . المترجم

بالصحة الشخصية وبتحريم العادات والاطعمة التى تساعد على نشر
الوبئة ، توجد ادلة مستمدة من الاثار * فلم تكثر الصهاريج فحسب بل
كانت تزود أيضا بأحواض ترسيب ل تمنع أكبر ما يمكن من الطين والمواد
الدخيلة خارجها * وهذه الصهاريج كانت تتلقى مياه نظيفة نسبيا من
السطوح — لا مياه قذرة من الشوارع وافنية البيوت ، ومعظم أفراد
الاسرة العادية كانوا يقطنون فعلا فى الدور العلوى من بيوتهم ، وليس
فى الدور الارضى كما كان يفعل الناس فى العصور الاولى ، اما الدور
الارضى فكان يستعمل للتخزين وللورش ، كما ازداد استعمال
البالوعات (١) فى باطن الارض بمرور الوقت حتى يمكن المحافظة على
وسط المدن جافا بقدر المستطاع .

وكان الفلاح وأصحاب الحرف من هذا العصر احسن حالا ممن
سبقوهم من حيث نوع الادوات التى تحت ايديهم استعاض عن
منجل الحصاد الخشبى المبطن بحافة ظرائية بمنجل حاد مصنوع
من الحديد كان يمكن به جمع ضعف القمح على الاقل
فى نفس المدة المحددة المستعمل فيها المنجل القديم * وان كان من
الصحيح ايضا ان هذا المنجل الحديد كان قصيرا ، وان عامل الحصاد كان
عليه ان يجذب سنابل القمح باحدى يديه بينما يحصدها
بالاخرى ، (كما نرى تماما فى رسومات المقابر المصرية فلا زال يوم
المقصاب الطويل بعيدا فى المستقبل) * وكان لدى النجار أدوات حديدية
من كل نوع سهلت عمله الى درجة كبيرة وقؤوس وقواديم حديدية
كبيرة ، كان يقطع بها الشجر ويسوى بها الواحه وعوارضه ، ومناشير
رفيعة من الحديد محاطة باطارات مكنته من نشر الخشب بتكاليف اقل
من نشره بمنشار النحاس ، ومطارق كبيرة وازاميل صغيرة
مقكرة (مقاور) *

والثروة التى كانت تتدفق من جميع أنحاء العالم القديم فى المدن
الكنعانية (الفينيقية) الواقعة على ساحل فلسطين الشمالى ، جعلت
فى الامكان تطوير نوع من الانتاج بالجملة وكان هذا تقدما كبيرا يفوق
الحرف اليدوية القديمة يشبه فى ذلك ما لسير النقل الحديث من فضل
على انتاج الماكينات القديمة * ومقارنة الفخار من عصر

(١) عرفت البالومات فى مصر منذ الاسرة الرابعة على الاقل فى المعابد
الجنائزية لخنفر ومنقرع . المترجم .

الحديد الثانى مع فخار عصر البرونز الوسيط جد مفيد فى هذه
الناحية . فرغم كل العناية والمهارة الفنية التى كرسنا لصناعة القطع
الفردى فى عصر البرونز الثانى ، فان الفخار المصنوع على عجلة
الفخار بالورث من القرن التاسع حتى السابع كان يفضل كثيرا الفخار
القديم من حيث ملائمته لصالح العمل . ومن المفيد موازنة قائمة
الادوات المعدة للاستعمال سيدات القوم فى موقع من هذا
العصر مع مثيلاتها من موقع من بداية الالف الثانى . نجد عادة أن
الحلى كانت فى الالف الثانى رديئة ومصنوعة محليا ، بينما فى عصر
الحديد الثانى كانت الحلى المماثلة مصنوعة من مواد أرخص ، ولكن
بواسطة عمال مهرة . وعلى هذا نجد صلايات مستديرة صغيرة من الحجر
الجبرى الصلب لتحضير الوان الوجه وذهاناته ، وقد كسيت حافتها
بزخارف هندسية دقيقة احسن بكثير من حيث المهارة فى التنفيذ من
الزخارف الرديئة المحفورة باليد على فخار العصور المبكرة الرخيص ،
ويوجد عدد كبير من الدلايات الكبيرة الرخيصة وان كانت رشيقة
الصنع . ومن الجلى انه يمكن شراء كميات كبيرة منها بأسعار رخيصة .
وتعرض علينا النقوش الاشورية ملابس الاسرائيليين فى ذلك الوقت
فعلى المسلة السوداء لشلمنصر الثالث التى نقشت بعد بضع سنوات من
وفاة ايليا ، نرى قافلة ملك اسرائيل يهوذا حاملا الجزية الى الملك
الاشورى (وقد انبطح يهوذا على وجهه ليقبل الارض بين يدي ملك
اشور) وقد صور الاسرائيليون يلبسون نفس ملابس رجال شمال سوريا
وجنوب ارمينية ، ولما كانت هذه الملابس تختلف اختلافا كبيرا عن ملابس
رجال جنوب الامبراطورية الاشورية وشرقها ، فيمكننا أن نأثمن فى
سلام الفنان الاشورى على قدر من الدقة (وان كانت لا تبلغ الدرجة
التى عليها الفنان المصرى) . وكان يلبس الرجال قمصانا طويلة ذات
هدب ، ومن فوقها عباءة ذات هذب ايضا وهى مصنوعة من الصوف على
ما يعتقد ، وعلى رؤوسهم قلنسوة قصيرة مربوطة برباط يلف حولها
كالعمامة ، وفى ارجلهم احذية ذات رقبة طويلة ومقدمتها كانت مرتفعة
على الطريقة الحديثة . وبعد قرن ونصف قرن ، احتفل الفنانون
الاشوريون باستيلاء سنخاريب على لخيش فى يهوذا ، وقد ظهر هنا
رجال يهوذا بملابسهم مرفوعة حتى الركبة ومربوطة حول نفسها بحزام
بينما صورت النساء لابسات قمصانا وعباءات طويلة .

ازمنة العهد الجديد

ثم مرت تسعة قرون تقريبا أنت بتغييرات كثيرة فى طريقة الحياة وبتحسينات عديدة • فى المدنية • فقد تخلت الامبراطوريتان الاشورية والبابلية عن مكانهما للامبراطورية الفارسية الاكثر اتساعا ، التى غزاها عندئذ اسكندر المقدونى • وقد شاهد العصر الهلينستى عدة تغيرات فى القوى السياسية • فى ٦٣ ق.م • ضم بومبى فلسطين الى الامبراطورية الرومانية التى بلغت مساحتها حجما تضاهلت الى جانبه الامبراطورية الفارسية ، كما صار الان عالم البحر المتوسط وحدة واحدة ، واصبحت طرز اثينا والاسكندرية تقلد فى غرب البحر الابيض المتوسط ، بينما الحياة الرومانية العامة كانت قدوة المقاطعات الشرقية ولا تقص علينا نتائج الحفائر الاثرية فى فلسطين نفسها عن حياة عامة الشعب فى عصر السيد المسيح الاماندر • ومن ناحية اخرى توجد اطلال بومبى (التى دمرها ثوران البركان فيزوف فى ٧٩ م •) والتى حفظت لنا فى حالة جيدة لتكون لنا دليلا • ومما يساعد على فهمها مجموعة كبيرة من الادب المعاصر • وقد اسهم العهد الجديد ويوسيفوس ، وخاصة مشنا بنصبيهم فى المعلومات المباشرة القيمة ، وهى تعبر عن وجهة نظر اليهود • وبالطبع يجب استعمال كل ذلك بمنتهى الحذر ، فبومبى كانت فى ايطاليا ، وليست فى الجليل ، ومشنا جمعت بعد قرن من هذا العصر •

واهم تغيير عميق كان عقليا وقد صاحبه ايضا تغييرات ملحوظة عديدة فى المدنية • وست قرون من الجدل الفلسفى علمت الاذكياء من البربر والاغريق ان يفكروا بطرق منطقية فى الظاهر وان يستعملوا افكارا مجردة فى مناقشاتهم ، والحكم التجريبية الصريحة من عصر ايليا كثيرا ما استعويض عنها بعبارات منمقة من علم الكلام • وقد صار من اليسور الان استغلال التعليم لستر العقل بل اسهل من ذلك ان يخفى المرء اغراضه الحقيقية وراء اساليب خطابية منمقة • اما عن المدنية المادية فقد دخل الحساب والعلوم الميدان • ونتائج اعمال المهندسين والفلكيين قد وضحت من طرق حسابات الزمن والمساحة التى تحسنت الى درجة

كبيرة • كما اعطت الخروط الدقيقة نسبيا رجل الشارع فكرة اكثر وضوحا عن العالم الذى يعيش فيه عما كان ممكنا فى عصر ايليا • وعلوم الطب والجراحة ، وان كانت لا تزال بدائية من وجهة نظرنا ، تقدمت تقدما كبيرا ، اما استعمال المواد المعدنية والعضوية فى الفنون والحرف فقد اتسع نطاقه الى درجة كبيرة حتى انه لم يحدث بعدها الا تقدم بسيط فى هذه الاتجاهات حتى اواخر العصور الوسطى (١) •

وقد استمر التقدم فى التعدين ، ولم يستعمل الصلب الا فى القرن الاول الميلادى • كما اكتشف الرومان خلال القرن الاول قبل الميلاد كيف يصنعون الخرسانة الحقيقية ، وهذا الاختراع قد احدث ثورة فى فنون البناء والهندسة • وكان العلماء من امثال أرخميدس من سرقوسة بصقلية (القرن الثانى ق • م) وهيرو Hero السكندرى (القرن الاول الميلادى) ، يطبقون المعلومات الرياضية لاختراع وسائل ميكانيكية افضل • فالساقية تخفضت تكاليف الري ، والطحونة التى تدبرها الجمير أراحت النساء من العمل المرهق وهو طحن الدقيق بواسطة الرحى التى كانت لا تزال مستعملة فى عصر ايليا (عصر الحديد الثانى) •

وبفضل الاكتشافات فى بومبى وغيرها من المواقع الرومانية الاقل اهمية ، يمكننا أن نكون فكرة طيبة عن كيفية معيشة اثرياء القوم فى هذا العصر • ومحل الإقامة لا يؤثر كثيرا على حال الطبقة القادرة ، اذ انهم كانوا دائما يحاولون تتبع أحدث الطرز فى بناء بيوتهم وزخرفتها ، وفى الملابس التى يلبسونها وفى مرهمهم ومشاكلهم • والبيت الرومانى (domos) هو مجرد مرحلة متأخرة للبيت الهيلينى الذى سبقه ، ومن مميزاته جزء شبه عمومى محيط بالفناء الخارجى ، ويعرف باسم اتريوم atrium ثم الجزء الخاص المحيط بفناء ذى عمد وكان يطلق عليه باليونانية peristyle والانزيوم (وقد عثر على عدد منها فى قصر كبير) ربما كانت من اصل توسكانى ، وفى هذه الحالة كانت تغطى تقريبا بواسطة مد الواح السقوف الملاصقة ، تاركة فى وسطها مساحة

(١) هذا كان فى أوروبا فقط أما فى الشرق الأوسط فقد تقدمت العلوم والفنون فى عهد العرب تقدما ضخما حتى ان الكثير من الكتب العربية ترجم الى اللغات الأوروبية وظل يدرس بمدارسها قرونا عديدة .

[المترجم]

مفتوحة يدخل منها النور (اى منور) ، واسفل هذه الفتحة يوجد حوض يعرف باسم امبلوفيوم impluvium حيث تجمع فيه مياه الامطار النازلة من السقف لتمد الخزان بالمياه . والاتريوم قد يكون أيضا عبارة عن تتراستايل tetrastyle وفى هذه الحالة كان يحاط بطنوف ، تعتمد على عمود فى كل ركن من اركان الفناء الصغير او ربما كان من طراز بريستاييل اتريوم peristyle atrium اى فناء من طراز الاتريوم محاطا بالاعمدة) مثل البريستاييل المقام حوله الغرف الداخلية للبيت .

فمن البديهي انه يجب علينا الا ننتظر وجود شبه كبير بين بيوت الفقراء فى انحاء الامبراطورية الرومانية المختلفة ، والمميزات العامة الوحيدة هى صغر حجمها وبساطتها . وفى فلسطين ظل الحجر واللبن هما مواد البناء مثلما كانا فى العصور الاولى . ومن الخطأ الجسيم حقا ان نفترض ان بيوت عامة الشعب فى فلسطين القديمة كانت تسقف بقباب من الحجر والملاط او اللبن ، كما يحدث اليوم (بعد قرون عديدة من ازالة الغابات المستمر) وقد انتقل كثرة استعمال القباب الى فلسطين من ايران والعراق فى العصور الوسطى . اما البيوت المبكرة فكانت تسقف عادة بالسقف مسطحة مبنية بعروق الخشب ، وكان يوضع عليها ألواح ومن فوقها عساليج صغيرة وعصى ، ثم تغطى بطبقة سميكة من الطين الرملى (مرل) وكان يجب لف السقف المرل بعد كل مطر غزير حتى يبقى جافا ، وقد بدأ فى استعمال بكرة السقف الحجرية الاسطوانية لهذا الغرض فى عصر الحديد الثانى وقد استمر استعمالها مع ادخال تعديل بسيط عليها حتى اليوم . والبيوت ذات السقوف الخشبية كانت النار تنشب فيها تسببا بسهولة اذا ما قيسست بالصعوبة البالغة ان لم تكن الاستحالة التامة — فى تدمير قرية عربية حديثة بالنار .

كان اليهود فى زمن العهد الجديد ينامون عادة على أسرة (١) سرير

(١) عرفت الاسرة والكراسى فى مصر منذ عصور ما قبل التاريخ ، بل كلنا نعرف ان مظاهء مصر منذ أيام الدولة القديمة — مثل مقبرة حتب حرس — وكذلك فى أيام الدولة الحديثة مثل مقبرة توت عنخ آمون وغيرها من المقابر — كانوا ينامون على سرر مغطىة برقائق من الذهب . كما استعملوا مراوح من ريش النعام وقفازات من الجلد أو التيل ، كما كانوا يناولون طعامهم على الموائد كما صور ذلك بكل وضوح على جدران المقابر منذ أيام الدولة القديمة . وفى مصر بل فى جميع بلاد الشرق الاوسط القيم وهى عربية

مرتفع اذا كان المرء غنيا أو على فراش وطىء ، اذا كان فقيرا (٢) .
وفي الازمنة الاسرائيلية كان الناس يجلسون على كراسى أو مقاعد
وكانوا يتناولون طعامهم عادة على المائدة . وفي زمن العهد الجديد
انتشرت العادة الاغريقية من الاضطجاع عند الاكل ، وكان الضيوف
تضطجع وكان ذلك كذلك دائما في المآدب الرسمية .

في تلك الازمان كان الناس يغسلون أيديهم قبل الاكل ، بدلا من
الانتظار الى ما بعد تناول الطعام . ثم أن عادة الاستحمام
المستمر (٣) أو على الأقل غسل الاطراف فرضتها الشريعة على جميع
اليهود ، بينما العادات الاغريقية من غسل كل الجسم لابد أنها قد
تغلغت في كل طبقات المجتمع في ذلك الوقت . هذه بعض أمثلة على
المستوى العالى نسبيا للنظافة العامة والخاصة التي كانت في ذلك
الوقت .

والملابس والحقى وقص الشعر وكل وسائل التجميل كانت تتبع
المودات ، المنتشرة في تلك الايام ، وكان زى اليهودى يتكون بصفة

سامية كان الاثرياء يعيشون عيشة رغبة لم تصل اليها اوروبا الا في القرن
الثامن عشر . وتكفى زيارة واحدة للمتحف المصرى للدلالة على المستوى
الرفيع الذى بلغه قدماء المصريين في مضممار الحضارة في جميع الوانها ،
والحضارة اليهودية ما هي الا حضارة منقولة عن الحضارة المصرية . فقد
نشأ اليهود في مصر وعاشوا فيها وتعلموا حضارتها وتكلموا لسانها وليس
لهم اى فضل في تطوير الحضارة في هذه المنطقة بل على النقيض من ذلك فقد
نقلوا آداب وعلوم هذه الحضارات الى آدابهم حتى ما يسمى باللغة العبرية
ما هي الا لهجة عربية سامية تعلمها اليهود عند دخولهم فلسطين بعد
خروجهم من مصر . (المترجم) .

(٢) الواقع ان الاسرائيلى العادى كان يلتف بعباءته ويفترش الارض
او على قطعة من القماش . انظر : المجتمع الاسرائيلى ، تأليف الدكتور فؤاد
حسنين على ص ٤٤ . المترجمان .

(٣) هذا ليس صحيحا على الاطلاق ، فالدين الاسلامى يفرض على
المسلمين الوضوء خمس مرات في النهار بالاضافة الى ضرورة الاغتسال
بصفة مستمرة . بل من الثابت ايضا ان قدماء المصريين كانوا يملكون حمامات
خاصة في بيوتهم ، كما كانوا يهتمون بغسل اجسادهم حتى عند الوفاة .
بل ان اول من اخترع الدش هم قدماء المصريين ، وقد صور على أحد
جدران مقابر الدولة الحديثة بطيبة ، ولكن الدعاية الغربية دائما تحاول
الاساءة الى الشعوب العربية . وبهذه المناسبة اذكر ان كثيرا من البيوت
الاوروبية كانت خالية من حمام حتى اوائل هذا القرن . وكثير من الاوروبيين
من الجيل الماضى كانوا لا يستحمون اطلاقا . وهم حتى الآن لا يغسلون
أيديهم طول النهار لا قبل الاكل أو بعده . المترجم .

أساسية من نفس الملابس قميص وعباءة وحذاء أو صندل وقبعة أو طاقية من نوع ما لتحمي الرأس التي كان يرتديها الاغريق المعاصرون . وليس من الصواب تصوير رجال تلك الازمنة لابسين نفس ملابس عرب اليوم . قميص وعباءة وكوفية وعقال فوق الرأس ، أما العمامة العربية أو الطربوش التركي فلم يعرفا بغد وأن كان الكهان الوثنيون في تلك الازمنة كانوا يلبسون التاج المثلث المخروطى المرتفع .

وطعام عامة الشعب في فلسطين تعددت أنواعه وتنوعت أطباقه أثناء القرون التسعة التي فصلت بين ايليا (عصر الحديد الثانى) وبين عيسى والحواريين . ومن بين الحبوب ، كان الارز يزرع آنذاك في الاراضى المغمورة بالمياه ، ولكنه لم يحل كطعام محل الانواع الاخرى من الحبوب بنفس الدرجة التي وصل اليها في العصور العربية التالية ولم نسمع بعد عن البلاف الريان وهو يصنع من اكوام من الارز الطرى الذى يوضع عليه الزبد المذاب (السمن السائح) والرق ليكسبه طعما لذيذا ثم يعلوها اكوام من الضأن المشوى ، وقد قطع الى قطع صغيرة مناسبة للاستهلاك الفردى ثم تتوج بقطع صغيرة بيضاء لذيذة من لينة الخروف . وبدلا من الارز كان يطبخ فريك القمح أو الشعير مع اللّحظ الطرية من الضأن وخضروات من مختلف الانواع . وكثير من أنواع الخضار المشائعة اليوم لم تكن معروفة آنذاك فبدلا من الفاصوليا والبسلة المعروفة الان كان الفول والعدس اللذيذ ، وحل الحمص محل الفشار والفول السوداني ، وكانت أنواع مختلفة من الخيار وقرع كوسى مستعملة بدلا من القرع . العسلى أو المغربى المستعمل اليوم ، ولم تكن الطماطم قد عرفت بعد . ومن ناحية أخرى لعب البصل والكراث والثوم دورا كبيرا في طعام شعوب البحر الابيض المتوسط كما هو الحال اليوم ، ولم يدرك علماء الغرب قيمتها الغذائية التي لا تضارع الا أخيرا فقط .

واذا ما التفتنا الى الفواكة والنقل نجد ايضا كثيرا من المتباين والتشابه بين أزمنة العهد الجديد واليوم . فالوز والمواالح (باستثناء الليمون) لم تكن معروفة في فلسطين . وبالتأكيد لم يدخل التين الشوكى البلاد . ومن ناحية أخرى كانت أشجار الزيتون تنمو في كل مكان أكثر مما هي عليه اليوم ، بعد ما مرت قرون كان يدفع فيها عن كل شجرة زيتون ضرائب للخزانة الجشعة ولا يزال العرب يطلقون على أشجار

الزيتون الضخمة القديمة اسم « زيتون رومي » • كما كانت الكروم أكثر كثيرا مما هي عليه اليوم ، وعصارات الخمر التي قادت من الصخر الصلب هي من أهم دلائل أثرية المكان ، نظرا لان غالبية الفلسطينيين طوال الثلاث عشر قرنا الماضية لم تسمح للخمر أن تفسد شفاهم ، واستعمل العنب كفاكهة فقط • وكان الزبيب والتين وعسل النحل والبلح تستعمل بدلا من قصب السكر الذي لم يدخل المنطقة قبل العصور الاسلامية • وعلى العموم فان أنواعا عديدة من الفواكه التي أصبحت غير شائعة اليوم كانت تستطاب لانه لم يوجد مايفضلها في ذلك الوقت • فاللوز والجوز (الذي أدخل في العصر الفارسي) ، والتفاح والكمثرى وهما من نوع أقل جودة ، والرمال ، والجميز (الذي لا يأكله الا أفقر الناس ولكن في تلك الايام كان يثقب حتى ينمو الى حجم أكبر من حجمه الحالي) كانت من المواد الغذائية الرئيسية في ذلك الوقت •

والتغيير الهام الوحيد الذي حدث في مواد الغذاء فيما بين زمن ايليا (عصر الحديد الثاني • أ) وبين أيام العهد الجديد كان ادخال الدجاج المستأنس والبيض في الحياة اليومية • وأول صورة مؤكدة لديك هي تلك التي وجدت على خاتم من ثل النصبه عثر عليه و • ف بادى W.F. Badè ويرجع تاريخها الى بداية القرن السادس قبل الميلاد وفي العصر الفارسي عرف الدجاج المستأنس أيضا عند الاغريق وكان ادخال الطيور الداجنة وما كان لانتاجها من فائدة على الاقتصاد المنزلي أمر في غاية الاهمية العملية • وكان الاوز معروفا من قبل ، ثم أخذ البط في الانتشار في هذا العصر • اما الديك الرومي فطبيعى انه لم يدخل الا بعد الف وخمسمائة سنة •

وكما لاحظ القارئ فثمة تغييرات عديدة حدثت في الحياة اليومية أثناء تلك الفترة الطويلة منذ بداية عصر الحديد الثاني (عصر آل يعقوب) حتى سقوط الهيكل الثاني ونهاية عصر العهد الجديد • وعلى الرغم من تعدد هذه التغييرات فهي تبدو باهتة اذا قورنت بالتغيير الذي طرأ على عالم الروح ، سواء من الناحية العقلية أو الخلقية •

الفصل العاشر

العهد القيم والآثار

فى حماس المرء للبحوث الاثرية ما يدفعه فى بعض الاحيان للتغاضى عن المدافع الدائم لاي اهتمام خاص بفلسطين — فتقريباً كل العهد القديم العبرى من نتاج الارض الفلسطينية والكتاب الاسرائيليين ، كما أن أغلب الحوادث التى تكون صلب العهد الجديد المكتوب باللغة اليونانية وقعت فى نفس تلك البقعة المقدسة • ورغم ان العهد القديم يحتوى على تجميع خير ما أسهم به الشرق القديم فى الدين (قبل ظهور الاسلام) فقد تحول بفضل الشريعة الموسوية الى عقيدة دينية يسمو سموها عظيماً عن كل نظائرها فى مصر وبلاد الرافدين (١) وبالمثل فالعهد الجديد ، وان كانت محتوياته تعكس خلاصة العقيدة والفكر اليهودى بعد مزجها بالمنطق والجمال الاغريقى ، فهو يدور أصلاً حول أمور حدثت فى فلسطين وحول كلمات معلم قضى فى الواقع كل حياته هناك •

وكثيراً ما يدعى أن الناحية العلمية من حفائر فلسطين قد أصابها ضرر بليغ بسبب المعتقدات الدينية التى كان يعتنقها العلماء الذين قاموا بالتنقيب فى الارض المقدسة ، وقد قابل المؤلف عدداً كبيراً من هؤلاء العلماء ولكنه نادراً ما يتذكر حالة واحدة كان فيها لآرائهم الدينية تأثير خطير على أبحاثهم • وكان بعض هؤلاء العلماء نقاداً متطرفين بينما كان البعض الآخر أشد تحفظاً فى نقده ، مثل ارنست سيلن ، أما غيرهم فكانوا جد محافظين • ولكن ما توصلوا اليه من نتائج أثرية كان مستقلاً الى درجة كبيرة عند الجميع عن آرائهم النقدية • وقد كانت هناك بعض المشكلات مثل مشكلة سر شارلز مارستون Marston الذى دفعه

(١) الحديث هنا خاص بالمقارنة بين الديانة السماوية التى بشر بها موسى وبين الديانات الوثنية القديمة . [المترجمان]

حماسه غير المذهب الى تفسير بعض اكتشافات جاستج وستاركي Starkey تفسيراً خاطئاً • ولكن الدمار الذي أصاب الحياض العلمى من هؤلاء المنقبين الفلسطينيين بسيط فى الواقع اذا ما قورن بالخسارة الفادحة التى اصابته علم الدراسات المصرية نتيجة للنهب والسلب العام الذى قام به بلزوني وباسالاكوا Passalacqua والاحتكار التام لجميع أعمال التنقيب الذى فرضه مارييت ، أو نهب وتخریب المقابر الملكية بلا رحمة كما فعل اميلينو (١) • ويجب ألا ننسى ان ما ناله بعض العلماء الاوائل من أمثال بترى Petrie وريزنىر Reisner من اكاليل النصر الممتازة يرجع الفضل فيه لفلسطين • وكمثل على الحذر الذى رعاه الاثريون فى فلسطين ، يجدر بنا ان نذكر بترى وبليس وماكاليستر ، وواترنجر ، وتبعهم تقريبا كل الآخرين ، فقد كانوا غالبا ما يضعون توابيح منخفضة جدا ، على حين كانت التوابيح فى مصر عادة مرتفعة جدا • ومن ثم نرى منظرا عجيبا هالتوابيح الاثرية كانت تأخذ فى الارتفاع تدريجيا فى فلسطين ، بينما فى مصر تأخذ فى الانخفاض تدريجيا •

(١) لم يكن الاوربيون امثال بلزوني وباسالاكوا فى الاصل من علماء الآثار ، انما اهتموا بالآثار سميا وراء سرقة الكنوز التى تملأ مقابر المصريين القدماء ، ولم يكن لهم أى فضل فى الكشف عن الحضارة المصرية بأية صورة من الصور ، انما يرجع الفضل فى ذلك الى علماء آخرين اشتغلوا بالدراسة فقط • اما مارييت فلم يكتف بما نهبه من آلاف القطع الاثرية التى اخذها من سقارة الى بلده ، بل لكى يرضى جشعه انشأ مصلحة الآثار حتى يستطيع تحت ستار السلطة الرسمية السيطرة على جميع آثار البلد والتحكم فيها ، وتحت هذا الشعار وهو قاتون حماية الآثار اخرجت آثار لا تحصى ملأت متاحف العالم ، بعضها لا نظير له اطلاقا ، تارة باسم القسنة ، وتارة باسم هبات ، وتارة باسم التجارة • ومن أشهر ما سرق بطرق لولبية خبيثة الملوك بالدير البحرى التى نقل جميع ما وجد بها من آثار دون استثناء الى متحف اللوفر ولندن نظير ثمن بخس دفع للصومس الذين عاونوهم فى هذه العملية ، ولم يكتف اميلينو وبلزوني وغيرهم بنهب الآثار التى يمكن نقلها بل عمدوا الى تقطيع جدران المقابر والمعابد لسرقة اجمل نقوشها فحشوها اثارا اكثر من تلك التى سرقوها • بل قد عمدوا أيضا الى نقل مقابر ومعابد بأكملها الى بلادهم ولولا اعلان استقلال مصر فى سنة ١٩١٩ ، والخلاف الذى نشأ بين الفرنسيين والانجليز حول سرقة مقبرة توت عنخ امون ، لنقلت هى الاخرى الى الخارج ، وقد استطاع مكتشفها رغم ذلك من سرقة الجواهر النادرة ومنها التمثال الذهبى الوحيد الذى يمثل الاله امون اله طيبة ، وهو المحفوظ حاليا بمتحف المتروبوليتان بنيويورك ، ولا تزال المتصورة الذهبية لهذا التمثال محفوظة بالمتحف المصرى • المترجمان •

بيد أنه لم يعثر في فلسطين حتى الآن ، على قطعة واحدة من بردية
أو استراكا تحتوي على جزء من التوراة من عصر ما قبل المكابي • فان
النقوش التي أشرنا إليها وخاصة في الفصل الثامن تعطينا فكرة واضحة
جدا عن الزمن الذي ظهرت فيه الكتابات المدونة الاصلية للعهد القديم •
ولذلك فان أشكال الحروف والهجاية في تقويم جازر من أواخر القرن
العاشر تبين لنا الخصائص الظاهرية لأنواع الانشاء النثرى المبكر في
التوراة مثل قصة الوقائع التي سبقت موت داود وتتويج سليمان في
صموئيل الثانى • والهجاية في تقويم جازر والنقوش الفينيقية
المعاصرة تساعدنا على تحديد تاريخ في نفس القرن للقصاصد المبكرة مثل
صموئيل الثانى ٢٢ (مزمو ١٨) ، كما تساعدنا على اثبات ان القصاصد
الاسبق مثل تنبؤات بلعام لا يمكن ان تكون قد كتبت في تاريخ متأخر
مناسب • واستراكا السامرة من أوائل القرن الثانى ، تعطينا فكرة دقيقة
جدا عن الكتابة وأشكال الحروف التي استعملت في عهد النبى هوشع •
ونص سلوام من حوالى ٧٠٠ قبل الميلاد هو صورة صادقة لكتابة اشعيا
وهجائه (رغم انه كان يستعمل ، على ما يحتمل في كتابة رسائله
الخاصة : خطأ مختصرا الى حد ما) • وأهم من هذا كله وهو الضوء
الذى ألقته استراكا لخيش على الكتابة والهجاء ولغة عصر ارميا •

والنقوش السابقة كلها كتبت بالعبرية وبعد النفى كانت النقوش
اليهودية فيما عدا بعض نقوش قصيرة جدا على الاختتام والنقود ،
تكتب بالارامية • وقد امدتنا فلسطين نفسها بعدد من الاستراكا
الارامية من السامرة ، تل الفرعة وفي غيرها من الاماكن ، كتبت بنفس
كتابة ولغة البرديات والاستراكا اليهودية من القرن الخامس قبل الميلاد
التي عثر عليها في مصر • وكما سترى فيما بعد فهذه النصوص كتبت
بنفس لغة عزرا الارامية (اذا وضعنا جانبا الهجاية المنقحة تثقيما
بسيطا ، كما في عبرية ارميا) • وارامية دنيال هي في جوهرها نفس
الشيء ولكنها تدل على تاريخها المتأخر في التفاصيل النحوية والكلمات
الاغريقية الدخيلة •

وحتى عام ١٩٤٧ كانت مصر أكرم من فلسطين مع طلاب نص التوراة
العبرية • وقبل أن تبدأ قصاصات البردى العبرية في الظهور بمصر منذ
بضع سنين ، كان أقدم مخطوط عبرى مؤرخ لاي جزء من العهد القديم
هو كتاب بتروبوليتانوس Codex Petropolitanus من السنة ٩١٦

ميلادية • وقد أرخ بول كحلا P. Kahle عددا من البرديات غير المؤرخة بتاريخ يسبق ٩١٦ ميلادية ، ولكن الادلة الخطية غير كافية لاثبات تاريخ لا يشوبه الشك • وقد عثر فى البهنسا بالفيوم بمصر على بعض أجزاء من التوراة مكتوبة بالعبرية من العصر البيزنطى ولكن لا يبدو أى منها يسبق القرن الرابع الميلادى • وفى ١٩٠٢ عثر فى الفيوم على جذاذة ناش Nash التى تشتمل على الوصايا العشر وعلى الـ « شمع » (اسمع يا إسرائيل) وقد أرخت فى أول الامر فى القرن الثانى الميلادى ، أو ربما الاول ، ولكن ما كان لازدياد معلوماتنا فى الوقت الحاضر زيادة كبيرة عن الكتابة الارامية — العبرية المعاصرة يثبت الان أنها تسبق عصر هرودس ويجب أن نضعها فى عصر ما قبل المكابى • وإلى نفس هذا العصر تنتمى جذاذة فؤاد عن التثنية الاغريقية ، وقد ترك فيها كاتبها أماكن خالية فى كل موضع وجد فيه فى النصوص الاغريقية المتأخرة كلمة Kyrios ، « الرب » ، وفى هذه الاماكن أضاف كاتب يهودى فيما بعد الاربع حروف الارامية (العبرى المربع) للاسم المقدس يهوه (الله) التى لم تعد تلفظ الان انما كانت تكتب فقط ويستعمل بدلا منها فى القراءة الكلمة « adonai » « ربى » • والحروف الارامية — العبرية التى استعملت فى كتابة كلمة « يهوه » Tetragrammaton هى نفسها بالضبط تلك التى استعملت لنفس الغرض فى بردية ناش وهى قرينة تضيف اثباتا قويا جديدا للتاريخ المبكر للبردية الاخيرة •

وهذه الاكتشافات وان كانت تبشر بالخير ، الا أن أهميتها قد تلاشت الى جانب الاكتشاف الذى حدث عام ١٩٤٧ ، للمخطوط الذى صنع تاريخا • وفى ذلك التاريخ اكتشف بعض البدو كهفا قديما فى الصخر فوق النهاية الشمالية للبحر الميت • وقد عثر به على عدد من قدور كبيرة مهشمة ، حفظت بها بعض ملفات ثمينة من البردى فى أمان ، وكانت ملفوفة بقماش من التيل ومختومة بعناية • وقد أمكن الحصول على حوالى اثنتى عشر ملفا من الجلد والرق التى بيعت لرهبان دير سانت مارك الارثوذكسى السورى فى القدس وللجامعة العبرية بالقدس • وقد بيعت — للاسف — أربعة ملفات منها كان قد أحضرها الى الولايات المتحدة البطريك السورى فى القدس الى إسرائيل ، وبهذا صارت كل ملفات البردى التى عثر عليها فى أول كشف محفوظة الان فى القدس المحتلة • وقد تم نشر جميع هذه الملفات باستثناء ملف واحد من الكشف

الاصلى ، بين ١٩٥٠ و ١٩٥٤ • وقد خلقت ثورة فى معلوماتنا عن النقد
النصى للعهد القديم العبرى ، ولطائفة الاسينيين Essene (١) ،
وعن نشأة العهد الجديد • والمعارضة الاولى لقدم مادة
قمران الجديدة وأصلاتها سرعان ما انقشعت أمام ضخامة الادلة
المؤيدة ، ولا يوجد الان أى شك فى أن تاريخها يرجع الى ما قبل
الاحتلال الرومانى للمنطقة فى سنة ٦٩ ميلادية وتقريبا كل ملفات
قمران سابقة للعصر المسيحى •

وفى تنقيب أول كهف فى قمران عثر ج • ل • هاردنج
G.L. Harding ، ود • دى • فو R. de Vaux على جذاذات من
أكثر من أربعين قدرا حفظت بها ملفات البردى ، كما عثر أيضا على
كميات من التيل التى لفت بها الملفات • والفخار هيلنستى — رومانى ،
من القرن الاخير للهيكلى الثانى ٣٠ ق • م • — ٧٠ م • وقد أرخ
التيل بواسطة الكربون المشع من عصر السيد المسيح ، مع وجود هامش
كبير للخطأ لعدم التأكد من دقة الحساب • كما عثر على أشياء أخرى فى
غاية من الاهمية فى كهف بالقرب من الكهف الاول يقع مباشرة أسفل
مستعمرة الاسينيين أرخت بواسطة النقود من نفس العصر • وقصد
زودتنا أعمال التنقيب التى أجريت داخل هذا الكهف الجديد فى سنة
١٩٥٢ بكميات من جذاذات من ملفات البردى ، وهى تحتوى على أجزاء
من كل سفر تقريبا من التوراة العبرية ، بالإضافة الى أسفار الاسينيين
الاصلية • ومقتطفات من مؤلفات أبو كريفيا وشبيهتها • وهى تمدنا ،
بالإضافة الى القيمة الجوهرية لهذه الاكتشافات ، بأدلة خطية قاطعة
على قدم ملفات البردى • وقد عثر فى ١٩٥٢ الى الجنوب منها ،
بالمربعات ، على عدد من الوثائق والجذاذات بخط متأخر يؤرخ من عصر
باركوخفاه (١٣٠ — ١٣٥ م •) ، وهى تؤيد أيضا تاريخا مبكرا للملفات
• قمران •

(١) الاسينيون جماعة من حملة الاسرار الصوفية العريضة الضاربة فى
القدم الى ابعد الأزمان ، وقد عاشوا فى وسط اليهود كأنهم يهود وهم فى
الحقيقة ليسوا بيهود ولكنهم حملة أسرار باطنية قديمة غير مفهومة بل غير
معروفة اطلاقا الا لفئة قليلة على وجه الارض • ولو أن غالبية الباحثين
يظنون انهم يهود الا انهم أقدم كثيرا من اليهود • (المترجم) •

ويفوق هذه الملفات كثيرا فى الاهمية ملف كامل لسفر أشعياء ، وهو سليم باستثناء ما تلف منه بفعل عاديات الزمن . وقد كتب هذا الملف ، حسب خطه — وهو أقدم بكثير ، فى نواحي عديدة من خط جذاذة ناش — فى وقت ما فى الهزيع الاخير من القرن الثانى أو الجزء الاول من القرن الاول قبل الميلاد — أى حوالى ١٠٠ ق . م . تقريبا . ومن ثم فهو أقدم بألف سنة من وثيقة بتروبوليتانوس كما هو أقدم أيضا بما يقارب ذلك من أقدم ملف للتوراة العبرية التى كان معلوما بوجودها قبل ذلك .

وخلافا لجذاذة فؤاد للترجمة الاغريقية (السبعينية) للتثنية يوجد جذاذة ريلاندس Rylands التى اكتشفت حديثا ، والتى تؤرخ من القرن الثانى ق . م . وهى بذلك أقدم ، فيما يحتمل ، من أى جذاذة من مخطوط تورانى كشف حتى الان . ويلى تلك فى القدم برديات شستريبتى التى يمكن تأريخها من القرن الثانى أو الثالث قبل الميلاد ، وهى أقدم بقرن أو قرنين عن أقدم رق مدون من التوراة الاغريقية ، التى تعرف فى الشائع باسم فاتيكانوس (نسبة الى الفاتيكان) Vaticanus وسيناتييكوس Sinaiticus . (نسبة الى سيناء) . وقد سدت الاكتشافات الحديثة تقريبا الفجوة بين الترجمة الاصلية للتوراة العبرية الى اللغة الاغريقية خلال القرنين الثالث والثانى قبل الميلاد وبين أقدم اثبات مخطوط للترجمة السبعينية . وبهذا صرنا قادرين تقريبا على اعادة تركيب الكتابة والهجاء اللتين استعملتا فى كل عبارة تقريبا فى تاريخ التوراة العبرية وترجمتها الاغريقية . وعلى ضوء هذه الحقيقة ، فثمة اختلاف شاسع عما كان يحدث منذ قرن مضى ، عندما كان العلماء الاوروبيون المخامرون يؤرخون بجد تأليف جزء كبير من التوراة العبرية من أوائل العصر الرومانى . وحتى لا يبدو هذا الرأى لاذعا فى غير محله ، يمكن أن أضيف أن بعض العلماء الممتازين فى ذلك الوقت قد أرخوا جزءا من الاسفار أو حتى أسفارا بأكملها من التوراة العبرية فى القرن الاول قبل الميلاد ، وفى الفصل التالى سنلاحظ مثل تلك السخافات فى تاريخ أجزاء من العهد الجديد .

وعندما نتساءل الان عن كيف اتخذ العهد القديم شكله الحالى ، ننقل الى حقل ساده ، دون منازع ، النقد الادبى المبني على أدلة داخلية حتى وقت قريب . أما الان فنرى أدلة خارجية تتدفق من الاكتشافات

الاثرية من كل البلاد المحيطة بفلسطين ، وخاصة مصر ، وسوريا ، وبلاد الرافدين وآسية الصغرى . وبإضافة هذه الأدلة الى الاكتشافات الأخرى بما فى ذلك الأدلة على وجود العلاقات الثقافية التى أمكن الحصول عليها من تلال فلسطين كما سبق أن أوضحنا ذلك فى فصولنا الأولى ، نستطيع الآن أن نكون صورة مرضية الى حد ما للحالة على حقيقتها . وقد أحضر العبرانيون معهم من موطنهم الاصلى فى بلاد الرافدين^(١) القصص المقدس الخاص «بنشأة العالم» الذى تعلموه فى هذه البلاد^(٢) . والى هذه القصص القديم الذى توارثته الرواية قرونا لم تعد ، أضيفت الروايات الشعرية عن آل يعقوب التى صيغت فيما بعد فى قالب القصص التاريخى النثرى الذى عاش فى التوراة . ثم جاءت الحوادث الخاصة بالخروج والتجوال التى هزت الروح والتى توارثتها الاجيال شعرا ونثرا ، مع تعاليم موسى وشرائعه . وبعد ما كانت وثائق العصر الموسوية مجموعة فى مصنفات مختلفة ، وضعت تدريجيا فى مؤلف واحد ، استكمل شكله الحالى قبل عصر النهضة عند نهاية القرن السادس قبل الميلاد . وأسفار موسى الخمسة ، بصفة عامة ، أقدم كثيرا عن التاريخ التى نشرت فيه فى صورتها النهائية . والاكتشافات الجديدة لا تزال تثبت الدقة التاريخية أو قدم التراث الادبى لفقرة بعد فقرة منه ، وحتى عندما يقتضى الامر فرض اضافات متأخرة للنواة الاصلية للرواية الموسوية فهذه الاضافات تعكس النمو الطبيعى للشرائع والتقاليد القديمة ، أو المجهود الذى بذله الكتاب المتأخرون للمحافظة على كل ما يمكن للروايات التى كانت ما تزال باقية عن موسى . ومن ثم فمن البراء المحض أن نفكر الشخصية الموسوية الجوهرية فى الرواية المتواترة للأسفار الموسوية .

(١) لا توجد اى أدلة اثرية تثبت هذا الزعم بأنهم جاءوا الى مصر من بلاد الرافدين ، وانما ذكر هذا فى التوراة فقط بمعرفة كتاب متأخرين اذ مر أكثر من ألف عام بين رحيلهم من بلاد الرافدين كما يزعمون ومجيئهم الى مصر ثم ذهابهم الى فلسطين وبين الزمن الذى دون فيه أول جزء من التوراة .
المرجع

(٢) كان هذا القصص شائعا فى جميع انحاء الشرق القديم ، وربما نقله العبرانيون بعد دخولهم فلسطين اثر رحيلهم عن مصر ولو كانوا يعرفون هذا القصص قبل مجيئهم الى مصر لتركوا اثرا منه هنا واغلب الظن انهم تعلموه اثناء فترة النفى فى بابل . انظر صفحة ٢٤٦ . (المرجع) .

وبيئنا النواة القديمة للتوراة الاسرائيلية كانت تنمو فى شكلها الحالى
أضيف اليها أجزاء أخرى • فأولا جاء الجمع التاريخى الكبير الذى قام
به ما يعرف باسم مؤلف سفر التثنية ، وهو عالم متدين جدا ، برع غالبا
قبيل نهاية القرن السابع ق • م • وقد جمع هذا المؤلف كمية ضخمة
من المادة العلمية وبدأ بسفر التثنية (الذى نقل فيما بعد من مجموعته
ووضع مع الاسفار الموسوية اذ هو ، طبقا لمحتوياته ، ينتمى اليها) ،
وينتهى بالملوك الثانى ، وكل هذه الوثائق التى لا تقدر بثمن نسخت أو
اختصرت بعناية فائقة ، وبعضها كتب كلمة كلمة • ويتخلل كتاب مؤلف
سفر التثنية اضافات مبعثرة وتعليقات بخطه كتبت بأسلوب متميز جدا
يشبه الاجزاء النثرية من أرميا ورسائل لخيش فى بعض النواحي
الهامة • ويمتاز هذا الاسلوب بأنه خطابى الى درجة كبيرة ولكن يغلب
عليه الموضح التام ، على الرغم من نحوه المعقد • وتعكس محتويات
الاضافات التى كتبها مؤلف سفر التثنية النظرة التنبئية عن الصلة
الوثيقة بين الخطيئة والعقاب ، وكذلك شعور المؤلف بالمصير المسلط على
رموس العباد •

وبعد مرور قرنين تقريبا على العمل التاريخى لمؤلف سفر التثنية
جاءت المجموعة التى وضعها مؤلف « أخبار الايام » ، وهى مكونة من
أخبار الايام الاول ، وأخبار الايام الثانى (Paralipomena) ، عزرا
ونحميا • ونجد هنا أيضا عناية مضمينة وانتاجا دقيقا لمادة الجامع ،
الذى اتبع مصادر مثل كتاب التكوين ، صموئيل والملوك ، وكذلك
مذكرات عزرا ، ونحميا • وبقية مادة مؤرخ أخبار الايام جاءت من
وثائق أقدم مدونة ومن الرواية الشفوية ، ومن المدهش حقا أن هذه
المادة المضافة على نمط واحد فى الاسلوب واللغة ، وتبين تأثيرا أراميا
قويا على العبرية المنمقة التى تبين أصل مدرسى • زد على ذلك
أن هذه المادة الاضافية تتفق فى الاسلوب واللغة وبعض النواحي
الخاصة ، مع مذكرات عزرا المكتوبة على لسان المتكلم • واستنتج
البعض من هذه الحقيقة (مثال ذلك س • س • تورى) أن مذكرات
عزرا متأخرة وليست أصلية (أبو كريفا) ، بينما استنتج البعض
الآخر (ومنهم المؤلف الحالى) أن عزرا نفسه هو كاتبها • والحقيقة
أن كل الاعتراضات المادية تقريبا للرأى الاخير ثبت عدم صحتها ، أو
أنها فى الطريق الى دحضها بواسطة الاكتشافات الحديثة •

وقد وزعت الرواية المدرسية القديمة الادب الشعري للعهد القديم على جميع مراحل التاريخ اليهودى تقريبا ، بينما كان علماء النقد الحديث يميلون الى تاريخ معظمه (فيما عدا نواة الاسفار النبوية القديمة) الى عصر ما بعد — النفى • وتنتج الاكتشافات الاثرية الى تكيف كل من الاتجاهين المتطرفين ، كما سنوضح ذلك فيما بعد بأمثلة معينة • فعلى ضوء المخلفات الاوغاريثية عن الادب الدينى الكتعانى ، يجب أن ينقل عدد كبير من المزامير الى الورا ، أى الى أوائل الازمنة الاسرائيلية فى القرن العاشر على أكثر تقدير • وعلى هذا الاساس لا يوجد ما يدعو لرفض تاريخ داودى لهذه المزامير • ومن غير المحتمل فى نفس الوقت أن يخفض تاريخ أى واحد منها الى ما بعد القرن الرابع قبل الميلاد • والزعم القائل أن ثمة مزامير مكابية مؤرخة من القرن الثانى قبل الميلاد أو أوائل القرن الاول قبل الميلاد قد أصبح الان بعيدا كل البعد عن الصواب • وهذا الوضع نفسه نجده فى الامثال فاكتشاف مجموعات أمثال مصرية وسومرية من الالف الثالث قبل الميلاد جعلت قدم هذه الامثال أمرا محتملا ، بينما يوحى التشابه الموجود بينها وبين الادب المصرى والاكادى والكتعانى المتأخر (١) بأن الجزء الاكبر من التوراة ينتمى الى عصور — ما قبل — النفى • ومن ناحية أخرى يوجد الان سبب أضعف من أى وقت لتأريخ أيوب والجامعة قبل القرون السادس والخامس ، والثالث قبل الميلاد على التوالى •

سنتح الفرصة فى الفصول السابقة لان نذكر أمثلة عديدة لاتفاق الحقائق التى كشفت عنها الاثار الفلسطينية مع نقط خاصة فى تاريخ التوراة • كما أشرنا أيضا الى قوة المقابلة العامة بين الدلائل الاثرية والادبية • ونظرا لندرة النقوش الفلسطينية المبكرة ، فلا بد من تركيز اهتمامنا على أدلة ذات طبيعة أثرية بحثة • ومن الخدمات الرئيسية التى قدمها الاثرى الى عالم التوراة هو التعرف على المواقع الحديثة للبلاد القديمة المذكورة فى العهد القديم • ومما سهل هذا فى بعض الاحايين وحدة الاسماء القديمة والجديدة ، والتى تؤيدها المقابلة الموجودة بين التاريخ الاثرى والادبى لنفس الموقع ، والمثل الواضح

(١) ما يدعيه المؤلف من أن الادب المصرى والكتعانى والاكادى متأخر غير صحيح فالثابت أن بعض القصص يرجع الى عصور سحيقة فى القدم تسبق التوراة بقرون عديدة ولذا فعبارة غير واضحة . [المترجمان]

لخطوط الأدلة المتتالية هو موضوع جازر فقد تعرف كثير
 مونت - جانو Clermont-Ganneau (الفصل الثانى) على جازر
 التوراة فى تل جازر الحديث على أساس قوة الاسم الذى وجد أنه لا
 يزال محفوظا حتى الان ، وقد سبق أن سجل فى كتاب عربى من القرن
 الخامس عشر الميلادى • ثم اكتشفت بعد ذلك بوقت قصير عدة نقوش
 حفرت حفرا غائرا فى الصخر خارج المدينة القديمة ، وعليها الكلمتان
 الاراميتان « حدود جازر » مكتوبة بحروف من القرن الاول قبل
 الميلاد • وتؤيد حفائر مكاليستر التالية التى يمكن الان تأريخ نتائجها
 تأريخا أدق مما كان ممكنا عند وقت الحفائر ، اكتشف كلير
 مونت جانو تأييدا كاملا • بل أحدث من ذلك هو التعرف على لخيش
 فى تل الدوير ، الذى اقترح بعد مطابقة مادة التوراة وكتابات
 يوسيبوس فى القرن الرابع الميلادى ، على نتائج دراسة سطح الموقع ،
 والذى أيدته حفائر ستاركى تأييدا مدهشا • والاستراكا التى نشرها
 تورشينار Torczynyer تذكر البلد فى متن يجبرنا فعلا على تحديد
 موقع لخيش فى تل الدوير ، ولكن هذا التحديد مؤكد حتى بدون هذا
 الدليل الكتابى •

وقد أمكن أيضا تحديد مواقع أثرية عديدة أخرى دون أدنى دليل من
 النقوش • فمثلا فى سنة ١٩٢٨ اكتشف جارستانج بلدة الجليل القديمة
 حاصور فى تل القاضى جنوب بحيرة الحولة Semechonitis بعد ماكد
 فى البحث عنها عدد من العلماء ، ومنهم المؤلف لمدة سنوات دون
 جدوى • ومكانها الأثرى يتفق اتفاقا تاما مع الدلائل الطبوغرافية من
 التوراة والمصادر الكتابية الأخرى ، ولا يوجد أى مكان آخر محتمل
 لحاصور • ولذا ليس من المستغرب ان كل طالب كفاء رغب فى الحال
 بالتعرف على انه نهائى • وكثيرا من المواقع التى سبق التعرف عليها قد
 أجريت فيها بعد ذلك أعمال تنقيب أيدت التعرف تأييدا تاما • ومن
 الأمثلة التى كان المؤلف على صلة بها فى عمله ، هى شيلوه وجبعة
 ساؤول (تل الفول) وبيت ايل ، وبيت زور حيث ثبت أن تاريخ
 الموقع الأثرى يتفق اتفاقا تاما مع الأدلة المستمدة من التوراة
 ويوسيبوس • وقد ازدهرت شيلوه فى عصر القضاة ثم هجرت بعد
 لحريق التى دمرها فى وقت لا يتأخر كثيرا عن منتصف القرن الحادى
 عشر قبل الميلاد • وهذا التدمير يتفق مع الحوادث التى فكرت فى

صموئيل الاول • وبعد تدمير فلسطين ، بقيت شيلوه خربة قرونا عديدة كما ذكر ذلك مرارا في ارميا • وقد سكنت جبعة أثناء عصر القضاة ودمرتها التيران على الاقل مرة واحدة في ذلك الوقت ، كما روى في القضاة : ٢٠ ، وقد بلغت ذروة ازدهارها في العصر الذي تلا تدمير شيلوه مباشرة عندما توجت قمة التل بقلعة متينة البنيان تؤرخ من عصر شاؤل الذي سكن هناك حسب رواية التوراة • وقد أعرب علماء مختلفون عن شكهم في أن بيت ايل هي بلدة بيت الدين Beitin الجديدة على الرغم من اتفاق الموقع الجديد اتفاقا تاما مع كل المستلزمات غير الاثرية ، لانه لا يوجد على ما يبدو أى أدلة أثرية على سكنها منذ وقت مبكر ، وعلى العموم ، فقد أثبتت أعمال التنقيب أن التاريخ الاثرى لبيت الدين يتفق مع الأدلة الادبية من بيت ايل اتفاقا كاملا منذ أيام يشوع حتى أيام فسباسيان Vespasian وفي خربة الطبايقة ، شمال حبرون ، حيث حدد عدد من العلماء ، كل على حدة ، مكان بيت زور ، كشفت أعمال التنقيب عن اتفاق كامل مع بيانات المكابيين الاول • والمؤلف كان مديرا أو مستشارا أثريا للبعثات التى نقبت فى الاربع مدن الاخيرة التى ذكرناها ، ومن الطبيعى أن تترك نتائج هذه التنقيبات أثرا فى نفسه لا يمحى ، وهو أثر أيدته اكتشافات الاثريين الآخرين التى لا حصر لها • والحقائق التاريخية فى التوراة دقيقة الى درجة تفوق كثيرا آراء طلاب النقد المحدثين ، الذين كانوا دائما عرضة للوقوع فى الخطأ بسبب تطرفهم فى النقد •

وبفضل التحديد الاثرى لمواقع معظم الاماكن المقدسة ، فمن الممكن اثبات عمر قوائم عديدة للبلاد فى التوراة وأهميتها الاثرية • ومن خير الامثلة على ذلك قائمة مدن الهلال الخصيب فى يشوع : ٢١ والاخبار الاول : ٦ ، التى اعتبرها فلهاوسن ، وتبعه فى ذلك معظم النقاد الذين جاءوا بعده ، انتاج مصطنع من خيال أحد كتاب عصر ما — بعد النفى • وقد أكدت دون شك الدراسة الدقيقة لكل الحقائق الاثرية المعروفة ، ان القائمة أقدم كثيرا وأن الزمن الوحيد الذى كانت فيه كل البلاد المذكورة فى القائمة فى أيدى بني اسرائيل كان ذلك فى عهد داود وسليمان ، ولم يمكن اثبات ان مدينة واحدة من مدن القائمة كانت قد تأسست فى عصر يلى منتصف القرن العاشر قبل الميلاد ، ولو ان عددا منها لا يمكن أن يسبق هذا التاريخ بوقت طويل ،

ويمكن أن يحدد تاريخا يقع بين ٩٧٥ و ٩٥٠ ق م تقريبا للنسخة الموجودة من القائمة التي كان لها ، على ما يظهر ، تاريخ قديم ، يمتد حتى الغزو •

وآثار فلسطين قلما تساعدنا في القاء ضوء مباشر على شخصيات التوراة ، ويرجع ذلك على وجه أخص الى ندرة النقوش • وفي الواقع ذكرت شخصيات من التوراة في النقوش التي عثر عليها خارج فلسطين أكثر مما ذكرت في الوثائق التي عثر عليها في فلسطين ، وان كان يوجد ضوء كثير غير مباشر • فقد أصبح من الميسور الان تقدير تاريخ حياة آل يعقوب (الاباء) ، ويشوع وجدعون وشمشون وصموئيل ، وشاؤل ، وداود وسليمان عما كان عليه في الماضي • والضوء البسيط الآن على أعمال البناء التي قام بها شاؤل وداود ، والمعلومات الجديدة الغزيرة الخاصة بمباني سليمان (الفصل السادس) هي عون لنا ، نحن بحاجة اليه ، لفهم تطور الحضارة المدنية الاسرائيلية تحت حكم هؤلاء الحكام لاسرائيل المتحدة الذين صاروا بذلك أشخاصا لهم كيان أكثر مما كانوا في الماضي • وقد صارت حوادث الاسرة العمرية (آل عمران) وعصر يربعام الثاني أكثر وضوحا الان اذ نعرف ما كانت عليه حضارة السامرة في أيامهم • وهذا ينطبق أيضا على أيام عزيا وحزقيا في يهوذا • ونهاية مملكة يهوذا قد صار واضحا بفضل اكتشافات لخيش وثل بيت مرسيم وغيرهما من المواقع ، حتى ان العلماء الاكفاء لا يمكن أن يخطئوا الان خطأ كبيرا في ترجمة حياة ارميا وأيامه •

سنحت لنا الفرصة في الفصلين الخامس والثامن أن نذكر الاكتشافات المثيرة للنصوص الادبية الكنعانية التي عثر عليها في أوغاريت (رأس الشمرا) على ساحل سوريا الشمالي • تقع أوغاريت عند النهاية الشمالية لكتعان ، التي كانت تشمل كل غرب فلسطين ، وكان أهلها يتكلمون لهجة كنعانية ، وكتابهم ينسخون الملاحم الكنعانية ، التي تدور حول الاعمال الخرافية للالهين بعل وعنت ، وحول المغامرات الاسطورية للبطلين كرت واقحات (ابن دانيال المذكور في حزقيال : ١٤ و ١٨ بين نوح وأيوب على انه أحد أحكم الحكماء القدامى) • يمكن أن يظهر من محتويات كل هذه الملاحم أنها نشأت في قلب الحضارة الكنعانية ، أي في شينيقية ، ولا بد انها عرفت أيضا في البلدان

الكنعانية بفلسطين حوالى ١٤٠٠ ق.م. مثلما كانت معروفة في أوغاريت ، والنقوش الفينيقية من جيبيل في القرن العاشر قبل الميلاد تذخر بالذكريات الادبية لهذا الادب الملحمي .

النصوص الدينية من أوغاريت كان قد كشفها كلها تقريبا س . ف .
أ . شيفر Schaeffer بين ١٩٢٩ و ١٩٣٣ ، ومنذ ذلك التاريخ لم يعثر على
أى ألواح ذات طبيعة دينية الا نادرا . وقد لاحظ في الحال شارلز
فيرولود C. Virolleaud الذى نشر هذه الوثائق ، أمثلة عديدة للتماثل
الموجود بين الاسلوب والمتن الادبى الاوغاريتى والعبرانى ، ولكن فى
عام ١٩٣٦ فقط أبدى ه . ل جينزبرج H. Ginsberg بعض ملاحظات
عن العناصر التكوينية المشتركة كان لها تأثير واسع . فقد بين ان فى
الشعر العبرى نجد أحيانا صيغة مميزة جدا تكررت فى الادب
الاوغاريتى ، أ - ب - ج - د : أ - ب - د ، التى يمثل كل حرف فيها كلمة
مستقلة ، أو كلمتين قصيرتين ، وقد كررت الكلمتان الاولتان فى النصف
الثانى من البيت الشعرى . وللسهولة يمكن أن نطلق على كل نصف
بيت شطرا وكل بيت شطرين ، والاصطلاحان stich و distich)
أو hemistich و stich استعملت للدلالة على نفس وحدات الشعر .
وقد بين جينزبرج أيضا أن هذه الصيغة الاصلية كانت تمتد
عادة فى كل من الادبين الى ثلاث سطور ، كانت تختلف فيها صيغ التكرار
الى حد ما . والشعر الكنعانى كان فى الاصل يعتمد على النبرة ، أى أنه
كان يتكون من أربع أو خمس أو ست تفاعيل كل منها منبورة . وهناك ما
يدعو للاعتقاد بأن الحروف الساكنة كانت فى الاصل أيضا تعد ، ولكن
الدلة غير كافية ، وان كنا متأكدين تمام التأكد ان الحروف الساكنة
غير المنبورة لم تكن تعد فى الشعر العبرى الكلاسيكى . ومن أجود
الامثلة لهذه الصيغة الاسلوبية الخاصة وفى نفس الوقت من خير
الاثباتات عن استمرار العناصر الادبية الكنعانية فى الادب العبرى ثلاثة
شطور من لوح من ملحمة بعل ، التى تصف المعركة بين اله العاصفة
ووحشى البحر يام (الذى يظهر أيضا فى الشعر العبرى) :

هوذا ، أعداؤك ، يا بعل

هوذا ، أعداؤك يبيدون

هوذا ، أنت تقضى على أعدائك .

وفى مزمور ٩٢ تتكرر هذه الفقرة مع تغيير بسيط كالآتى :

هوذا ، أعداؤك يارب

هوذا ، أعداؤك يبيدون

كل فاعلى الاثم يتبددون •

والثلاث شطور تظهر فى ملحمة اقحات (دانيال) مرارا ، ومن خير الامثلة ما يأتى :

هل تسأل عن الحياة ، أيها الولد اقحات ؟

هل تسأل عن الحياة ، وسأهبها لك

حياة أبدية ، وسأمنحها لك •

ووجدنا فنون أسلوبية مشابهة فى نشيد دبورة القضاة : ٥ ، ٣٠

غنيمة ثياب مصبوغة لسييرا

غنيمة ثياب مصبوغة مطرزة •

مصبوغة ومطرزة من أعناق الغنمان (١) •

ومدى اختلاف الاساليب فى هذا النوع من صيغ الشعر كبير جدا ، ولكن التكرار الایقاعى للكلمات شائع لدى الجميع ، ونعرف الان انه كان شديد الانتشار فى الشعر الاسرائيلى خلال القرنين الثالث عشر والثانى عشر ق • م • ولكن سرعان ما أهمل بعد ذلك ، ثم ترك نهائيا فى القرن العاشر ، الا فى حالة استخدام قصائد كنعانية قديمة لاغراض اسرائيلية أو حيث أعيد استعمال أبيات أو فقرات شعرية فردية فى الشعر تقليدا للقديم • والازدواج (٢) هو من خصائص نشيد مريم (الخروج ١٥) الخاص بخروج بنى اسرائيل من مصر (٣) ، وفى نشيد دبورة المتصل اتصالا وثيقا بالموضوع نجد وصفا لانتصار اسرائيل على سييرا قبيل القرن الثامن عشر • وفى هذين النشيدين نجد ازديادا فى الازدواج فاق كل ما وجد حتى الان فى

(١) فى النسخة العربية ترجم الشطر الاخير على الوجه الآتى :

« ثياب مصبوغة مطرزة الوجهين غنيمة لعنقى » . المترجم

(٢) الازدواج : الاتيان بعبارات مترادفة جنبا الى جنب . المترجم •

(٣) قصة خروج بنى اسرائيل من مصر المذكورة فى القرآن . المترجم •

الادب الاوغاريتي أو في الشعر الاسرائيلي المتأخر (باستثناء مزمو
٢٩ ومزمو حبقوق الذي اتبع فيه الاسلوب القديم) . وهذه الحال لا
يمكن أن تكون محض صدفة ، وخاصة أن الاسلوب الادبي لقصيدة
النصر ، التي تحتفل بانتصار حربي ، كان في ذروة شعبيته في العصور
القديمة ، والامثلة غير الاسرائيلية من هذا العصر هي القصائد المصرية
التي تصف انتصار رمسيس الثاني على الحيثيين ، ثم قصائد انتصار ابنه
منفتاح على الليبيين والاسرائيليين ، وانتصار رمسيس الثالث على شعوب
البحار ، وكذلك قصيدة النصر الكبيرة للملك الاشوري توكولتي - نينورتا الأول
تخليدا لانتصاره على البابليين . ولو كان لدينا قصائد نصر كنعانية
أصيلة من نفس القرنين الثامن عشر والثالث عشر لوجدنا بكل تأكيد
ازديادا مماثلا في الازدواج .

وفي هذه المناسبة فمن المفيد ان نبين أن نشيد دبورة ينسبه كل علماء
النقد عادة الى الفترة الاولى من عصر القضاة ، على حين أن نشيد
مريم ، رغم شدة التشابه في الاسلوب بينه وبين النشيد السابق يعتبر
متأخرا عنه كثيرا حتى ان جزءا منه ينسب الى عصر ما بعد النفي .
ويرجع هذا التاريخ المتأخر الى حد كبير الى ما ذكر في الخروج ١٥ :
١٧ عن جبل ميراثك « على انه مكان سكن يهوه على الارض » . فليس
غريبا اذن أن يؤخذ هذا التعبير على انه اشارة الى جبل صهيون وهيك
سليمان (أو زر بابل) . ولكن مما يناقض هذا الجدل المقتنع أن بيت
بعل في الملحمة الكنعانية ، التي ألقت قبل عام ١٤٠٠ قبل الميلاد ، قيل
أيضا انه كان على « جبل ميراثك » . ونتيجة لهذا ، ولغيره من
الحقائق المشابهة ، لا يوجد سبب واحد صحيح لتأريخ نشيد مريم الى ما
بعد القرن الثالث عشر قبل الميلاد . وهذا بالطبع لا يعني أن كل عبارة
أو بيت هي من نفس القدم حيث ان هذه القصائد القديمة رويت أجيالا
عديدة بواسطة الكلام الشفوي .

وثررة الادلة الكنعانية الجديدة على الكلمات أو العبارات النادرة
والقديمة في عبرية التوراة مذهلة ، وهذه تساعد اللغويين تدريجيا على
ايضاح كثير من المسائل الغامضة التي حيرت المترجمين منذ زمن أوائل
المترجمين الاغريق في القرنين الثالث والثاني قبل الميلاد . هاك بعض
الامثلة في مزمو ٦٨ : ٤ يوجد التعبير الغريب الذي كان يترجم عادة

ترجمة حرفية هكذا « الراكب على المغارب » (١) أو حسب تخمين معقول « الراكب على السماوات » . وهذه العبارة تتكرر مرارا في اللغة الاوغاريتية مع اختلاف بسيط جدا في الحرف الساكن من الهجائية العبرية المتواترة هكذا : « الراكب على السحب » مشيرا بذلك الى اله العاصفة بعل . وقد أطلقت هذه التسمية الجميلة في الشعر العبرى على يهوه ، دون أن تحمل معها أى معنى من القصة الخرافية . وفى مزمور ١٩ : ١٩ نجد الترجمة الاتية فى التوراة : « جعلت عونا على قوى ، رفعت مختارا من بين الشعب » ، بينما تثبت الوقائع الاوغاريتية أنه يجب أن يترجم كالآتى : لقد عينت فتى على الرجل القوى ، ورفعت شابا على الشعب « ويدل سياق الكلام على أن المقصود هو داود .

وثمة كلمات جديدة كثيرة يجب ضمها الان الى القواميس العبرية التى ستمعمل فى المستقبل من بينها الكلمة الدالة على « الترجيح » : الذى تعرف عليها أولا هـ . ل . جينزبرج Ginsberg . والان ربطت مع كلمة تظهر فى كل من الادب الاوغاريتى والحثى . أمثال ٢٦ : ٢٣ فى ترجمة التوراة المعترف بها : « فضة زغل تغشى شقفة هكذا الشفتان المتوقدتان والقلب الشرير » ، وهو تعبير يستحيل فهمه من الناحية الاثرية الى جانب غموض معنى كلماته ، ويجب أن نترجمه الان كما يلى : « ترجيح متيبس على فخار هكذا الشفتان اللساوان والقلب الشرير » . وتعبر آخر غير مفهوم حتى الآن فى الامثال (٢١ : ٩ و ٢٥ : ٢٤ « بيت حبر » فى الترجمة الانجليزية « بيت كبير » (فى الترجمة العربية) بيت مشترك « فى اللغتين الاوغاريتية والاشورية يوجد هذا التعبير ، ونطقه الصحيح « بيت خوبرى » ، وقد كان يترجم « بيت الخزين » ولكن نصا للملك الاشورى القديم اريشوم نشره لاندزبرجر Landsberger أثبت الان أن معناه خمار ، أو بيت الخمر أو البيرة » (٢) . ومن ثم يصير معنى شعر التوراة : « السكى فى ركن سطح خير من العيش مع امرأة صاحبة فى خمار » — المعنى المراد واضح .

(١) فى الترجمة العربية للتوراة : « الراكب فى القفار » . المترجم .
(٢) خوبرى اذا كتبت بالطريقة العربية الحديثة المختصرة تصبح خبر والياء انقلبت ميما ، فتصبح هى نفس الكلمة العربية خمر وخمر . المترجم .

وقد ألقى الضوء على مئات من الكلمات الأخرى ، بما فى ذلك الكلمات التى أمكن استنتاج معانيها ، دون امكن اثبات ذلك ، وكذلك على كلمات كثيرة لا تزال معانيها مشكوكا فيها ، ومن الامثلة الواضحة أشعياء ٢٧ :

حيث تعطى ترجمة التوراة المعترف بها : « فى ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسى والعظيم الشديد لويathan الحية النفاذة حتى لويathan ، تلك الحية العاقة ^(١) ويقتل التنين الذى فى البحر » . ملحمة بعل فى أوغاريت تدعو لويathan (لوتان) بالافعى ، مستعملة تماما نفس الصفات التى ترجمت أعلاه « نفاذة وعاقة » ، والهجائية والمعنى. الجديدان اللذان وجدت فيهما هاتان الكلمتان تساعدان كثيرا على تفسيرهما ، كما يشير هذا الشعر أيضا الى التنين فى البحر ، ونفس هذا الوحش قد ذكر فى النصوص الاوغاريثية .

وفى أحيان أخرى تؤيد الادلة الجديدة الترجمة القديمة ضد التجديدات التخمينية الحديثة فمثلا فى التكوين (١) : ٢ فالكلمات « وروح الله يرف (فى النص الانجليزى يتحرك) على وجه المياه ، حاول بعض العلماء المحدثين أن يفسروها على أن « ريحا عاتية » حرفيا ريحا الهيا « هب على مياه المحيط الأزلى » ، بينما علماء آخرون اعتمدوا فى تفسيراتهم على الخرافات الفينيقية ، ترجموها وروح الله رخم (مثل الطير الراخم) على المياه (لتفقس الحياة من الهيولى » . وفقرات عديدة من ملحمة أقحاح تؤيد بوضوح المعنى المقترح من التثنية ٣٣ - ١١ « يحوم بجناحيه كالنسر » ^(٢) . ومن هذا أصبح من المؤكد أنه يجب أن نعرب التكوين ١ : ٢ وروح الله يرف على وجه المياه » .

وكما هو الحال فى كثير من الاكتشافات الاثرية المثيرة الأخرى ، ففى بادىء الامر غالى بعض الثقافة الممتازين فى الاهمية التاريخية لهذه المادة الجديدة وكانوا يعتقدون أن الادب الاوغاريثى قد ألقى ضوءا مباشرا على بداية تاريخ اسرائيل وعلى عصر آل يعقوب . واسم تارح أبو ابراهيم وكذلك أشخاص غيرهم فى التكوين أخطىء فى الكشف عنهم فى

(١) النص الانجليزى يختلف اختلافا بسيطا عن النص العربى . المترجم .

(٢) فى النص العربى للتوراة : كما يحرك النسر عشه وعلى فراخه يرف ويبسط جناحيه ويأخذها ويحملها على مناكبه . المترجم .

الوثائق الجديدة الغامضة • وقد ظن أن بداية تاريخ كتعان قد تداخل بصورة ما مع تاريخ بني إسرائيل المبكر وان قصص آل يعقوب فى التكوين وحكايات أوغاريت هى فى بعض أجزائها نسخ مختلفة من نفس الحكم الاصلية ، وهذه الاراء غير الناضجة قبلها كتاب كثيرون ، كما وجدت طريقها الى كتب يكثر تداولها • أما الان فقد تركها فى الواقع كل طلاب الادب الاوغاريتى ، نظرا لانهم لم يستطيعوا تتبع معلوماتنا التى تتزايد بسرعة عن قواعد هذه اللهجة الكنعانية الجديدة ومعجمها • وان كان سيمر وقت طويل قبل أن تمحى الاثار الباقية لامثال تلك الشوارد من الكتب الحديثة المتداولة انتى تعالج تاريخ التوراة •

ومن ناحية أخرى ، فالاكتشافات العظيمة التى قام بها أندرية باروت André Parrot فى مارى فى أواسط الفرات (الفصل الخامس) منذ ١٩٣٥ ، هى على وشك تزويدنا بأخبار حقيقية عن عصر آل يعقوب وألواح مارى هذه وما يكملها من اكتشافات معاصرة أو متأخرة عنها التى قام بها مالالوان Mallowan فى جيكي بزار فى شمال غرب بلاد الرافدين والتى قام بها شييرا Chiera وغيره فى نوزى (يورغان ثبة) فى شمال شرق بلاد الرافدين ، ستوضح كل نواحي العصر الذى نتحدث عنه • ويتولى دوسن Dossin وجين Jean نشر الالاف من ألواح مارى • وكل كتاب جديد ينشر يساعدنا على تفهم حياة وأزمة آل يعقوب • فابراهيم واسحاق ويعقوب لا يظهرون الان كأفراد معزولة أو انعكاسات ضعيفة للتاريخ العبرى المتأخر ، بل هم يظهرون الان كأبناء حقيقيين لعصرهم ، يحملون نفس الاسماء ، ويجوبون نفس البقاع ، ويزورون نفس البلاد ، خاصة حاران وناحور ، ويمارسون نفس العادات مثل معاصريهم • وبمعنى آخر نقصص آل يعقوب يعتمد على نواة تاريخية فى كل أجزائه ، وان كان من المحتمل أن الرواية الشفوية طوال أجيال عديدة للقصاص الاصلية والحكم النثرية المتأخرة التى تكون أساس النص الحالى للتكوين قد كانت سببا فى تحريف الحوادث الاصلية تحريفا كبيرا • وهذه الطريقة وهى رواية الحوادث القديمة شفويا من جيل الى جيل أدت الى ضياع كثير من التفاصيل التى قد تهم المؤرخ الحديث ، ولكنها فى الوقت نفسه قد أعادت صياغة الرواية فى صورة درامية ، مؤكدة القيم الدينية والتعليمية بها • وهذا الكسب يفوق كثيرا أى خسارة محتملة •

ومثل جدير جدا بالاعتبار يبدو أنه الفصل الرابع عشر الغامض من سفر التكوين الذى يصف انتصار ابرام (ابراهيم) على ملوك بلاد الرافدين وعلى رأسهم كدر لعومر ملك عيلام • ومنذ جيل مضى كان معظم النقاد يعتبرون هذا الفصل متأخرا جدا ، ولا يوجد له أى سند تاريخى اطلاقا • أما الان ، فلا يمكننا قبول مثل هذا الحل السهل للخروج من المعضلات التى يقدمها هذا الفصل منذ أن كانت بعض تورياته صحيحة فى القدم ، اذ تنقلنا مباشرة الى عصر البرونز الوسيط • فمثلا الكلمة العربية الدالة على « الاتباع » : المستعملة فى البيت ١٤ ، والتى لم تتكرر مرة ثانية فى أى مكان آخر فى التوراة ، يعرف الآن أنها كلمة مصرية استعملت فى نصوص اللغة من أواخر القرن التاسع عشر قبل الميلاد للدلالة على « اتباع » رؤساء العشائر الفلسطينيين ، واستعملت فى نفس المعنى بعد أربعة قرون فى احدى ألواح طاناش (تاعانكا ، تعنك) وعدد من المدن المذكورة فى هذا الفصل ثبت الآن أنها شديدة القدم ، والكلمات والتعبيرات الشعرية القديمة التى يذخر بها الفصل هى دلالات واضحة على صيغ شعرية قديمة كانت أساسا للنص الحالى •

ومثل آخر هو قصة الخروج التى أدت أهميتها الدائمة الى روايتها قرونا فى صيغ شعرية ونثرية ، وقد جددت وحرفت أثناء ذلك ورغم هذا فقد بقيت قصة التوراة فى صلبها تاريخية • فمثلا بعثة جامعة كاليفورنيا الى سيناء فى عام ١٩٤٧ - ١٩٤٨ التى اشترك فيها المؤلف أثبتت تفاصيل جغرافية كانت دائمة تتكرر وبالمثل ، فقد أثبتت دراسة المؤلف لقائمة هيز Hayes عن الاسرى الاسويين فى سنة ١٩٥٤ ، أنه حتى مثل تلك النقاط التافهة مثل أسماء القابلات (الخروج ١ : ١٥) كانت صحيحة فى القرون الوسطى من الالف الثانية ، بالرغم من التأكيد السابق على عكس ذلك •

الفصل الحادى عشر

العهد الجديد والاثار

ان تطبيق نتائج الابحاث الاثرية فى فلسطين على العهد الجديد لاشد صعوبة عنه فى حالة العهد القديم * فبينما جزء كبير من محتويات الكتب التاريخية من العهد القديم قوامى فى نظره ، اشترك فى الحوادث التى رويت فى العهد الجديد ، كقاعدة ، فقط فئة صغيرة من افراد غير رسميين * كما أن تأثير علم الاثار على دراسات العهد الجديد لا يبدو واضحا ايضا ، لان معلوماتنا عن العصر اليونانى - الرومانى من تاريخ البحر المتوسط احسن نسبيا من المرحلة الشرقية القديمة السابقة لها قبل بدء اعمال التنقيب الحديثة * وعلى الرغم من ذلك فلاثار فى هذه المرحلة من تاريخ التوراة اهمية عظمى لا تزال تنمو سنة بعد اخرى *

لا يوجد اى مؤلف من العصر اليونانى - الرومانى القديم مدعم بالوثائق مثل العهد الجديد ، اذ توجد وثائق مبكرة عديدة للعهد الجديد اكثر مما يوجد لاي مؤلف كلاسيكى آخر ، واقدم بقايا كبيرة منها تؤرخ حوالى قرنين فقط بعد التأليف الاصلى لها * والمخطوط الوحيد للعهد الجديد الاغريقى الذى يسبق القرن الخامس او السادس الميلادى الذى عرف بوجوده منذ قرن مضى هى وثيقة الفاتيكان (Codex Vaticanus) وهو نص مكتوب على رق محفوظ فى مكتبة الفاتيكان ، ولكن فى ذلك الحين كان يستحيل على العلماء الوصول اليه ، ونادرا ما استعمله نقاد النص على الاطلاق * وفى ١٨٥٩ اكتشف العالم الالمانى قنسطنتين تيشندورف C. Tischendorf وثيقة مكتوبة على ورق من نفس التاريخ القديم فى دير سانت كاترين بسيينا ، وقد امكنه الاستحواذ على هذا النص الثمين لحساب قيصر روسيا (١) * وفى ١٩٣٣ اشترت الحكومة

(١) هذا مثل واضح يبين كيف عمد الاوربيون الى سرقة كل الوثائق الهامة من بلادنا . المترجم .

البريطانية وثيقة سيناء هذه (Codex Sinaiticus) التي أصبحت أهم كنز في المتحف البريطاني ، الذي يحتوى الآن على اثنين من أهم ثلاث مخطوطات للإنجيل الإغريقي في العالم (والثاني هو وثيقة الاسكندرية Codex Alexandrinus من القرن الخامس) * ونظرا لانهما مؤرخان من النصف الاول من القرن الرابع الميلادي ، فوثيقة الفاتيكان ووثيقة سيناء تمثلان الآن اقيم مصدرين في الوجود لنص العهد الجديد .

وبعد حوالي سبعين عاما من اكتشاف وثيقة سيناء ، اعلن في ١٩٣١ عن كشف لا يقل اهمية عن الكشف السابق : اوراق بردي للعهد الجديد ضمن مجموعة شستريبيتي ، حوالي ١٢٦ ورقة غير كاملة تنتمي الى اسفار العهد الجديد وجدت مشتملات هذه المجموعة ، وجميعها قد نسبها سر فردريك كتيون F. Kenyon وزملاؤه الى أوقات مختلفة من القرن الثالث الميلادي * ويعتقد ان جذاذات الانجيل ترجع الى النصف الاول من نفس القرن * وفي ١٩٣٥ نشر س. ه. روبرتس C. Roberts جذاذات من بردية من انجيل يوحنا الذي كان قد وجده ضمن كنز مكتبة جون ريلاندس في منشستر ، وعلى الرغم من انها قصاصة ، فلها اهمية قصوى ، لانها كتبت بخط ينسب الى عصر تراجان او على وجه اكثر احتمالا الى هديران (توفي سنة ١٣٥ م) * وفي نفس السنة نشر هذا هـ . ي . بل H. I. Bell ، و . ت . سكيت Skeat جذاذة كبيرة من بردية بالمتحف البريطاني تحتوى على جزء صغير من قصة حياة السيد المسيح معتمدة على الانجيل الاربعة جميعا ، بما في ذلك انجيل يوحنا * وقد عالج المؤلف الاصلى مصادره بحرية اكثر عما كان يعتبر مسموحا به من الموفقيين المتأخرين ، مثل تاتيان Tatian ، الذي كتب في أواخر القرن الثامن (جزءا من رق عن « توافق الانجيل الاربعة » ، من اوائل القرن الثالث الميلادي ، عثر عليها س . هـ . كريلفج في دورا ونشرها أيضا في ١٩٣٥) * والذي يثبت التاريخ المبكر لنسخة التوافق المحفوظة بالمتحف البريطاني خطها الذي يرجعه المتخصصون الاكفاء الى النصف الاول من القرن الثاني الميلادي *

وهذه الاكتشافات الهامة قد وجهت الضربة القاضية الى الاراء النقدية المتطرفة للعهد الجديد من امثال تكهنات مدرسة توبنجن Tübingen

التي أسسها ف • س • باور F. Baur ، والمدرسة الهولندية التي يرأسها فان مانن Van Manen وحسب رأى مدرسة توينجن فان أقل من ستة أسفار من العهد الجديد قد كتبت في القرن الاول الميلادي ، أما انجيل يوحنا فقد كتب متأخرا في النصف الثاني من القرن الثاني ، كما انكر فان مانن ، ولومان Loman واتباعهم، صحة كل رسائل بولس التي يرجعونها أيضا الى القرن الثاني • وتاريخ ليوحنا في النصف الاول من القرن الثامن قد ظل شائعا في دوائر التوراة المتطرفة حتى وقت قريب جدا • وقد حدث تحت ضغط الاكتشافات الجديدة ، رد فعل قوى كان له سند مادي فيما ذهب اليه س • س • توري وهو ان انجيل يوحنا هو ترجمة لنص ارامي كتب قبل عام ٧٠ ميلاديا بالتاكيد • ويعتبر الان بعض العلماء المتطرفين (منهم اروين جود — انف El. Goodenough انجيل يوحنا على أنه أقدم الاناجيل بعد ما كان يعتبر آخرها •

سبق ان ناقشنا في الفصل الثامن النظرية القائلة بان مصادر الاناجيل كانت مكتوبة بالارامية بشيء من الاسهاب ، مدللين على ان الادلة الاثرية لا تؤيد هذا الرأي • ومن ناحية أخرى ، أوضحنا ان مسألة المصادر الشفوية الارامية قد قويت بدرجة كبيرة بناء على الابحاث الحديثة • وبعبارة اخرى فروايات الاناجيل قد نشأت في مجتمعات تتكلم الارامية في فلسطين ، ولم تنقل الى اللغة الاغريقية الا بعد تشتت المسيحيين الذين من اصل يهودي من فلسطين خلال الثورة الاولى ٦٦ — ٧٠ ميلادية ، وافترض احدث علماء العهد الجديد انه لم يحدث الا اضطراب بسيط نسبيا في حياة المجتمعات المسيحية في فلسطين نتيجة للثورة الاولى • وقد اثبت علم الآثار عدم صحة هذا الرأي على الاطلاق تماما كما سبق أن وجدنا ان هذا صحيح ايضا عن افتراضات حديثة مشابهة في نتائج الغزو الكلداني ليهودا في اوائل القرن السادس قبل الميلاد (الفصل السادس) • ولما كانت هذه الحقيقة غير معروفة بصفة عامة ، لذا يلزم بعض الايضاح •

فبعد سنوات من جمود متزايد من جانب السكان اليهود في فلسطين تخللتها اضطرابات متكررة كانت تخمد بقسوة ، قامت الثورة الاولى في ٦٦ م • واستمرت أربع سنوات • وخلال هذه الفترة قاسى اليهود

فى الجليل والقدس أكثر من غيرهم منذ ان كان فيهما المركزان الرئيسيان للثورة • ومعظم السكان اليهود الذين نجوا من الموت بيعوا رقيقا • ومما يوضح اكتمال هذا القصص انه لم يعثر حتى الان على مجمع واحد من أوائل العصر الرومانى فى أى جزء من فلسطين • وكل اطلال المجامع المعروفة تنتمى الى نهاية القرن الثامن الميلادى او بعد ذلك (انظر أعلاه فى الفصل السابع) والدمار الذى نشرته الجيوش الرومانية ازاء هذا ، زاد عليه كثيرا السكان الوثنيون الاصليون الذين ذبحوا اليهود ودمروا منازلهم وابنيتهم العامة • وبعد اخماد الثورة الاولى ، ظلت حال اليهود فى غاية من البؤس وانتقل المركز الرئيسى للحياة اليهودية فى فلسطين الى السهل الساحلى حول يافا واللد • وقد افترض فى وقت ما ان اليهود قد عادوا الى بيت المقدس واستمروا فى القيام بشئ من الحياة الاجتماعية هناك ، ولكن الادلة الاثرية تقف ضد هذا الراى تماما • اذ لا يمكن تاريخ مقبرة واحدة من مقابر اليهود العديدة التى نقب فيها فى منطقة القدس الى ما بعد عام ٧٠ تقريبا ميلاديا ، وكل صندوق عظام مكتوب كشف عنه حتى الان بالقرب من بيت المقدس ينتمى الى القرن الاخير من الهيكل الثانى (٣٠ ق م • ٧٠ م •) •

وقد قاسى المسيحيون أكثر مما قاسى بقية السكان اليهود ، نظرا لان جيرانهم الوثنيين قد عاملوهم على أنهم يهود ، كما كرهتهم عشيرتهم لكونهم دعاة سلام وهزيمة ، بالاضافة الى كفرهم أيضا • وفى احدى حوادث انفجار الشعور المرير ضد المسيحية التى اشتعلت خلال السنين التى سبقت الثورة الاولى مباشرة ، قتل يعقوب ، أخو عيسى (١) ، ورئيس الطائفة المسيحية ، فى اورشليم • ومن أكبر الاحتمالات ان غالبية المسيحيين فى اورشليم والمدن الكبيرة فى الجليل حيث اشتدت الروح الوطنية ، هربوا من بيوتهم قبل بداية الثورة الاولى • وتذكر الرواية المسيحية المتأخرة ان فلول المسيحيين قد هربوا من اورشليم الى بلاد بللا ، قلعة المدق ، قبل الغزو الرومانى الأخير ليهودا • وتفرق المسيحيين اليهود كان سببا فى انقطاع التسلسل المستمر للرواية التى كانت قد ربطت بين عيسى (يسوع) ودوائر الحواريين بواسطة تقارير شهود

(١) يعقوب ليس فى الحقيقة أخ لسيدنا عيسى ، انما يمت له بصلة القرابة ، وهو أحد الحواريين الاثنى عشر • المترجمان •

عيان لاعمال المعلم واقواله • وقد صيغت رواياتهم الشفوية فى صور أدبية مختلفة التى بوبها نقاد الشكل للمدرسة التى طورها م • دييلبيوس Dibelius ولوبولتمان R. Bultmann منذ ١٩١٩ • واختفت هذه الروايات بسرعة غالبا عندما وضعت فى ثوب اغريقى ، ولكن سرعان ما حل محلها مجموعات مدونة ، وخاصة الاناجيل الشاملة التى جمعت حول نواة بطرسية وحول انجيل يوحنا ، الذى نقل اليها النظرة العميقة للمعلم التى وصلتنا عن الحوارى يوحنا • ويعتبر كل النقاد المحافظين تقريبا ان أقدم الاناجيل ، انجيل مرقس من المحتمل أنه جمع قبل ٧٠ ميلادية ، وحسب الرواية المسيحية المبكرة كان انجيل يوحنا يعتبر آخر الاناجيل ، وتاريخ يقع بين ١٨٠ م و ٩٠ ميلادية معقولا ، وربما يرجع تاريخ انجيلى متى و لوقا الى الفترة الوسطى بينهما ٧٠ — ٨٠ م •

ونقاد — الشكل بلا شك محققون فى تأكيد الدور العملى الذى قامت به الاناجيل فى الكنيسة الاولى ، وهودور قد يكون مسئولاً الى حد ما عن استمرار بعض الروايات على حساب البعض الآخر • وعلى العموم فهذا يبدو مختلفا اختلافا بينا عن الراى المتحيز البعيد عن الاحتمال الذى يعتقده عادة نقاد الشكل من ان معظم محتويات الاناجيل قد حورت او حتى اخترعت لتناسب مواقف ظهرت فى حياة الكنيسة • وبمعنى آخر يفرض معظم نقاد الشكل ان الاناجيل تعكس حياة كنيسة ما بعد الحواريين • وهذا الراى يخالف الراى التقليدى القائل بان الاناجيل هى وثائق اصلية تسبق كنيسة ما بعد — الحواريين • والحقائق الاثرية تتكلم بصوت مؤكد ضد اوهام نقد — الشكل المتطرف حسب راي دييلبيوس Dibelius بل حتى أشد حزما ضد الاراء المتطرفة لبعض تلاميذه • اما انجيل يوحنا على الاخص فهو فى موقف غير امين • وقد حمل ضده بولتمان ، خاصة حملات لم تنقطع دهورا • ويوحنا حسب ما يفترض هؤلاء العلماء لا يحتوى فعلا على اية مادة تاريخية فى الاصل ، ولكنه يعكس نظرة فئة مسيحية من اوائل القرن الثانى مصبوغة صبغة قوية بالعارفين بالله •

وعلى هذا الموقف رد مؤرخ التاريخ القديم أولستد Olmstead فى ١٩٤٢ بحزم بان قصص يوحنا (التى فصلها فصلا جبريا عن الاحاديث) كانت قد كتبت بالارامية قبل ٤٠ ميلادية ثم ترجمت بعد

ذلك الى الاغريقية ، ومن ثم فهو يتمسك بان قصص يوحنا هي اقدمها جميعا وأصدق مصدر لتاريخ حياة عيسى عليه السلام . ورغم ان هذه النظرية تعارض بشدة كلا من الروايات المسيحية المبكرة والتحليل النقدي الحديث ، بالاضافة الى جبريتها فى معالجتها الادبية للموضوع ، الا ان المرء يمكنه ان يرى حكم المؤرخ المتمرن المبني على أسس سليمة . فمن الطبيعى ان انجيل يوحنا ، يختلف فى اصله عن المجموعات العادية للرواية الشاملة فى عرضه لوجهة نظر حوارى واحد لا الرواية الموحدة لكنيسة الحواريين . . . وقد أجبر يوحنا مثل بطرس على ترك فلسطين ثم استقر فى افسس حيث اشتهر انه عاش عمرا مديدا قبل نشر الانجيل التى سجلت فيه مذكراته ، وقد تكون الرواية الموحدة لكنيسة الحواريين بلا نزاع الافضل من ناحية اخراج تسلسل أحسن لوقائع المعلم والاحاديث أكثر دقة له ، وان كان من الضرورى فى بعض الاحيان التوضيح بالحيوية واللون المحلى . وفى الفقرات التالية سنعطى بعض التوضيحات المختلفة عن دقة اللون المحلى فى يوحنا ، الذى يدل دلالة واضحة ان هذه الروايات قد وضعت اساسا فى شكلها الحالى قبل ٦٦ - ٧٠ ميلادية .

وفى كل من أناجيل كنيسة الحواريين ويوحنا ، بل أكثر انتشارا فى هذا الاخير ، نجد الاصطلاح الارامى « ربى » ترجم الى الاغريقية « سيد ، معلم » (مثلا يوحنا ١ : ٣٨ ، ٢٠ : ١٦) يطلق على عيسى عليه السلام . ويصر عدد من العلماء الربانيين على أن استعمال هذا التعبير فى الاناجيل هو تقليد للقديم استعير من استعمال القرن الثانى الميلادى ، عندما كان شائع الاستعمال فى مشنا (١) والمصادر المدونة الاخرى . وعلى العموم ، فى ١٩٣٠ نقب أ. ل سوكينيك E. Sukenik فى قبر تملكه الجامعة على جبل المكبر Scopus ، واكتشف فيه صندوق عظام (انظر الفصل الثامن) كان مكتوبا عليه الاسم الاغريقى ثيودوتيون Theodotion بحروف ارامية وكذلك الكلمة الاغريقية didaskalos كلقب للرجل الذى يحمل هذا الاسم . ومن ثم لا يمكن الادعاء فى امان بان انجيل يوحنا هو رواية متواترة عن هذه الناحية الخاصة . وقد أكد بعض العلماء فى الماضى ان اسماء الاشخاص المستعملة فى الاناجيل،

(١) كتاب التقاليد اليهودية . المترجمان .

وخاصة فى يوحنا ، كانت مختلفة وانها اختيرت لاغراض خاصة بسبب معانيها • ولكن نقوش صناديق العظام تثبت عدم صحة هذه المزاعم لاحتفاظها بكثير من هذه الاسماء نفسها (لوحة ٣٠) ولذا نجد عليها عادة ، ليس فقط اسم مريم (مارى) ، بل أيضا مرثا ، واليصابات ، وسالومة وحنانيا • الخ • كما يتكرر ظهور اسم سفيرة ، أعمال الرسل ٥ : ١ ، عدة مرات • وعيسى (يشوع) ويوسف ، هى بالطبع من أكثر الاسماء شيوعا فى هذه الفترة ، وصندوق عظام يحتوى على الاسم « عيسى بن يوسف » ، رغم انه قد اثار الدهشة فى بادىء الامر فهو يعكس اشيع تكوينات العصر • واسم لازاروس Lazarus فى نفس الصورة المختصر لعزار (لاسم اليعازار) الذى نجده فى الانجيل شائع جدا على صناديق العظام •

وعندما نلتنفت الى الاشارات الطبوغرافية سنقتصر على بعض أمثلة من يوحنا ، وسبب ذلك بالضبط انه قد نقد نقدا أشد مما وجه الى الانجيل الاخرى بسبب الخطأ الموجود فى الطبوغرافيا • ولكن يجب علينا أولا أن نتذكر قولنا السابق من أن أنجيل يوحنا كان أقل اهتماما بالبيئة الخارجية وتسلسل الاحداث عن أنجيل الحواريين ، وهى حقيقة تزيد كثيرا من أهمية الاشارات الطبوغرافية التى ذكرت فعلا فى هذا الكتاب • فى يوحنا ١٩ — ١٣ قيل لنا ان بيلاطس أمر باحضار عيسى (يسوع) أمامه فى موضع يقال له البلاط Lithostrolon وبالعبرية (أى بالارامية) جبائا (حرفيا الارض المرتفعة) ولم يقل لنا أن هذا البلاط كان فى برايتوريوم Praetorium كما قبلته الرواية دون نقاش • ولعشرات السنين دارت مناقشات حول مكان برايتوريوم وكانت ، الادلة فى صالح مكان قريب من سراى هرودس وبوابة يافا • ولكن قد تمكن ل • ه • هنست L. H. Vincent أن يحدد مكان البلاط بصفة قاطعة بأبحاثه مستعينا بكل من نتوءات الصخر فى منطقة برج انطونيا (فى الزاوية الشمالية الغربية لارياض الهيكل) والتنقيبات التى قامت بها فى هدوء سيدات سيون Dames de Sion والرهبان الفرنسيسكان من دير فلاجيلاشون Flagellation • وقد حدد الاب هنست مدى اتساع البلاط الرومانى المبكر البديع الموجود تحت قوس اكوهومو Ecco Homo على أنه لا يقل عن ٢٥٠٠ متر مربع • وقد أمكنه كذلك أن يثبت أن هذا البلاط هو بلاط برج انتونيا القائم على نتوء

مرتفع صخري يعلو عن الارض المحيطة به ، والذي اطلق عليه بكل دقة الكلمة الارامية جباتا . وبعد أن دفن البلاط تحت انقراض انتونيا بوقت طويل ، شيد فوقه الرومان الذين بنوا ايلياكابيتولينيا Aelia Capitolina قوس اكوهومو ، ولا يوجد ما يثبت صحة الزعم الذى يتردد دائما بأن القوس نفسه ينتمى الى البلاط . ومثل هذه الرواية الدامغة لابد أنها ترجع الى عصر يسبق اختفاء البلاط تحت اطلال الابنية المتهدمة خلال كارثة عام ٧٠ ميلادية ، وهذا التأييد الاثرى المثير من الاسماء الاغريقية والارامية الذى حفظ لنا فى يوحنا لا يمكن أن يكون مصادفة .

وهذا صحيح أيضا عن الاشارات الطبوغرافية — فى انجيل يوحنا ، ففى ٣ — ٢٣ نسمع أن يوحنا المعمدان كان يمارس عمله فى عين نون بقرب ساليم ، لانه كان هناك مياه كثيرة — فى الواقع أن هذه الاماكن لم تكن واقعة فى وادى الاردن الغنى بالمياه ، والا ما كان ثمة معنى لمثل هذا التعليق . ويسوع كان فى طريقه الى أرض اليهودية ، حسب ما جاء فى البيت السابق ، وعلى ما يظن بالطريق المباشر المعتاد متتبعا حافة حوض النهر من مرج بن عامر . وبغض النظر عن تحديدات المكان غير المحتملة فى الروايات المتأخرة ، لا يمكن فصل ساليم عن المدينة القديمة التى تحمل هذا الاسم جنوب شرقى نابلس كما لا يمكن ان يكون وجود مدينة عين نون الى جوارها مباشرة مجرد صدفة . والمصادر القرية من وادى فرعة غنية جدا بالمياه . أضف الى ذلك ، انه فى تلك الجهات نفسها قابل يسوع المرأة السامرية من سوخار (يوحنا ٤ — ٥ وما بعدها) وهذه المدينة الاخيرة هى التى توحد عادة مع مدينة عسكر الجديدة . وطالما يعتقد ان المدينة القديمة شكيم كائنة تحت مدينة نابلس ، ميلين الى الشمال الغربى ، فان التعرف على سيخار بأنه هو نفس المكان القريب عسكر كان مغريا . وعلى العموم أثبتت تنقيبات سيلين بصورة قاطعة بان شكيم (سكهم) كانت تقع فى بلاطة ويبلغ بعدها أقل من ثلث المسافة بين عسكر وبئر يعقوب (ومكانه مؤكد) . أضف الى ذلك ان بلاطه كانت دائما عامرة حتى ٦٧ ميلادية عندما دمرها فاسباسيان فى الغالب عند تدميره لمعبد السامرة على تل جريزم المجاور ، وبعد خمس سنوات أسس فاسباسيان مدينة جديدة نيابوليس Neapolis نابلس الجديدة (فى أعلى الوادى ، فلم يكن ثمة داع اذن

لإعادة بناء شكيم ، وهكذا يبدو من المؤكد المعقول ان الاناجيل السريانية القديمة صحيحة في قراءة شكيم Shechem بدلا من القراءة الاغريقية الشائعة سوخار Sychar والشكل الاخير ما هو الا تحريف للاصل شكيم Sychem (كما هو في أعمال الرسل ٧ - ١٦) ومن الواضح ان الحروف الاخيرة هي زلة كاتب سمح لعينيه أن تزوغ الى السطر السابق حيث يظهر اسم السامرة Samaria مرتين • وبعد تدمير شكيم وبناء نيبوليس ، فمن المحتمل أن أحد الرواة الذى لم يعتمد على الرواية القديمة ذكر نيبوليس على أنها أقرب المدن الى بئر يعقوب •

وعلى أية حال فهذه ليست الامثلة الوحيدة ذات الطابع الطبوغرافى المبكر الصحيح الموجودة فى الاناجيل ، وهى بالاضافة الى الادلة القوية على وجود طبقة لغوية ارامية تشير دون شك الى تاريخ لتكوين رواية الانجيل يقع قبل كارثة ٦٦ - ٧٠ ميلادية •

واذا كنفت الاناجيل قد دونت فى فلسطين لكان هناك دون شك تحديد ادق لاماكن كثير من تلك الحوادث التى ترويها ، ولكن لما كانت قد دونت كلها على ما يحتمل فى أنحاء مختلفة من الامبراطورية الرومانية (روما) افسس الخ ، فان الذين قاموا بجمعها كانوا دائما غامضين الى حد ما فيما يختص بالموقع الجغرافى العام • ولكن عندما اتبعوا رواية مباشرة امكنهم أن يعتنوا عناية فائقة بضبط مكان قصة بعينها • وفى رأى المؤلف انه لا يوجد بالاناجيل الا فيما ندر فقرة كان فيها لتاريخ الكنيسة التالى لعام ٧٠ ميلادية تأثير ملحوظ على شكلها • وان اختيار الروايات التى استعملها جامعوا النصوص كان خاضعا بصورة ما لاحتياجات المسيحيين فى تلك العهود ، يمكن أن يكون من جهة اخرى ، فرضا معقولا •

والاكتشافات الاثرية فى الاجيال الماضية فى كل من مصر وسوريا ، وفلسطين قد قطعت شوطا كبيرا فى اثبات انفراد المسيحية الاولى

كظاهرة تاريخية ، اذ كان يعتقد دائما في العهود السابقة ان المسيحية ما هي الا احدى الطوائف المختلفة العديدة ذات طبيعة متماثلة التي تكاثرت في المقاطعات الشرقية من الامبراطورية الرومانية عند نهاية عصرنا وبداية القرن الاول الميلادى • ولكن التنقيبات لم تكشف عن أية وثائق او مبان تنتمى الى مثل تلك الطوائف • وقد أمدتنا مصر بادلة كتابية مبكرة عن الديانات الوثنية واليهودية والمسيحية كما حفظت لنا مؤلفات مانى خابوس (Manikhios) (مذهب المانوية) التي كشفت عنها حديثا ، وغيرها من طوائف العارفين بالله وكلها متأخرة الى حد كبير عن ظهور المسيحية • وقد أمدتنا دورا التي تقع على الفرات بمعابد وثنية ومعبد لثرا ، ومجمع يهودى ، وكنيسة مسيحية ، كما أمدتنا أيضا بأجزاء من كتابات يهودية ومسيحية ، ولكن لم يعثر على أى شئ لاي طائفة أخرى مماثلة • أما فلسطين وسوريا فقد كشفت عن العديد من المعابد الوثنية والمجامع اليهودية والكنائس ولكن لا يوجد أى مبان دينية أخرى • ومن ثم تبدو المسيحية على ضوء الاثار ظاهرة تاريخية فريدة ، مثل عقيدة اسرائيل التي سبقتها •

وقد أضافت ملفات البحر الميت من قمران دليلا حيويا جديدا على قدم انجيل يوحنا نسبيا • فكثير من الكتب والجذاذات من أدب الاسينيين المفقود فى القرن أو القرن والنصف السابقة للصلب تدل على وجود دوائر دينية كانت هي الطليعة المباشرة ليوحنا المعمدان وليسوع • ولم يكن الأسينيون « مسيحيين قبل المسيحية » كما اقترح البعض ، ولكنهم كانوا طلائع يهودية لمسيحية الحواريين ، ونقط الالتقاء فى التعبير ، والرمزية والتشبيه التمثيلى من أدب الاسينيين وانجيل يوحنا وثيقة فى الواقع ، وأن كان يوجد أيضا أوجه تشابه بينها وبين كل أسفار العهد الجديد تقريبا ، ومن بينها : تعبيرات — ازدواجية مبسطة ، تقارن بين الخير والشر ، بين النور والظلام ، بين الحق والباطل والكفاح بين روح الحق وروح الضلال ، وتعبيرات مثل « اولاد الضوء » « نور الحياة » الذى يمشى فى الظلام ، « يعمل الحق » افعال الله

الخ •• ولكن ظل الاسينيون يهودا بكل معنى الكلمة وفلسفتهم الدينية كانت في الواقع متجانسة مع الفلسفة الدينية لدى الفريسيين Pharisees^(١) والحالات المفروضة انهما من تأثير مدرسة العارفين بالله على انجيل يوحنا لا تدخل في الواقع في الدائرة الحقيقية للعارفين بالله من القرن الثاني الميلادي على الاطلاق انما تثبت الصلة الوثيقة - في الزمن بين الاسينيين ويسوع (عيسى) •

(١) فريسي ، فريسيون (المنعزل) : فئة من فئات اليهود ظهرت في أيام سيدنا عيسى ولا تزال موجودة الى أيامنا هذه . وكانوا زعماء الحزب الذي قاوم الرومانيين وشتتوا بسبب ذلك . وكان الفريسيون قادة الشعب في امر الديانة ، ولكنها صارت في أيام السيد المسيح رياء وكثر اعتبارهم للامور الخارجية دون روح التقوى الحقيقية . واختلفت آراء الفريسيين في اعتقادهم بخلود النفس والجزاء والعقاب وعناية الله المعارضة لارادة الانسان الحرة وقالوا بوجود تواتر سماوى عن موسى وزعموا انه معادل لشريعته المكتوبة أو أهم منها ، وقد وبخهم السيد المسيح بنوع خاص على هذا التعبير الأخير . المترجم .

الفصل الثاني عشر

فلسطين القديمة فى تاريخ العالم

ما كان لفلسطين من تأثير عجيب على تاريخ العالم كان مصدر حيرة دائمة للمؤرخين الذين لديهم ما يكفى من الذرائع لتحيزهم . اذ كيف يمكن لتلك البلاد الصغيرة الفقيرة أن تخرج كلا من الديانتين : اليهودية (١) والمسيحية التى أثرت بواسطتهما تأثيرا لا مثيل له على مجرى النشاط الانسانى خلال الالفين سنة الاخيرة (٢) . ولذا يبدو هذا غير معقول للكثيرين الذين يزورنها لأول مرة . ولكننا نؤكد أن اليونان ، وهى مصدر الحياة الفكرية والجمال الفنى اللتان كيفسا كل التاريخ الغربى التالى ، كانت أيضا صغيرة وفقيرة فى طبيعتها (٣) — ولكن

(١) من الثابت من القرآن ومن التوراة أن الديانة اليهودية نشأت فى مصر ولم تنشأ فى فلسطين فقد ولد موسى فى مصر وتربى فى بلاط الفرعون ، كما كان موسى رسولا الى الفرعون والى المصريين قبل أن يهرب هو وقبيلته الى فلسطين ، واليهود منذ دخولهم فلسطين وهم فى حروب طاحنة مع جيرانهم حتى قضى عليهم الاشوريون قضاء تاما . المترجمان .

(٢) ليس هذا غربا ، فالجزيرة العربية وهى صحراء جرداء فقيرة كانت مصدر خير دين أخرج للناس ، وهو دين الاسلام الذى دعى العالم بأسره قديما وحديثا الى طاعة الله الواحد الأحد . وقد كانت دائما الجزيرة العربية الفقيرة مصدر الشعوب العربية السامية التى اندفعت منها وقوضت أركان الامبراطوريات القديمة الفارسية والرومانية والهندية والاوروبية وكان لها تأثير بالغ على تاريخ العالم فى جميع المجالات الدينية والادبية والعلمية والسياسية حتى اليوم . المترجمان .

(٣) مثل اليونان (الاغريق) ليس مثلا صحيحا كل الصحة . فباستثناء الاسكندر الذى نجح فى غزو جميع انحاء العالم القديم آنذاك بسبب اعتماده اعتمادا تاما على قوة الخيالة ، وقد ساعده فى ذلك الفراغ الفكرى والفلسفى الذى ساد العالم فى ذلك الوقت بعد انهيار المذنيات القديمة والتى لم تستطع الديانة اليهودية ، بسبب الانتوائية الانثانية والمادية التى تملأ نفوس أهلها ، أن تسد هذا الفراغ ، فالعالم اليونانى قد استبد علموه وآدابه من علوم الشرق القديم وهى مصر وبلاد الرافدين وبلاد الشام وكانت ازهى مدرسة للعلوم اليونانية هى مدرسة الاسكندرية حيث جمعت فيها =

بلاد الاغريق كانت قد اغتنت بسبب انتشار تجارتها انتشارا واسعا قبل ان تزدهر الروح الهيلينية ، وظلت غنية طيلة عصرها الذهبي ولكن فلسطين ، على العكس ، بقيت دائما بلدا فقيرا ، وحتى فترات ازدهارها النسبي كانت قليلة وقصيرة . ورغم ان اى مؤرخ لا يستطيع ان يجد حلا كاملا لهذه المعضلة العويصة ، فعلى الاقل يستطيع ان يجمع حقائق تسهل فهم ملازمة الارض المقدسة للقيام بدورها التاريخي . ومعالجة مشكلة مصير البلدان بالطريقة التقليدية عن طريق دراسة الجغرافية الطبيعية والاقتصادية أمر عديم الجدوى دون القيام بتحليل دقيق لقدراتها التاريخية التي لا يمكن فى الواقع فهمها دون توفر الحقائق الجوهرية التي يمدنا بها علماء الآثار . ويمكن ببعض الامثلة ان نوضح وجهة نظرنا فى انه يستحيل فهم تاريخ فلسطين أو دورها كمهد للتقاليد العبرية - المسيحية فهما كاملا دون مساعدة الآثار . وقد أوضح السورث هنتجتون (المتوفى) Ellsworth Huntington

فى كتابه المشهور (1912 Palestine and Its Transformation) معظم القدرات التاريخية لفلسطين حسب نظريته الافتراضية للتذبذب الدورى للمناخ وسقوط الامطار . فبجمعه معلومات من المصادر الادبية دون تمحيصها بالاضافة الى قيامه بدراسة سطحية للاطلاع الاثرية التي لا يستطيع حتى العلماء المشتغلون بالآثار من فهمها فهما صحيحا ، استنتج ان سلسلة الدورات الشديدة كانت تحدث فى مصادر مياه البلاد منذ الالف الثانية

= كل المخطوطات المصرية والشرقية اى مخطوطات الشعوب العربية ونقلت الى اللغة اليونانية مدعين انها من تأليفهم . كما ان الحضارة الاوروبية لم تزدهر مرة اخرى فى عصر النهضة الا بعد احتكاكها مرة اخرى بالدول العربية وتعلموا فى مدارسها التي كانت منتشرة فى اسبانيا وايطاليا بالاضافة الى دراستهم بمدارس الشرق الاوسط ونقلهم لهذه العلوم الحديثة الى لغاتهم . ومن العلوم للجميع ان بعض الكتب العربية ظلت تدرس بالمدارس الاوروبية حتى القرن الثامن عشر ولا ادل على ذلك من ان الاسماء الاوروبية لعلوم الجبر والكيمياء وهى من أحدث العلوم هى نفس الاسماء العربية ، فاسم كيمياء باليونانية Xamta معناه « الفن المصرى » لانه مستمد من الاسم المصرى كمت أرض كم Khem أى الارض السوداء (انظر : The Shorter Oxford English Dictionary واسم

Architect باليونانية $\alpha\rho\chi\iota\tau\epsilon\rho\alpha\varsigma$ مهندس
 أى رئيس البنائين ما هو الا ترجمة للكلمة المصرية امى - ر - كات
 (امير - كات) أى رئيس العمل أو رئيس اعمال البناء فكلمة Arch
 باليونانية معناها الرئيس ، TEKTON بناء : bulder (المرجع السابق) . المترجمان .

قبل الميلاد • ولكن البحث الاثرى المنظم قد أثبت ان كل استنتاجات
كانت خاطئة^(١) • مثال ذلك ، بعثة كولت Colt التى بينت ان المدن
الرومانية البيزنطية فى النقب لم تزدهر فى وقت واحد كما افترض
هنتجتون ، ولكن فى فترات مختلفة ، وتبعاً لذلك فان مجموع سكانها
فى الوقت الواحد كان أقل كثيراً مما استنتجه هنتجتون من مدى اتساع
اطلالها • اصف الى ذلك ، ان مستوى المياه الباطنية كان تقريبا هو
نفس المستوى الحالى اذ سرعان ما اثبت ذلك وولى ولورانس فيما
بعد • أما مصدر مياه هذه البلاد فكان عن طريق مواسير عديدة ،
ومن المياه التى كانت تجمع فى الخزانات الجافة من الشعاب
المجاورة • ومن تلك الاستنتاجات الخاطئة العديدة بنى هنتجتون هيكل
كبيراً من التفسير التاريخى فارجع انجازات بنى اسرائيل الى الزيادة
المزعومة فى موارد المياه مما أدى الى ازدياد السكان وموارد البلاد ،
اما جمود السكان تحت الحكم التركى فكان مصدره ، حسب رايه ، الى
فترة طويلة من القحط ، والفقر المترتب عليه ، ولما كان عدد كبير من
المؤرخين وعلماء الاجتماع قد قبلوا هذا الرأى فقد حدث تشويه خطير
للحقائق التاريخية •

وعلى العموم ، لم يكن هنتجتون الا واحداً من العلماء الممتازين الذين
حاولوا تفسير الظواهر التاريخية على أساس معلومات أثرية
وجغرافية خاطئة ، وفى عام ١٩٢٨ كتب أعظم مؤرخ للحضارات
القديمة فى العصور الحديثة ، ادوارد ماير ، بعد سنتين من زيارته
لوادى الاردن لأول مرة فى حياته ، وقد كان ذلك لسوء الحظ فى أوائل
الخريف — ان وادى الاردن جنوبى بيسان (بيت شان) و « بللا »
قاحل تماماً يشتعل نارا بين جدران الجبلية ، وانه لم تحدث اى محاولة
فى العصور القديمة السابقة للرومان لاستعمال الرى المنتظم فى زراعة
الأرض • ولا يسع المرء عند قراءة الوصف البديع لنفس هذه البقعة فى

(١) يعتمد العلماء الغربيون فى تفسيراتهم على نظرتهم المادية للأمور ،
ونسوا أو تناسوا ان جميع الأديان السماوية اليهودية والمسيحية والاسلامية
قلمت للحد من طغيان المادة على الروح • فموسى كان يعادى فرعون وعيسى
كان يعادى الرومان وكلهم كانوا اغنياء وطغاة • وقامت الدعوة المحمدية
لحاربة طغاة قريش وزعمائها الاثرياء وواجهت اباطرة الفرس والرومان
وهزمتهم رغم ضخامة جيوشهم وثراء بلادهم • المترجمان •

كتاب نلسون جلوك (نهر الاردن » ١٩٤٦ «The River Jordan»
الا يرى كيف ان البحث الاثرى قد دحض تماما الانطباعات غير المدروسة
لهذا المؤرخ العظيم ، وكان الافضل له ان يتمسك بمصادره الادبية •
ونتيجة لهذه الانطباعات الخاطئة ، قلل ماير من أهمية ما قامت به
مملكة اسرائيل القديمة من أعمال ، وفشل فى ان يدرك بعض العوامل
الحيوية فى حضارتهم المادية • ونوع آخر من الخطأ وقع فيه عالم
الاقتصاد الالماني المشهور فرنر سومبارت Warner Sombart فى
كتابه :

The Jews and Modern Capitalism
مثلا ، جمع تقديرات (أعلى أرقام التقديرات) عن مصادر الذهب
والفضة فى اسرائيل ، وخاصة فى عهد سليمان ، واعتبرها
على انها من مميزات فلسطين القديمة ، وقرر فعلا ان الاسرائيليين
كانوا يحتكرون المعادن الثمينة احتكارا جزئيا • ولما كان مجموع كميات
الذهب والفضة الذى عثر عليه حتى الان فى الطبقات الاسرائيلية صغير
نسبيا عندما يقارن بما عثر عليه فى الطبقات الكنعانية الاقدم او
بسوريا ، أو مصر وبلاد الرافدين المعاصرة له ، فمن المؤكد ان نتائج
سومبارت خاطئة كل الخطأ (١) ولا يوجد اى مختص غير متحيز فى
حقل دراسات الشرق الادنى القديم لا يمكنه ان يستنتج من بعد دراسة
منظمة لكل الادلة التى أمكن جمعها حتى الان الا ان اسرائيل كانت بلدا
فقيرا طوال تاريخها كله • وعلى ذلك فاستنتاجات سومبارت فيما يختص
بشدة قدم الرأسمالية اليهودية المزعومة باطل من الناحية الاثرية (٢)
ورغم ذلك فقد لعبت دورا فى اقناع فئة قوية من المثقفين الالمان بان
كراهية النازية لليهود (٣) لها ما يبررها تاريخيا •

ويمكننا تعداد الكثير من هذه الامثلة وبخاصة اذا ضمنا امثلة من
كتابات العلماء الاقل شأنا • وقد صار الان الدور الذى تقوم به الآثار
فى توفير المعلومات لتقدير تاريخ فلسطين تقديرا بعيدا عن التحيز كبيرا

(١) ان محاولة المؤلف للدفاع عن النزعة المادية عند اليهود ليس
صحيحا ، وادلتة مضللة ، فمصر وسوريا وبلاد الرافدين كلها بلاد ضخمة
تبلغ فى حجمها وفى عدد سكانها اضعاف فلسطين . كما ان ما عثر عليه
من ذهب سواء فى اطلال فلسطين أو مصر لا يعطى فكرة حقيقية عن
الواقع . اذ لم يعثر فى مصر على قدر من الذهب يستحق الذكر الا فى مقبرة
توت عنخ امون فقط ، اما المعابد والمدن القديمة فلم يعثر بها على ذهب
لأسباب كثيرة . وهذا ينطبق على فلسطين أيضا وخاصة أن مقابر بنى =

لدرجة لا يمكن معه لاي طالب أن يتجاهله دون أن يصاب بكارثة علمية . ورغم مرور عشرين عاما منذ أن بلغت دراسة الاثار الفلسطينية مرحلة من الاستقرار تكفل استعمال معلوماتها بمعرفة المؤرخين المترنين ، فلا يزال من الصعب جدا على غير المختص أن يتعرف على طريقة بين التواريخ والنتائج المتضاربة للآثريين . ومن ثم فلا عجب من أن عددا كبيرا من علماء فقه اللغة والمؤرخين مازالوا مترددين في اقتحام حقل الاثار ولكن حرصهم في غير موضعه ، وكتاب ميلر بارو What Mean These Stones ? : Millar Barrow قد حل بجدارة

محل كتاب س . ر . فريفر
S. R. Driver
Modern Research as Illustrating The Bible (1909)، الذي كان يعد في عصره مثالا للتقدير السليم للمعلومات الاثرية بمعرفة عالم ممتاز لم يسبق له أى تدريب أو خبرة أثرية . وبفضل هذا التجميع الجديد للمعلومات الجغرافية والاثرية أصبح في امكاننا الآن أن نعيد تكوين البيئة المادية في فلسطين القديمة بقسط أكبر من النجاح عما كان يستطيع أن يعمل أحسن الجغرافيين المؤرخين من المدرسة التي أسسها ادوارد روبنسون ووصلت الذروة بما قام به جورج ادم سميث من مسح متقن للمنطقة :
G.A. Smith: Historical Geography of Palestine, 1896.

ونظرا لوقوع فلسطين بين المركزين الرئيسيين للحضارة الشرقية القديمة مصر والعراق ، فقد كانت دائما تستمد من كليهما . فتقريبا

= اسرائيل لم تحتو على آثار ذهبية أو غير ذهبية ، ولكن مما لا شك فيه أن فلسطين كانت في عصر سليمان ، الذي استطاع أن يسيطر على الممالك المجاورة وعلى طرق التجارة بين مصر وبقية بلاد الشرق الاوسط ، بلاد غنية . فالؤلأف الالمانى لم يكن مخطئا في هذه الناحية ، ولا يزال اليهود حتى الان يسيطرون على تجارة العالم وخاصة في انجلترا وأمريكا ، بل ويسيطرون على مناجم الماس في جنوب افريقيا ولهم شركة ضخمة أسسها أوبنهايم للسيطرة على جميع محلات الجواهر والذهب في العالم . المترجم .

(٢) انظر الملاحظة السابقة .

(٣) حرفيا : الساميين ، فاليهود يدعون الان بانهم هم وحدهم الساميون دون بقية الشعوب العربية . والعكس هو الصحيح ، فليس هناك أدنى شك في اصالة الشعوب العربية السامية ، أما اليهود فلم يعرف لهم من الاثار اصلا قبل دخولهم فلسطين واتخاذهم اللغة العربية السامية الموجودة هناك لسانا لهم . المترجم .

جميع العناصر الهامة للحضارة الشرقية القديمة قد نشأت في أحد هذين الاقليمين ، ومنهما انتشرت حتما عن طريق سوريا وفلسطين . وحضارة فلسطين كانت تقريبا في كل العصور خليطا مكونا من عناصر مصرية وعراقية وعناصر من مصادر ثانوية أخرى . وهذا صحيح أيضا عن الادب والعلم والدين في كل من سوريا وفلسطين ، ومن ثم فقد ألمّ سكان فلسطين بكل التطورات الهامة لحضارة الشرق القديم . فحضارة الكنعانيين الأكثر رقيًا التي عرفت على الاخص من (أوغاريت) وحضارة خلفائهم الفينيقيين قد تأثرت تأثيرا عميقا عن طريق الاقتراض والتطبيق من مصر وبلاد الرافدين . وهذا صحيح كل الصحة فيما يختص في الفن والعمارة في اسرائيل التي اقتنفت بدقه نهضة فينيقية . وفي الادب والدين كان هذا أيضا في بعض النواحي أكثر صحة ، منذ أن كان العبرانيون الاول أكثر تعرضا بنجاح لمؤثرات مباشرة من بلاد الرافدين ومصر . والطالب الحصيف يندهش دائما أن يرى كيف أن أدق الامور في الادب البابلي والمصري عادة تظهر مرة أخرى في صورة محورة في التوراة العبرية .

وتعرض البلاد الصغيرة للمؤثرات الاجنبية ليس في حد ذاته مفيد ، وان كان معظمها في مثل تلك الاحوال يتقبل راضيا تلك الاراء الدخيلة . وتلال فلسطين ليست بعيدة عن طرق القوافل الرئيسية التي تمر خلال أودية الانهار والسهول الساحلية المحيطة بالمنطقة الجبلية . ونظرا لان هذه التلال ، التي لا يمكن اعتبارها جبالا لقلّة ارتفاعها ، يفصل بعضها عن بعض أودية عميقة ، وفي معظم الاحيان صخور شديدة الانحدار ، لذا لم تتعرض الى حد ما لمؤثرات أجنبية مباشرة .

وجفاف المنطقة الجبلية النسبي في فلسطين بالاضافة الى ارتفاعها جعلها احدى الاقاليم الصحية جدا في الشرق الاوسط والادنى ، كما جعلها أيضا من أفقر البقاع التي استقر بها سكان دائمون .

لا يوجد بين بلدان الشرق التي عمرت بسكان مستقرين بلد خلا من مصدر مياه ثابت غير فلسطين ، فمناخها الذي يتبع مناخ البحر الابيض يتركها بلا مطر تقريبا مدة نصف عام ، في المتوسط . ولما كانت فلسطين تقع عند النهاية الجنوبية للرياح الغربية المطيرة ، فسقوط المطر يقل تدريجيا كلما توجهنا جنوبا ناحية النقب . والاشثية الكثيرة التي

لا ينزل بها مطر يكفي حاجة البلاد ولا يعرف مواعيدها • ولذلك حدثت مجاعات فظيعة في فلسطين طوال تاريخها • بالإضافة الى أن من أسباب تلف المحاصيل غزوات الجراد وجرذان الحقل وغير ذلك من الاسباب • ولذا لا يستطيع الانسان التأكد من أنه سيظل محتفظا بأرضه مدى الحياة ، بل ان الحياة نفسها في أحسن ظروفها لم تكن مضمونة • فليس من المستغرب إذن أن يؤكد الكنعانيون عبادة بعل — هدد وغيره من آلهة العواصف ، وكذلك كانت صفة يهوه هذه هي الغالبة في اسرائيل القديمة • ومن ثم كانت الحياة في الاقليم الجبلي من فلسطين العتيقة حافظا دائما على العمل الدينى الذى أثر تأثيرا كبيرا في اقناع الناس على بلوغ مستويات روحية وأخلاقية رفيعة ، ولا يمكننا أن نفهم بنى اسرائيل وكاتبها الأول^(١) ، عاموس ، فهما صحيحا الا على ضوء الاسس الجغرافية الاقتصادية • وبهذا التحفز المنبثق من الروح الذى رفع عقيدة اليهود فوق جميع الديانات الوثنية المنتشرة في تلك الايام •

ورغم أن علم الآثار يستطيع بذلك أن يوضح تاريخ فلسطين القديمة وأحوالها الجغرافية فإنه لا يمكنه أن يوضح معجزة عقيدة اليهود أو المسيحيين ، ولكن علم الآثار يمكنه أن يساعد مساعدة كبيرة في جعل المعجزة مفهومة عقليا للشخص النابه الذى لم تغش بصره النظرة المادية الحالية • كما يبين أيضا سخافة مواقف الفئات المتطرفة من عقيدة الوحي الشفوى للأسفار المنزلة

(١) محاولة المؤلف تفسير تيسك بنى اسرائيل بدينهم مرجعه الى بعد تلال فلسطين عن العمران ليس صحيحا • فقبيلة بنى اسرائيل قد عاشت في مصر في شرق الدلتا وهى منطقة زراعية وهنا أمر موسى بالتوجه الى فرعون لدعوته لطاعة الله وحده وبعد خروجهم من مصر الى سيناء ماكد يتركهم موسى لملاقاة ربه حتى فتتهم السامري ، وعادوا وهم في وسط الصحراء الجرداء الى عبادة المادة في صورة بقرة من ذهب وعندما استقروا بفلسطين خرجوا مرارا عن طاعة الله كما ذكر ذلك مرارا بكل وضوح في التوراة وفي القرآن الكريم • المترجمان •

فملازمة بنى اسرائيل لخبثهم الجبلى كان اضطراريا فبعد خروجهم من مصر وضلالهم في الصحراء فترة طويلة لم يكن يستطيعون مواجهة أى جيوش قوية سواء مصرية أو غيرها مما اضطرهم الى التزام العزلة حتى صلحت حالهم واستقرت أمورهم فأمكنهم مواجهة الامم الصغيرة المحيطة بهم ، وان كانت هذه الحال لم تدم طويلا فجيوش الامبراطوريتين المصرية والاشورية كانت دائما تهددهم حتى قضى الاشوريون عليهم قضاء تاما • المترجمان •

التي كان معترفا بها يوما ما ، الى الخزعات المستهجنة لهؤلاء الذين يعتقدون فيما للاعداد من خواص مقدسة ، وفي الشفرات المزعومة في التوراة • ويشن علم الاثار على هذه الاراء وعلى غيرها من الاشكال الحديثة للسحر القديم حربا الا هوادة فيها • ومما يضايق عالم الاثار الرصين أشد المضايقة أن يرى العقيدة الدينية قد شابها السحر بواسطة مفسري مذهب المادية الرخيصة ، أما بالنسبة لهؤلاء الذين يعتقدون في رسالة فلسطين التاريخية فأثارتها لها قيمة ترتفع كثيرا عن مستوى الاثار التي يتحتم عليه دائما العمل بها ، الى عالم يشترك فيه التاريخ والدين في عقيدة عامة عن الحقائق الابدية للحياة •

تأتمة بالاشكال التوضيحية

خريطة لآثار فلسطين :

شكـل	صفحة
١ - أدوات من الصوان من العصر المفلوازي - المستيرى الاسفل (نقلا عن دوروثى جارود)	٥٩
٢ - تمثال من المرل من مرحلة ما قبل الفخار فى العصر الحديث فى أريحا	٦٥
٣ - مدفن من الطين مشكل على هيئة بيت من العصر الكالكوليثى من الخضر	٧٢
٤ - فخار من العصر البرونزى المبكر الاول فى متحف فلسطين	٧٦
٥ - فخار من العصر البرونزى المبكر الثالث من بيسان	٧٨
٦ - فخار من طبقة ح من العصر البرونزى المتوسط الاول من تل بيب مرسيم	٨٤
٧ - مسكن شيخ من طبقة د فى تل بيب مرسيم	٩٧
٨ - فيلا من عصر البرونز المتوسط عند سفح جبل جرزيم	٩٧
٩ - فخار من العصر البرونزى المتوسط الثانى فى متحف فلسطين	٩٨
١٠ - ظباء تجرى . تطعيم على العاج عصر البرونز المتوسط من تل بيب مرسيم	٩٩
١١ - لوح لسيتى الاول من بيسان (حوالى ق . م)	١٠٣
١٢ - لويحات عشقاروت من تل بيب مرسيم : أرقام من ١ - ٥ من عصر البرونز المتأخر ، ومن ٦ - ١٠ من عصر البرونز و ٦ - ١٠ عصر الحديد الاول	١٠٧
١٣ - صندوق من العاج مزخرف بأسود وملائكة خرافية من مجدو حوالى القرن الثالث عشر قبل الميلاد	١٠٨
١٤ - عاج مشكل على هيئة ملاك خرافى من مجدو ، أوائل القرن الثانى عشر قبل الميلاد	١٠٨
١٥ - تطعيم على العاج من لخيش (القرن الثالث عشر ق . م)	١٠٩

- ١٦ — قلعة شاعول من تل الفول (حوالى ١٠٠٠ ق م) . . . ١٢٢
- ١٧ — منظر تطعيم على العاج ، مجدو ، أوائل القرن الثانى عشر ق م وهو يبين تأثير الفن المصرى ١٢٥
- ١٨ — زخرفة متحابقة على عاج من مجدو . وائل القرن الثانى عشر ق م ١٢٦
- ١٩ — تمائم الالهة من تل بيب مرسوم معظمها من القرن السابع ق م ١٣٣
- ٢٠ — قصر فارسى فى لخيش (حوالى ٤٠٠ ق م) ١٤١
- ٢١ — فخار هيلينستية فى متحف فلسطين ١٤٤
- ٢٢ — تخطيط لبلدة مريسا الهلينستية (القرّة الثانى ق م) ١٤٨
- ٢٣ — المكان العالى العظيم فى البطراء ١٥٨
- ٢٤ — قوس النصر فى جرّش (الواجهة الجنوبية) ١٦٢
- ٢٥ — معبد زيوس فى جرّش ١٦٤
- ٢٦ — مجمع من القرن الثالث الميلادى فى كفر ناحوم ١٦٦
- ٢٧ — مجمع كفر برعيم (شكل تصويرى) ١٦٦
- ٢٨ — قائمة بالخطوط الفينيقية والعبرية ١٨٣
- ٢٩ — قائمة بخط سيناء والخطوط الكنعانية والعربية الجنوبية ١٨٤
- ٣٠ — تصوير مجيء الاسيويين الى بنى حسن (حوالى ١٨٩٢ ق م) ١٩٨

مجموع أسماء الاعلام والمصطلحات

Aaron	هارون	أنطيوخوس - يوباثور	Antiochus Eupator
Abana	نهر بردى	أبو كريفا	Apocrypha
'Abdeh	عبد	مهد أبوال	Apollophanes
Abel	هابيل	أكحات (أفحات)	Aghat
Abraham	إبراهيم	أرادوس - أرواد	Ardus
Abraham's Oak	بلوطه إبراهيم	أرامى	Aramaic
Abssalom	إشالوم	أراونا	Araunah
Açvin	أشون	مرق الأمير	'Araq el-Emir
Adonis	نهر إبراهيم	أريتاس - الحارث - حارثه	Aretas
Aegean	إيجى	أرجوس	Argos
Aelia Capitolina	إيليا كابيتولينا	أرباذنى	Ariadne
Aeneolithic	عصر بداية استعمال المادن	الحديقة الأرمينية	Armenian Garden
Agglutinative tongue	لسان لصق	أرنون	Arnon
Agrippan Wall	سور أغريپاس	أرسلان طاش	Arslan Tash
Ahab	أخاب	عسقلان	Asclon
Ahiram	أحيرام	آسية الصغرى	Asia Minor
Ai	عاى	أشور	Assur
Alexander-Jannaeus	الكسندر يوحنا	أتابريون - تابور - جبل الطور	Atabyrion
Alexandrium	الكسندر يوم - قصر الكسندر	أتر كاتيس - أترجاتيس	Atargatis
Allat	اللات	عتليت	'Athlit
Amarna	تل المارنة	حفارة عتليت	'Atlitian Culture
'Amman	عمان	أتر يوم	Atrium
Ammon	عمون	عوجا الفقير	'Auja el-Hafir
Ammonite	العموني	معبد أغسطس	Augusteum
Amos	عاموس	باب الدراع	Bab edh-Dhra'
Anastasis	انستاسيس	بابل	Babylon
Anthodon	أنثيدون . لبنان الشرقى	بلاد بابل	Babylonia
Antilibanns	أنطليبانوس	باكيديس	Bacchides
Antioch	أنطاكية	بلاطه	Balatah
	أنطيوخوس - أبيفانيس	البالوعة	Balu 'ah
Antiochus Epiphanes		يعقوب البردهمانى	Bardaisan

Bar Kokhba	بركوخفاه
Beersheba	بئر سبع
Beitin	بيت الدين
Bene Hezir	بنى حيزير
Beth-anath	بيت عنات
Bethel	بيت ايل
Beth dagon	بيت داجون
Beth horon	بيت حورون
Bethlehem	بيت لحم
Beth-shan	بيسان ، بيت شان
Beth-shearim	بيت شاريم
Beth-shemesh	بيت شيمش - بيت شمس
Beth-yerah	بيت يراح - بيت القمر
Beth-zur	بيت زور
Bittir	بيتر - بيت العربية
Boghzkoy	بوغاز كوي
Bosa	بوسا
Byblos	بيبلوس - جبيل - جبلة ، كينا
	قيصرية فيليب ، بنياس
Caesarea phillippi	
Canaanite	كنعاني
Capernaum	كفرناحوم
Cappadocia	كبادوكيا - كبادوكية
Carchemish	كر كيش قرقيش
Carian	الكارية
Carmel	الكرمل
Carmona	قرمونه
Carthage	قرطاجنة (في شمال أفريقيا)
Chagar Bazar	جيجي بزار
Chalcolithic	العصر
	النحاسي - عصر بداية استعمال النحاس
Chedorlaomer	كدرلومر
Chinnereth	شيزيت (تل العريمة)
Chorazin	كورازين

Chronicles	سفر أخبار الأيام
Cilicia	كيليكية
Crete	كريت
Cypriote	القيرونية
Damascene	دماسين
Damascus	دمشق
Dan	دان (تل القاضي)
The Dead Sea	البحر الميت
Debir	ديبر
Deborah	دبورة
Decapolis	ديكابوليس
Delos	ديلوس
Deuteronomy	سفر التثنية
Dibon	ديبون
Domus	بيت
Doric stadium	الملعب الدوري
Dothan	دوثان
Dura	دورا
Dusares	دوسارس (ذو الشرى)
Ebenezer	حجر المونة ، ابنازر
Eboda	عبودا
Edessa	ايدسا (الرها)
Eglon	عجلون
Ein es-Sultan	عين السلطان
Ein Feshkhah	عين فشخه
Ekron	عقرون
Elam	عيلام
Eleazar	إليعازر
Eleutherus	اليوثيروس . النهر الكبير
el-Khadhr	الخنصر
Elizabeth	إليصابات ، اليزابيث
Elusa	الوسا
Enkomi	انكومي
Ephesus	افسس
Esdras	سرج بن عامر (عزرايون)

Bssene Sect	الأسينيون	Habakkuk	حبقوق
Eudocia	يودوكيا	Halafian Culture	حضارة حلف
Eusebius	يوسيبوس	Hamath	حماة
Exodus	سفر الخروج	Hamitic	الحامية
Eynan	عينان	Haram Ramet el-Khalil	حرم رامة الخليل
Ezekiel	حزقيال	Harmony of the Gospels	توافق الاناجيل الأربعة
Ezion-geber	عصيون جابر	Harbaj	هارباج
Ezra	عزرا	Harran	حاران
Faiyum	الفيوم	Hathor	حتحور
Feast of Tabernacles	عيد المظال	Hauran	حوران
Fertile Crescent	الهلل الحصب	Hazael	حزائيل
Frank Mountain	جبل فرنك	Hazor	حاصور
Gadara	جدارا	Hebron	حبرون
Galilee	الجليل	Helena of Adiabene	هيلينا ملكة أديابني
Gaza	غزة	Herod	هرودس
Genesis	سفر التكوين	Herod Agrippa	هرودس اغريباس
Gens Vettens	عائلة فيتني	Hezekiah	حزقيا
Gerar	جيرار	Hiel the Bethelite	حيثيل البيثيلي
Gerasa, Jerash	جراسا ، جرش	Hierapolis	هيرابوليس منبج ، مابوج
Gerizim	جرزيم ، جرزم	High Place	مرتفعة (المكان المرتفع)
Gerza	جرزه	Hippicus	هيبيكوس
Gezer	جازر	Horites	الخوريون
Gezer Calender	تقويم جازر	Hosea	هوشع
Ghassul	غسول	Huleh Lake	بحيرة الحوله
Chassulian Art	الفن النسول	Hums	حمص
Gibeah	جبعة	Hureidha	حريضة
Gibeah of Saul	جبعة شاول	Hurrians	الخوريون
Gideon	جدةون	Huyuk	هويوك (تل)
Gilboa	جلبوع	Hyrcanus	هركانوس
Gilead	جلعاد	Iardanus	ياردانوس (أردانوس)
Gortin	غورثين	Ibleam	أبلعام
Greece	بلاد الإغريق ، اليونان	Idumaea	أيدوم
Greek	أغريق ، يوناني		
Guadalquivir	جوادالكوفيير		

Iliad	الآلياده	Kambe Stage	المرحلة الكامبية
Isaiah	أشعيا	Kebaran	كباران
Isbeita	ايسبيتا	Kedar	قيدار
Jabbok	يوق	Kefr Bir 'im	كفر برعم
Jacob	يعقوب	Keret	كرت
Jaffa	يافا	Khalasah	خلاصة
St.James	سانت جيمس ، القديس يعقوب	Khabiru	خابيرو
Jebusite	اليبوسى	Khirbet Kerak	خربة كراك
Jeho	ياهو	Khirbet Qumran	خربة قمران
Jehoshaphat	يهو شافاط	Khirokitia	خير وكيتا
Jemdet Nasr	جمدة نصر	Khudh khuqheirah	الخضيره
Jemmeh	جمه	Kilwa	كلوة
Jerash	جرش	Kiriath-sepher	قرية سفر
Jeremiah	أرميا	Koine	كويى
Jericho	أريحا	Lachish	لخيش
Jeroboam	يربعام	Lagides	بنو لاغوس
Jerusalem	أورشليم ، بيت المقدس ، القدس	Laish	لايش (تل القاضى)
Job	أيوب	Lakhamu	لاخو (إله)
Johanna	حنانيا	Lamech	لامك
John	يوحنا	Larsa	لارسا
John Hyrcanus	جون هكانوس	Lebanon	لبنان
Jokneam	يوكنيعام	Lejjun	لجيون
Joppa	يافا	Leontes	نهر اليلطاقى
Jordan	الأردن	Lihanite	الليانيه
Jordan Valley	وادي الأردن	Lycus	نهر الكلب
Josephus	يوسيفوس	Lydda	اللد
Joshua	يشوع	Luke	لوقا
Josiah	يوشيا	Maccabaeen	مكابى
Juda	يهودا	Maccabean	المكابيون
Judea	اليهودية	Machaerus	ماخورس
	جوبيتر كابيتولينوس	Machpelah	مكفيله
Jupiter Capitolinus	كاماريس (فى كريت)	Madeba	مأدبا
Kamare		Magarus	نهر بيروت ، ماغورث
		Magharet Abu 'Usbah	مغارة أبو عصبه

Magharet el-Khiyam	مغارة الخيام	Nahor	ناحور
Magharet el-Wad	مغارة الواد	Nash fragment	جذاعة ناشب
Maltese	ملطى	Nebo	نبو (اسم جبل)
Mamilla Pool	بحيرة ماميل	Negeb	صحراء النقب (نجف)
Mamre	عمرا	Nessana	نيساننا
Mandaean	مندعية (لغة)	Nora	نورا
Manichaean	مانى خايوس	Numbers	سفر العدد
Mari	مارى ، تل الحريرى	Nuzi	نوزى
Marisa	مريسة	Obeidian Culture	حضارة العبيد
Mark	مرقص	Odyssey	الأودسا
Marqa	مركة	Omri	عمرى
Massada	مسده	Ophel	الأكمة ، أو فيل
Mathew	ماتى	Oracles of Balaam	تنبؤات بلعام
Mayan	المايوية (حضارة)	Orontes	نهر العاصى
Megillath Ta 'anith	مجلة ثعنيت	Osée	عزيا
Mersin	مرسين	Osorkon	أوسركون
Mesha	ميشع	Palestine	فلسطين
Mesolithic	العصر الحجري الوسيط	Parallelism	الازدواج (فى الشعر العبرى)
Mesopotamia	بلاد الرافدين	Parthian	الفرثية
Minacan	المعينية	Patriarchs	الأباء ، آل يعقوب
Minet el-Beida	الميناء الأبيض	Pelagians	الفلاصحيون
Miriam	مريم	Pella	بلا
Mishnah	مشنا	Pontateuch	أسفار موسى الخمسة ، ناموس
Mitra (Mithra)	ميترا	Pentecost	عيد الخمسين
Mizpah	مصفاة	Perdiccas	برديكاس
Moab	موآب	Petra	البتراء ، بطره ، بتر
Moloch	مولك (اله بئى عمون)	Pharisees	الفريسيون
Mount of Olives	جبل الزيتون	Phasael	فزايل
Mount Casius	جبل كاسيوس (جبل الأقرع)	Philadelphia	فيلادلفيا
Mycenae	ميسينا	Philistines	الفلسطينيون
Nabatene	دولة الأنباط	Philo	فيلو
Nabatean	نبطى	Pilate	بيرطلى
Nablus	نابلس	Plain of Sharon	سهل شارون
		Plutarch	بلا تارخ

Praetorium	برايتوريوم
Provincia Arabia	بروفنسيا أرابيا ، مقاطعة العرب
Pylos	بايلوس
Pyramid of Zacharias	هرم زكريا
Qai 'at Jarmo	قلعة جرمو (في العراق)
Qarn Sartabeh	قرن صرطبة
Qasr Far 'on	قصر فرعون
Qatana	قطنة
Qumran	قران
Ras Shamra	رأس الشمر
Rhodes	رودس
Rhodian	رودني
Rome	روما
Rum Qaleh	قلعة الروم
Salome	سالومه
Samaria	السامرة
Samson	شمشون
Sandahanna	ساندانة
Sanskrit	سكريت
Sapphira	سفيرية
Sbeitah	سبيتة
Scopus	جبل المكبر
Scythopolis	سكثوبوليس
Sea Peoples	شعوب البحار
Sebaste	سيباستي
Seleucids	السلوقيين
Semchonitis	الحولة
Semitic	السامية
Serabit el-Khadim	سرابة الخادم
Severus	سيفيروس
Sharuhén	شاروهين
Shechem	شكيم
Sheikh Abreik	شيخ ابريق ، شيخ ابريق

Shephelah	شفا الله ، السهل الفلسطيني
Shihan	شيهان
Shiloh	شيلوه
Shishak	شيشق
Sidon	صيدون ، صيدا
Siloam	سلوام
Simon Maccabaeus	سيمون المكابي
Sinai	سيناء
Sinda	سندا
Sirion	لبنان الشرقي
Solomon	سليمان
Square Hebrew	الخط العبري المربع
Subeta	سوبيتا
Susa	سوس
Sychar	هيخار
Synagogue of Freedmen	مجمع المعتقاء
Taanach	تمنك ، طاناش (تاعانكا)
Tabor	تابور ، جبل الطور
Tabun	تابون
Tanit	تانيت
Teleilat el-Chassul	طليلات الحسل
Tell Abu-Hawam	تل أبو هوام
Tell Beit Mirsim	تل بيت مرسيم
Tell-el-Duweir	تل الدوير
Tel el-'Ajjul	تل المجلول (غزة القديمة)
Tell el-Far 'ah	تل الفرعة
Tell el-hesi	تل الحسا
Tell el-Khaleifeh	تل الخليفة
Tell el-Qedah	تل القاضي
Tell.en-Nasbeh	تل النصبه
Tell Jemmeh	تل جمه
Tell .Keisan	تل قيسان
Terah	تارح
Tethys Sea	بحر تيثيس

Thessaly	تساليا	Uzziah	عزيا
Tiberius	طبرية	Varuna	فارونا
Tjikal People	شعب الشكر	Venus	فينوس
Tobiad Family	عائلة طوبيا	Vespasian	فاسباسيان
Tobiah	طوبيا	Wadi Dhobai	وادي دوباى
Tower of Antonia	برج أنطونا	Wadi Qelt (القلت)	وادي الكلت (القلت)
Tower of David	برج داود	Yucatan	يوكاتان
Trajan	تراجان	Yughlan Tepe	يورغان تپه
Transjordan	شرق الأردن	Zencirli	سنجرلى
Tubias	طوبياس	Zeno Papyri	برديات زينو
Tushratta	توشراتا	Zerubbabel	زربابل
Tyre	صور	Zeus	زيوس
Ugarit (أوجاريت)	أوجاريت (أوجاريت)	Zeus-Hadad	زيوس - هدد
Umm el-Qatafah	أم القطافه	Zibb 'Atuf	زيبب عطوف
		Zimri-Lim	زيمري ليم
		Zion	صهيون

محتويات الكتاب

٣	نبذة عن المؤلف
٦	مقدمة الناشر
١١	الفصل الأول : فن حفر تل فلسطيني
٢٧	الفصل الثاني : تاريخ الكشف عن فلسطين القديمة
٥٣	الفصل الثالث : فلسطين في عصر ما قبل التاريخ
	الفصل الرابع : فلسطين في العصر الكالكوليتي والعصر البرونزي
٦٩	المبكر
	الفصل الخامس : فلسطين في العصرين البرونزي المتوسط
٨٣	والبرونزي المتأخر
١١١	الفصل السادس : فلسطين في عصر الحديد
	(أ) عصر الحديد الأول (من القرن الثاني عشر — القرن
١١٥	العاشر)
	(ب) عصر الحديد الثاني (من القرن التاسع حتى أوائل القرن
١٣٠	السادس قبل الميلاد)
١٣٨	(ج) عصر الحديد الثالث (٥٥٠ — ٣٣٠ ق.م)
١٤٣	الفصل السابع : فلسطين في العصر اليوناني الروماني
	الفصل الثامن : الاجناس واللغات والكتابة والادب في فلسطين
١٦٩	القديمة
١٩٥	الفصل التاسع : الحياة اليومية في فلسطين القديمة
١٩٥	عصر آل يعقوب : عصر البرونز المتوسط الثاني
٢٠١	عصر ايليا : الحديد الثاني
٢٠٤	ازمنة العهد الجديد
٢١١	الفصل العاشر : العهد القديم والآثار
٢٣١	الفصل الحادي عشر : العهد الجديد والآثار
٢٤٣	الفصل الثاني عشر : فلسطين القديمة في تاريخ العالم
٢٥١	قائمة بالأشكال التوضيحية
٣٥٣	معجم أسماء الاعلام والمصطلحات

مطابق الأصل رقم التجارة

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١/٣٨١٨

